سلسلة السياسة والمجتمع

الثورة الدائمة

و

نتائج وتوقعات

تأليف

ليون تروتسكي

ترجمة

بشار أبو سمرا



دار الطليعة - بيروت

«نتائج وتوقعات»

و

«الثورة الدائمة»

الطبعـــة الأولى
آذار (مارس) ، ١٩٦٥

ليون تروتسكي



ترجمة

بشار أبو سمرا

منشورات دار الطليعة - بيروت

كارل ماركس : حول الثورة الدائمة

« لقد رأينا كيف سيصل الديمقراطيون الى الحكم في الحركة القادمة ، وكيف سيجبرون على اقتراح اجراءات ذات طابع اشتراكي نوعاً ما . وقد يسأل سائل : ما هي الاجراءات التي يجب ان يقترحها العمال في المقابل ؟ لا يستطيع العمال طبعاً ان يقترحوا اجراءات ذات طابع شيوعي مباشر منذ بداية الحركة . ولكن بامكانهم ان يقوموا بما يلي :

١ – عليهم ان يجبروا الديمقراطيين (البرجوازيين) على الاجهاز على النظام الاجتماعي القديم بان يفتحوا فيه اكبر عدد ممكن من الثغرات ، وعلى عرقلة خط سيره المنتظم وعلى توريط انفسهم ، بالاضافة الى وضع اكبر عدد ممكن من وسائل الانتاج بين ايدي الدولة كوسائل النقل ، والمصانع ، وسكك الحديد ، الى آخره .

٢ – على العمال ان يدفعوا باقتراحات الديمقراطيين ، التي لن تكون ثورية مطلقاً بل اصلاحية ليس إلا ، الى اقصى الابعاد محوّلين اياها الى هجمات مباشرة على الملكية الفردية . مثلاً عندما تقترح البرجوازية الصغيرة شراء سكك الحديد والمصانع ، على العمال ان يطالبوا بان تصادر الدولة سكك الحديد والمصانع هذه لكونها ملكاً للرجعيين رأساً وبدون تعويض . واذا اقترح الديمقراطيون ضريبة نسبية ، على العمال ان يطالبوا بضريبة تصاعدية ؛ واذا اقترح الديمقراطيون انفسهم ضريبة تصاعدية معتدلة ، على العمال ان يصروا على ضريبة تكون نسبها مرتفعة بحيث تؤدي الى تحطيم رأس المال الكبير ؛ واذا طالب الديمقراطيون بتسوية ديون الدولة ، على العمال ان يطالبوا باعلان افلاسها . وهكذا تسير مطالب العمال دائماً وابداً على هدى تنازلات الديمقراطيين واجراءاتهم .

وفي حـــال عدم تمكن العمال الالمان من استلام الحكم وتحقيق مصالحهم الطبقية دون المرور بمرحلة كاملة من التطور الثوري ، فمن المؤكد هذه المرة ان اول فصل من هذه المأساة الثورية المداهمة سوف يصادف انتصار طبقتهم في فرنسا فيسرع بالتالي في تحقيق ثورتهم .

ولكن عليهم ان يبذلوا اقصى جهدهم لاحراز النصر الاكيد بواسطة توعية انفسهم على مصالحهـــم الطبقية ، وتبنيهم باسرع وقت ممكن لموقف حزبي مستقل ، وبرفضهم ان تحرفهم العبـــارات الخبيثة التي يرددها ديمقراطيو البرجوازية الصغيرة ، ولو لحظة واحدة ، عن تنظيم حزب البروليتاريا بشكل مستقل . يجب ان يكون شعاز نضالهم : الثورة الدائمة » .

(من خطاب الى « العصبة الشيوعية في نيسان عـــام ١٨٥٠ حول ثورة ١٨٤٨ – ١٨٤٩ في المانيا .)

مَن هو ليون تروتسكي

ولد ليون تروتسكي (الاسم الحقيقي : ليف دافيدوفيتش برونشتاين) في مقاطعة « خيرسون » في اوكرانيا يوم السابع من تشرين الأول عام ١٨٧٩ في عائلة من المزارعين اليهود . وأمضى السنوات التسع الأولى من حياته في مزرعة العائلة ثم التحق بالمدارس الثانوية في « اوديسّا » و « نيكولاييف » بين الأعوام ١٨٨٨ و ١٨٩٧ . وقبل ان يتخرج من مدرسة « نيكولاييف » كان تروتسكي قد انضم الى حلقة ثورية سرية تابعة للنارودنيين (الشعبيين) ، ثم ما لبث ان اعتنق الماركسية بعد عام من ذلك فانضم إلى الحركة الاشتراكية – الديمقراطية وكان أحد مؤسسي وقادة « الاتحاد العمالي لجنوب روسيا » . اعتقل في أوائل عام ١٨٩٨ مع أعضاء آخرين في الاتحاد بتهمة الاشتراك في قيادة عدد من التظاهرات والاضرابات العمالية وطبع الكتابات الممنوعة في « نيكولاييف » . احتجز في السجن مدة سنتين ثم نفي الى سيبيريا لمدة أربع سنوات بدون محاكمة. تزوج في المنفى من ألكسندرا سوكولوفسكايا وولد لهما طفلتان ، نينا وزينا ، في سيبيريا . وفي المنفى ايضاً انضم تروتسكي الى « الاتحاد الاشتراكي – الديمقراطي في سيبيريا » واشتهر باسمه المستعار « آنتيد – أوتو » كمعلق سياسي ومحلّل اجتماعي وناقد أدبي . هرب من المنفى عام ١٩٠٢ ولبّى دعوة لينين في الذهاب الى لندن حيث التحق بالمجموعة من الدعاويين الماركسيين التي كانت تصدر صحيفة « ايسكرا » (الشرارة) الى جانب لينين وبليخانوف واكسلرود

وزاسوليتش ومارتوف وبتروزوف . اشترك في المؤتمر الثاني « لحزب العمال الاشتراكي – الديمقراطي الروسي » الذي عقد في بروكسيل ولندن عام ١٩٠٣ والذي حدث فيه الانشقاق التاريخي بين البلاشفة والمنشفيك . انضم تروتسكي الى المنشفيك لفترة ثم انفصل عنهم واتخذ موقفاً مستقلاً عن كلا الجناحين . تعرّف في باريس عام ١٩٠٤ على « ناتاليا سيدوفا » التي أصبحت فيما بعد زوجته الثانية . عاد الى روسيا في شباط عام ١٩٠٥ بعد اندلاع الثورة الروسية الأولى فكان قائد الحركة الاشتراكية وخطيبها ورئيس « مجلس مندوبي العمّال » في بطرسبرغ ، أول سوفييت في التاريخ .

ألقي القبض على تروتسكي عام ١٩٠٧ بعد فشل الثورة وأصدرت المحكمة حكمها بنفيه الى سيبيريا وبتجريده من جميع حقوقه المدنية ، غير انه ما لبث أن هرب الى أوروبا الغربية . وخلال وجوده في السجن ، انتهى من صياغة نظريته عن « الثورة الدائمة » في مقالة بعنوان « نتائج وتوّقعات » . أمضى الفترة ما بين عام ١٩٠٧ و١٩١٤ مع ناتاليا سيدوفا وولديها ليون وسيرجي في فيينا حيث أصدر مجلة « برافدا » (الحقيقة) مكرساً وقته للنشاط الصحفي والسياسي . نزح تروتسكي الى سويسرا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ومنها الى فرنسا حيث عمل مراسلاً لصحيفة يومية كبيرة يصدرها الليبراليون في روسيا . كما أصدر صحيفة « ناشيه سلوفو » . وكان أحد موّجهي المعارضة الاشتراكية الثورية للحرب وأحد الداعين الى « مؤتمر زيمروالد » عام ١٩١٥ وهو كاتب البيان الشهير الذي صدر عن هذا المؤتمر .

فأدت دعوته لمعارضة الحرب ولتأسيس « الأممية الثالثة » الى تقارب في وجهات النظر بينه وبين لينين بعد سنوات طويلة من الخلاف بينهما . طرد من فرنسا ، فالتجأ الى الولايات المتحدة عام ١٩١٧ ثم عاد الى روسيا عند اندلاع ثورة شباط .

انضم تروتسكي إلى الحزب البلشفي عام ١٩١٧ وعرف الى جانب لينين ، بهجومه الصاعق البارع على نظام حكم شباط . فسجنته حكومة كرنسكي في

٥ آب عام ١٩١٧ . انتخبه عمال بتروغراد رئيساً لسوفييت مدينتهم . وخلال وجوده في هذا المنصب نظّم ثورة اكتوبر وقادها . عيّن أول مفوّض للشعب للشؤون الخارجية [١] وقاد وفد بلاده الى مفاوضات « بريست – ليتوفسك » غير انه رفض شروط المانيا وطالب بانتهاج سياسة « لا حرب ولا سلم » واستقال من مفوضية الشؤون الخارجية . عيّن مفوضاً لشؤون الحرب بين عام ١٩١٨ و ١٩٢٣ فأسس « الجيش الأحمر » وقاده بنجاح خلال أعوام الحرب الأهلية . وكان عضواً في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية طوال هذه المدة . خلال هذه الفترة كتب : « من ثورة شباط الى مفاوضات بريست – ليتوفسك »، « الشيوعية والإرهاب » وكتباً أخرى، كما حرّر جميع بيانات المؤتمرات الخمسة الأولى للأممية الشيوعية وأهمّ بلاغاتها ومقرراتها السياسية .

في عام ١٩٢٣ ، قاد تروتسكي اول حركة معارضة لستالين مستنكراً تهشيم الديموقراطية السوفييتية وتفاقم البرقراطية في الحزب والدولة مطالباً بالتصنيع الثقيل في الاتحاد السوفييتي . وبعد ان تحالف عليه ستالين وزينوفييف وكامنييف وبوخارين وغيرهم استقال من مفوضية الحرب عام ١٩٢٥ . خلال هذه الفترة كتب : « الادب والثورة » ، « العهد الجديد » ، « إلى اين تسير بريطانيا ؟ »، « اوروبا واميركا » ، « مشاكل الحياة اليومية » ، ومؤلفات أخرى . تحالف تروتسكي عام ١٩٢٦ مع زينوفييف وكامنييف ضد ستالين فأسسوا « المعارضة الموحّدة » ؛ وبعد صراع عنيف حول جميع القضايا الاساسية المتعلقة بالسياسة الشيوعية ، طرد تروتسكي من الحزب في أواخر عام ١٩٢٧ ونفي من موسكو الى « ألما – آتا » على الحدود الروسية – الصينية حيث استمرّ في توجيه المعارضة وفي نقد نظرية ستالين عن « الاشتراكية في بلد واحد » والطريق التي يعالج بها الشؤون الشيوعية وخاصة سياسته تجاه الثورة الصينية عام ١٩٢٥ – ١٩٢٧ .

---

١ – تبنى المكتب السياسي للحزب البلشفي لقب « مفوض » عوضاً عن وزير في اول اجتماع له بعد استلام البلاشفة للحكم في اوكتوبر ١٩١٧ بناء على اقتراح قدمه تروتسكي . أعاد ستالين لقب وزير عام ١٩٤٥ . (المترجم)

وفي « ألما – آتا » كتب تروتسكي : « نقد مشروع برنامج الكومنترن » ، « الثورة الدائمة » ، ومؤلفات أخرى .

أبعد تروتسكي الى تركيافسكن جزيرة « برينبيكو » حتى صيف عام ١٩٣٣ فشرع في تنظيم مؤيديه في بلدان عديدة واصدر « نشرة المعارضة » وكتب : « تاريخ الثورة الروسية » ، « حياتي » ، ومؤلفات اخرى . إبتداءً من عام ١٩٢٩ شن حملة خاصة لتعبئة الحركة الشيوعية ضد خطر نشوء النازية ، فلم تلق تحذيراته الاهتمام الكافي . سحبت منه الجنسية السوفييتية عام ١٩٣٢ ، وذهب اتباعه وأقاربه ضحية حملة إرهاب عنيفة بقيادة ستالين . توفيت احدى بناته – نينا – عام ١٩٢٨ ، وانتحرت الأخرى – زينا – عام ١٩٣٣ في برلين بعد مرض مزمن وبعد ان سحبت منها جنسيتها السوفييتية ومُنعت من رؤية عائلتها في روسيا . سمح لتروتسكي بدخول فرنسا ، بعد ان رفضت جميع دول أوروبا تقريباً منحه حق اللجوء اليها ، فدعا هناك الى تأسيس « الأممية الرابعة ». طرد تروتسكي من فرنسا عام ١٩٣٥ فالتجأ لفترة قصيرة الى النروج حيث كتب « الثورة المغدورة » . وبعد محاكمة زينوفييف وكامنييف والقيادات البلشفية القديمة واعدامهم (في آب ١٩٣٦)، رضخت الحكومة النروجية لضغط ستالين فاحتجزت تروتسكي لمنعه من فضح مهزلة « التصفيات الكبرى » . في ذلك الحين كانت حملة ستالين الشعواء على التروتسكية قد بلغت ذروتها . فاتهم تروتسكي في « محاكمات موسكو » بتحضير مؤامرات عديدة لاغتيال ستالين وفورشيلوف وكاغانوفيتش وغيرهم، وبالتحالف السرّي مع هتلر وامبراطور اليابان بغية تقويض النظام السوفييتي وتجزئة الاتحاد السوفييتي . في عام ١٩٣٧ ، سمح لتروتسكي بدخول المكسيك حيث مثل امام « محاكمة مضادة » ترأسها الفيلسوف الاميركي جون ديووي . فدحض تروتسكي ، بوصفه الشاهد الأساسي في هذه المحاكمة ، جميع الاتهامات الموجهة اليه، واصدرت المحكمة حكمها ببراءة تروتسكي من التهم الموجهة اليه وفي السنة التي تلت اعلن تأسيس « الأممية الرابعة » وكتب « البرنامج الانتقالي للأممية الرابعة » . وقد تنبأ بوقوع الحرب العالمية الثانية وحلّل نتائجها

المتوقعة في عدد ضخم من الدراسات والمقالات. ذهب ابنه الاصغر – سيرجي – ضحية حملة الارهاب الواسعة في الاتحاد السوفييتي التي تمّ فيهـا تقتيل عدد كبير من اتباع تروتسكي مع عوائلهم . ومـــات ابنه الأكبر – ليون – في شباط عام ١٩٣٨ في باريس، وتشير ظروف موته الى ان رجال « منظمة الشرطة السرية » السوفييتية قد اغتالوه. وبالاضافة الى ذلك، قضى العديد من اتباع تروتسكي نحبهم على يد عملاء هذه المنظمة في اسبانيا وفرنسا وسويسرا. وفي أيّار من عام ١٩٤٠، هاجمت عصابة ستالينية مسلحة تروتسكي نفسه . وبعد ذلك بمدة قصيرة ، أقدم رامون ميركادار « جاكسون » في عشرين آب ١٩٤٠ على اغتيـال تروتسكي في منزله في المكسيك . بينما كان على وشك الانتهاء من كتابة سيرة حياة ستالين .

* * *

عصر الثورة الدائمة

بقلم إسحق دويتشر[1]

لم يثر أي من السياسيين العظام في هذا القرن من الاهواء والخلافات بقدر ما اثارها تروتسكي ، فمثله لم يضطهد أحد أو يلعن أو يساء فهمه . ومع ذلك ، ربما لا يوجد أحد ، باستثناء لينين ، قد ترك أثراً على هذا العصر بقدر ما تركه تروتسكي ...

فأين تكمن عظمة تروتسكي ؟ والى أي مدى ما تزال افكاره ونضاله ملائمة لزمننا هذا ؟ ان ميزة تروتسكي الاساسية هي انه « مفكر الامام » ، بالمعنى الذي تقول فيه الاسطورة الاغريقية ان « بروميثيوس » هو مفكر الامام ، على عكس أخيه « ابيميثيوس » « مفكر الوراء » . إن عقله وإرادته وحيويته موجهة نحو المستقبل . انه يراهن بكل شيء على التغيّر والانقلاب اللذين لا بد سيأتي بهما **الزمن** ، هذا المخرّب الاعظم . وهو لم يشك مطلقاً بضرورة العمل من أجل التغيّر والانقلاب وبجدوى انتظارهما . فالنظام القائم والقوى الموجودة

---

١ – اسحق دويتشر هو من أبرز الاخصائيين في شؤون الاتحاد السوفييتي ، وهو مؤلف كتاب ممتاز عن حياة تروتسكي يقع في ثلاثة اجزاء : «النبي المسلح» و « النبي الاعزل » و «النبي المنبوذ ». ولعله ، في مقدمته هذه ، خير من يستطيع تعريف القارىء العربي على تروتسكي . لأنه قادر على ازالة التشويه الفظيع الذي تراكم خلال عشرات سنين على فكر هذا الرجل ونضاله مع احتفاظه بموضوعية الباحث عن الحقيقة .

(المترجم)

والوضع الراهن ما هي الا لحظات عابرة في مسيرة التاريخ . إن كيانه كله يخترقه تفاؤل ثوري لا يكاد ينضب أو يحطّم . وما حياته الا صراع عنيف مع « ابيميثيوس » ، صراع بين نفسه وبين « مفكر الوراء » .

« ما دمت حياً فأنا آمل » — هكذا صرخ عندما كان شاباً في العشرين من عمره . وعند عتبة القرن العشرين — أخذ هذا القسم : «ما دمت على قيد الحياة، فاني سوف اناضل من أجل الغد ، الغد المشرق حيث يصبح الانسان القوي الجميل سيداً على جدول التاريخ الجارف فيوجهه نحو آفاق لا تحدّ من الجمال والغبطة والسعادة ! » وعند رؤيته مشهد الدم والاضطهاد الذي ابتدأ فيه القرن بدايته المشؤومة ، يصيح : « انت ، انت الحاضر فقط » .

هنا استطاع تروتسكي ، بسذاجة واندفاع صبياني ، ان يحدّد معنى حياته . وخلال جميع اطوارها ظل مخلصاً لنفسه ؛ وعند كل انقلاب للحظ ، سواء في النصر أم في الهزيمة ، ظل اساس حياته واحداً. ففي ذروة قوته كان ابعد الناس عن قبول الوضع الراهن ، فقد ظل يعمل من أجل التغير والانقلاب والثورة الدائمة . وفي دركات الهزيمة ، عندما كان الاضطهاد يطارده حول الكرة الارضية ، وعندما كان أولاده يموتون واتباعه يذبحون ، ظل يردّد ، بصوت يخنقه الألم : « ما دمت حياً فأنا آمل . » ففي ختام « المحاكمة — المضادة » أمام « لجنة ديووي » في المكسيك عام ١٩٣٧ قال ما يلي :

« إن تجربة حياتي ، التي لم تخلُ من النجاح ولا من الفشل ، لم تكن عاجزة عن تحطيم ايماني بمستقبل البشرية المشرق الوضّاح فحسب ، بل ، على العكس ، فقد زودتني بطبع لا يُقهر . إن هذا الايمان بالعقل وبالحقيقة وبالتضامن البشري الذي حملته معي ، في سن الثامنة عشرة، الى الأحياء العمالية في بلدة نيكولاييف في الريف الروسي — إن هذا الايمان ما زلت محتفظاً به بشموله وكليّته . لقد أصبح اكثر نضجاً ولكنه لم يفقد شيئاً من حرارته » .

وكان سلاح المجرم مسلطاً على رأسه عندما ردّد هذا القسم ، فكانت امنيته الوحيدة ، في الوصية التي تركها ، هي ان يتسنى له ان يورث هذا الأمل الى

الذين سيأتون بعده :

« ... ولكن مهما تكن ظروف موتي ، فإني سوف أموت وأنا متمسك بإيمان لا يتزعزع بالغد الشيوعي . ان هذا الايمان بالانسان وبغده يزوّدني ، حتى في هذا الوقت ، بقدرة على المقاومة لا يستطيع اي دين أن يوفرها ... اني استطيع ان أرى شريطاً من العشب الأخضر على حافة الجدار ، والسماء الزرقاء الصافية فوقه ، والشمس في كل مكان. إن الحياة لجميلة فلتطهّرها الأجيال القادمة من كل شرّ واضطهاد وعنف ، ولتتمتع بها الى أقصى حد » .

ليس أسهل من أن يرفض المرء ، في نوبة من اليأس والاستهزاء ، هذا الموقف وان ينعته بانه «تفاؤل من العهد الفيكتوري» ، او أنه نزعة عقلانية فات اوانها، او انه ضرب من « ميتافيزيقيا التقدم » . ومهما يكن من أمر ، فان تروتسكي لا ينادي بطيبة او عقلانية فطرية في البشر ، ولا يؤمن بأي كمال آلي في المجتمع البشري . انه يرى خط التاريخ معوجاً ومهشماً شر تهشيم ، ولا يراه في صعود مستمر . انه يعرف تمام المعرفة ان البشر قد انقادوا الى طرق مسدودة مظلمة ، وان الحضارات الصاعدة او الآفلة قد دارت في حلقات مفرغة ، وإن أجيالاً عديدة لا نعرف وجهها ولا اسمها قد عاشت في عبودية ذليلة ، وان الانسان قد أنزل بأخيه الانسان كل أنواع الوحشية والعذاب .

ليس التاريخ ، بالنسبة له ، من صنع عقل مدبّر أو ارادة جبارة ، ولا هو قصة ذات نهج هادف . ومع ذلك ، ففي خضم فوضى التاريخ الوحشية ونزفها الدامي ، يستطيع ان يرى المأثرة الوحيدة التي سجلها الانسان : ارتفاعه البيولوجي فوق « الصعيد الحيواني القاتم » ، وتنظيمه الاجتماعي ، وقدرته المدهشة على الانتاج والخلق التي نمت بسرعة فائقة في الأجيال الأخيرة . هذه المقدرة تؤهل الانسان الحديث ان يوسّع مرامي نمو حضارته واغتنائها في المستقبل.انها تمكنه من ان يجعل حضارته اكثر مناعة ضد التعفن من أية حضارة انقضت . لقد كانت جميع الحضارات الآفلة تعتمد في وجودها على قوى انتاجية جد صغيرة وهزيلة تدهورت بسرعة فائقة في المجتمعات القائمة على الرق، فكانت

ضربة واحدة تصيبها بهـا الكوارث الطبيعية او المآسي الاجتماعية أو الاحتلال الأجنبي كفيلة بمحوها عن سطح الأرض . وهكذا ، فان فقدان الاستمرارية في تطور الانسان الثقافي يعود ، بالدرجة الاولى ، الى عدم تطور قواه الانتاجية . لقد خلقت التقنيةالحديثة أخيراً الشروط الضرورية لهذه الاستمرارية، فزوّدت الانسان بجميع الوسائل التي يستطيع بها ان يسجّل منجزاته ويثبّتها ويرسخها. ولقد مكنته مراراً من ان يعيد بناء وجوده الاجتماعي بعدما كان خراباً ، وان يضاعف ثروته المادية والروحية على نطاق متوسّع . وكان هذا المصدر الأساسي للتفاؤلية التاريخية عند تروتسكي .

وقد يقول المتشائم : ولكن تروتسكي لم يتكهن بمجيء العصر الذرّي ، انه لم يضع في حسابه السلاح الأخير الذي اخترعه العلماء والتقنيون. لقد اصبح بمقدورنا الآن لا ان نـــدمر الحضارة فقط ولكن ان ننسف الاسس البيولوجية لوجودنا أيضاً . إن نمو قوانا الانتاجية قـد زوّدنا بقدرة على الافناء الذاتي . وان تفاؤل تروتسكي الذي يعتبر ان مقدرة الانسان الخلاقة هي المصدر الأصلي للتاريخ ، هو في أحسن الأحوال من مخلفات عصر ما قبل الذرة التي تستحق الشفقة .

إن المتشائم على خطأ . لقد تكهن تروتسكي فعـــلاً بقدوم العصر الذري ، وتكهن بذلك قبل انفجار أول سلاح نووي بعقدين من الزمن ، في وقت لم تكن الفكرة فيه قد خطرت ببال أي من السيـــاسيين او رجال الدولة، وكان العلماء البارزون ما زالوا ينظرون الى الأمر بتشكك[1] . فكان « مفكر الامام » حتى في هذا المجال إذ قال بوضوح ان الثورة الاجتماعية والسياسية في عصرنا ستلازمها ثورة ضخمة في العلم والتقنية . ولكونه ماركسياً ، كان تروتسكي على علم تام بأن كل تقدم في مقدرة الإنسان الانتاجية والابداعية ، خلال التاريخ ، يضاعف مقدرته على الاضطهاد والتخريب ؛ وان كل عمل تقدمي في أي نظـام اجتماعي تمزّقـــه تناقضاته الداخلية هو نفسه متناقض داخلياً . ففي المجتمع الطبقي ،

---

١ – هذا التكهن موجود في مقـــالة لتروتسكي بعنوان « الراديو والعلم والتقنية والمجتمع » ص ٦ – ٩ . (المترجم)

تحتكر الطبقة الاجتماعية المسيطرة والفئات الحاكمة طاقتنا للسيطرة على قوى الطبيعة ، وتستعمل هذه الطاقة لكي تسيطر على القوى الاجتماعية المعادية لها ولكي تخضعها او تحطمها (وكذلك تفعل بالنسبة للعدو الخارجي) . لقد أدرك ماركس وانغلز هذا الأمر، وقد ميّز هذا الإدراك تفاؤلهما الاجتماعي عن الاعتقاد الليبرالي بالتقدم الآلي للمجتمع البرجوازي . فصاغا توقعاً تاريخياً مزدوجاً : « **إما ان تتقدم البشرية نحو الاشتراكية وإما ان تتقهقر الى البربرية** » . وكان تروتسكي يطوّر هذا التوقع المزدوج باستمرار . ومنذ ثلاثين او خمسين عاماً ، كان البرجوازي الليبرالي ينعت هذا التوقع بالمذهبية الجامدة ويعتبر ان لا مبرر له وانه متشائم بدون سبب ؛ واما الآن فانه يتجه نحو رفضه لأنه « تفاؤل أخرق » .

إذا سلمنا بأن تقهقر المجتمع الى البربرية يبدو الآن أكثر خطورة من ذي قبل ، وان حتى تروتسكي لم يستطع ان يتنبأ الى أي مدى سيصبح هذا البديل ملحاً في العصر الذري : « إما الاشتراكية وإما انهيار الحضارة » ، فلا نستطيع ان نأخذ على المدرسة الفكرية الماركسية ، وعلى تروتسكي خاصة ، سوى انها لم تكن واعية الى أي مدى كانت مصيبة . ومع ذلك ، فان تفاؤلية تروتسكي لم تكن تبشيراً بايمان مستكين ولا كانت توقعاته تنبؤات عالم بالغيب . إن ايمانه بمستقبل الانسان يرتكز على مقدرة الانسان وارادته لأن يعمل ويناضل من أجل مستقبله . وكان قوله « ما دمت حياً فأنا آمل » صيحة حرب ، كما كانت كل واحدة من توقعاته دعوة الى العمل . واذا فهمنا تفاؤله على هذا النحو يكون أكثر ملاءمة للعصر الذري مما هو لأي عصر آخر . فبقدر ما يقترب الانسان من الافناء الذاتي، بقدر ذلك يجب ان يصبح تصميمه على تفاديه أكثر توتراً واندفاعاً. إن تفاؤله ضروري لبقائه في حين ان اليأس المتعالي والتشاؤم المستسلم عقيمان لا يؤديان الا للانتحار .

إن تروتسكي ماركسيّ تقليدي في أكثر من ناحية. إنه يمثل المدرسة الفكرية الماركسية في نقاوتها ، كما كانت قبل ان تحطّ منها المذهبيات الاشتراكية –

الديمقراطية أو الستالينية . وتعكس كتاباته الوحي الاصيل والروعة الفكرية والاندفاع الاخلاقي للفكرة وللحركة . إن الاجيال من الاشتراكيين والشيوعيين الذين خاضوا النضال السري في روسيا القيصرية والستالينية ضد الاستغلال والاضطهاد والذين ملأوا السجون واماكن النفي والذين عانوا من الاشغال الشاقة ومن المشنقة وفرق الاعدام، والذين لم يأملوا بأي مكافأة سوى الارتواء الاخلاقي، هؤلاء كان يحرّكهم طبع تروتسكي ورؤياه للمجتمع التي يعبّر عنها بمرارة . لذلك كانت كتاباته وثيقة هامة من وثائق هذا العصر . وسيجد القراء فيها نفاذاً عميقاً الى مجاهل مجتمع يختلف كل الاختلاف عن مجتمعهم، مجتمع تعصف به رياح الثورة، وتلسعه سياط الفكر السياسي والاندفاع والعمل .

إن الماركسية ، كغيرها من المدارس الفكرية الرئيسية والحركات الكبيرة ، قد مرّت في تحوّلات وقفزات عديدة ، فبرزت جوانب مختلفة منها الى المقدمة في فترات متنوعة من تطورها . إن تروتسكي يلتزم بجانب واحد من جوانب الماركسية التقليدية ، جانبها الجوهري : الثورة الدائمة . كان ماركس قد طرح هذه الفكرة في منتصف القرن التاسع عشر خلال فترة ثورات عام ١٨٤٨ ، وقد اعاد تروتسكي صياغتها في مستهل هذا القرن خلال الثورة الروسية الأولى عام ١٩٠٥ — ١٩٠٦ . ومنذ ذلك الحين وهي موضع خلاف حاد وما تزال ، منذ اربعين عاماً ، محرّمة في العالم ومدانة على اعتبار انها رجس الارجاس .

فما هو معناها وما هو تأثيرها على أحداث زمننا هذا ؟ لقد بذل الستالينيون (بما فيهم الخروتشيفيون والماويون) كل جهدهم لتجريح الثورة الدائمة فنعتوها بأنها هذيان الراديكالي المتطرف المهووس . وقبل ان يتهم ستالين تروتسكي بأنه « قائد طليعة الثورة المضادة في العالم » (وبأنه حليف لهتلر ولامبراطور اليابان) كان قد وصفه بأنه « مشعل الحرائق » وبأنه « رجل متوحش » يعمل على تحضير انقلابات شيوعية في كل أنحاء العالم ، وبأنه المذهبي الجامد الذي يدعو الى الثورة « البروليتارية الخالصة » ، وبأنه عدو الفلاحين و « الرجال الصغار » و « الطبقات الوسطى » الأخرى . إن ما يدحض هذه الاتهامات ، في التحليل

الأخير ، هو انه لا يكاد يوجه تهمة واحدة في اللائحة الطويلة من التهم التي يوجهها ستالين الى تروتسكي إلا وارتكبها هو ، لذا يمكننا ان نرى الآن ان الصورة المشوهة التي رسمها لتروتسكي لم تكن في الواقع إلا صورة لنفسه .

إن نظرية تروتسكي هي ، في الحقيقة ، مفهوم عميق وشامل يعتبر أن جميع التقلّبات التي عانى منها العالم أجزاء مترابطة تعتمد الواحدة منها على الأخرى في عملية ثورية واحدة . وإذا نظرنا الى الموضوع بشكل عام أمكننا القول : يرى تروتسكي ان الانقلاب الاجتماعي في هذا القرن شامل للعالم بطبيعته وإبعاده رغم انه يسري على مختلف مستويات الحضارة وفي بنىً اجتماعية جد متباينة ورغم أن أطواره المختلفة متباعدة فيما بينها في الزمان والمكان .

وجدير بالذكر انه عندما عرض تروتسكي رأيه هذا للمرة الأولى ، منذ ما يقارب الستين عاماً ، كان النظام القديم يبدو منيعاً ، وكانت أوروبا تسيطر على معظم القارات تقريباً التي كانت امبراطورياتها وسلالاتها العظيمة تبدو راسخة لا تقهر . وفي روسيا **فقط ، فتحت ثغرة في القيصرية ثم سدَّت سريعاً ، ومن خلالها استطاع تروتسكي ان يلمح أفق القرن المقبل . لقد كان فريداً في هذا المجال بين القادة والمفكرين الماركسيين المعاصرين ، لأنه لم يجرؤ أي منهم ، ولا حتى لينين ، على القول ان روسيا ستكون اول دولة في العالم تبني دكتاتورية البروليتاريا وتسير في اتجاه الثورة الاشتراكية** . فقد كان الماركسيون عامة يعتقدون ، في ذلك الحين ، ان أوروبا الغربية « ناضجة » للاشتراكية ، رغم أن هذا الاعتقاد كان أفلاطونياً عند معظم الاشتراكيين الأوروبيين. أما بالنسبة لروسيا ، فلم يقل أحد إنها على عتبة الثورة الاشتراكية. فقد كان الاعتقاد الشائع انها تتجه نحو ثورة برجوازية تؤهلها ان تنعتق من نير الاقطاعية الثقيل وان تتحول الى دولة رأسمالية حديثة ، وبمعنىً آخر انها على وشك تحقيق النسخة الروسية عن الثورة الفرنسية العظمى .

وقد خلص قسم من الاشتراكيين (المنشفيك) الى انه يجب ان تتولى البرجوازية قيادة الثورة القادمة . في حين كان لينين وأتباعه يدركون ان

البرجوازية الليبرالية لا تستطيع ولا تريد الاضطلاع بهـذه المهمة ، وان الطبقة العاملة الروسية الناشئة هي القوة الوحيدة التي تستطيـع ، باعتمادها على الفلاحين المتمرّدين ، ان تخوض النضال الثوري حتى نهـايته . غير ان لينين ظل مقتنعاً ، وقد أكد هـــذا الاقتناع مراراً ، بان روسيا لا تستطيع ان تتخطى الثورة البرجوازية اذا كانت تعمل بمفردها،وانها لا تستطيع الشروع في بناء الاشتراكية إلا بعد تقويض الرأسمالية في اوروبا الغربية . وقـــد ظل لينين ، خلال عقد ونصف من الزمن (١٩٠٣ — ١٩١٧) يحاول حلّ المشكلة التالية : كيف يمكن لثورة موجهة ضد المعارضة البرجوازية تقودها طبقة عاملة اشتراكيـة ان تنتهي الى تشييد نظام رأسمالي؟ ولقد حلّ تروتسكي هذا الإشكال المذهبي **إذ توصل الى الاستنتاج انه لا يمكن حصر الدفـــع الثوري ضمن أي طور معين من اطوار الثورة ، فما ان تندلع هـــذه الثورة حتى تتخطى جميع الحواجز فلا تجرف القيصرية فحسب بل الرأسماليـــة الروسية الضعيفة ايضاً ، بحيث تنتهي الى ثورة اشتراكية بعد ان تكون قد بدأت كثورة برجوازية .**

هنا ظهرت مشكلة مصيرية . كان الماركسيون يفهمون ان قيام الاشتراكية يفترض وجود مستوى عصري عـالٍ لتطور الاقتصاد والحضارة ، وبحبوحة في الثروة المادية والروحية هي وحدها التي تمكن المجتمع من ايفاء حاجات جميـــع أعضائه ومن الغاء الانقسامات الطبقية. ولم يكن هذا ، طبعاً ، في متناول روسيا المتخلفة والمتأخرة . لذلك ، فقد اعتبر تروتسكي أن روسيا تستطيع أن **تبدأ** الثورة الاشتراكية فقط ، وانها ستجد صعوبة بالغة في **الاستمرار** بها كما يستحيل عليها **اتمامها** . ان الثورة ستصل الى طريق مسدود إلا اذا فجّرت حدود روسيا الوطنية وحركت قوى الثورة في الغرب . وقد سلم تروتسكي بانه مثلما لا يمكن حصر الثورة الروسية ضمن الطور البرجوازي ، كذلك لا يمكن ايقافها عنـــد حدودها الوطنية ؛ وانها ستكون مقدمة لانتفاضة شاملة للعالم أو الفصل الأول من هذه الانتفاضة . هذه هي الثورة الدائمة على الصعيد الدولي والوطني .

ومن غرائب الأمور ، ان الجانب الدولي من النظرية لم يكن موضع خلاف

عندما صاغه تروتسكي لأول مرّة كما غدا فيما بعد . فقد تعرض له الماركسيون بالنقاش اقلّ ممـا تعرضوا لإصرار تروتسكي على موضوعته ان روسيا هي التي ستأخذ المبادرة في الانتفاضة الاشتراكية .

كانت الماركسية التقليدية تدرك تمـام الإدراك ابعاد الرأسماليـة الدولية وطابعها الاممي ، وكانت تؤكد بشكل خاص على التقسيم الدولي للعمل وتعتبره احدى سماتها التقدمية . ولقد اعتبر ماركس وانغلز ، في « البيان الشيوعي » ، إن الاشتراكية تبتدىء حيث تنتهي الرأسمالية . وكانت هذه الفكرة جزءاً من التراث الفكري الماركسي . غير أنها أُهملت ونُسيت في بداية القرن وكان لهـا تأثير ضعيف على السياسة العملية للحركة العمالية .

لقد انعش تروتسكي هذه الفكرة واعطاها ابعاداً جديـدة . واعتبر ان الاشتراكية والدولة القومية على طرفي نقيض . وهكذا دحض بوضوح نظريـة ستالين عن « الاشتراكية في بلد واحد » قبل ان يبدأ ستالين بالتبشير بهـا بعشرين عاماً .

غير إن هذا لا يغير ، كما يدّعي الستالينيون ، انـه عندما انعزلت الثورة الروسية في العشرينات فقد تروتسكي الأمل فيها وبأية امكانية لبقائها وتطورها. لقد كان تروتسكي يؤكد دوماً ان الثورة لا بـد من ان تبدأ على الصعيد الوطني وترك المجال مفتوحاً امام احتمال انعزالها الآني في بلد واحد . ولذا ، عندمـا انعزل النظام البلشفي فعلياً، دافع عن بقائه بحرارة ونجاح بوصفه مفوضاً للشعب لشؤون الدفاع في البدء ، ثم بوصفه الداعية الرئيسي للتصنيع السريع في الاتحاد السوفييتي . ولكن يصحّ القول انه ظل يعتبر ان انحصار الثورة في بلد واحد ما هو الا وقفة وجيزة . فقـد كان يرفض ان ينظر الى الثورة الروسية باعتبارها عملية تطور تكفي نفسها بنفسها وتنتهي عنـد الحدود الوطنية . كان يصّر على اعتبارها الفصل الأول من ثورة تشمل العالم، حتى بعد ان تبيّن ان « الاستراحة » بين الفصل الأول والفصل الثاني قد طالت كثيراً . وطبعاً لم يعلن ستالين عـن تخليه الصريح عن « حلقة الوصل » بين الاتحاد السوفييتي والشيوعية العـالمية ،

فقد كان التعلق البلشفي بالأممية الماركسية امـــتن بكثير من ان يمكن رفضه علناً . الا ان الفكرة التي كان ستالين يؤيدها لفظاً فقط كانت اساساً لكل فكر تروتسكي وعمله .

خلال العشرين او الخمس والعشرين سنة التي تقع بين اوائل العشرينات وأواخر الأربعينات، كانت جميع الدلائل في الوضع العالمي تشير الى عكس ما تقوله نظرية تروتسكي . فلم تحرز الثورة أيّ تقـــدم خارج الاتحاد السوفييتي ، وبدا وكأنها ستظل محصورة داخل الحــدود السوفييتية الى الأبد . ولا يمكن الجزم الى اي مدى يعود ذلك لظروف « موضوعية » ام الى اي مــدى ساهمت الستالينية في اطالة « الوقفة » في التطور الثوري . على كل حال ، فالستالينية لم تتكيّف مع الاطار الوطني للثورة فحسب ، بل اعلنت عن انكفائها على ذاتها وعن اكتفائها الذاتي على الصعيد الوطني . ولقد هلـّل العديد من المعادين للشيوعية لستالـــين على فعلته هذه ، هؤلاء الذين كانوا يفضلون رجـــل الدولة الواقعي ستالين على تروتسكي « الحـــالم » و « مشعل الحرائق » . وكذلك فعلت جميع الاحزاب الشيوعية . فكان لسان حالها : « اليس ستالين على حق عندما يجعل الاشتراكية في بلد واحد محطاً لآماله ؟ ان روح الاستسلام الخبيثة المعادية للثورة هي وحدها التي تدفع تروتسكي الى رفض فكرة تحقيق الاشتراكية في بلد واحد » .

لقد تبين ان انتصار ستالين ، رغم انه استغرق مدة طويلة ، زال بمجرد ان زال الوضع الذي انجبه . وبامكاننا الآن أن نرى ان « الاشتراكية في بلد واحد » هي ردة فعل ايديولوجية لظروف آنية وشكل من أشكال « الوعي الزائف » ، وليست برنامج عمل واقعي. لقد ابتدأ الفصل الثاني من الثورة الدائمة قبل اقتراب الاتحاد السوفييتي من الاشتراكية بمدة طويلة . (انه لمن الافتراء على الحقيقة ان ندعي ان الاتحاد السوفييتي كان أيام ستالين ، او هو الآن ، مجتمعاً اشتراكيـاً ؛ فرغم تقدمه الحديث يبقى في منتصف الطريق بين الرأسمالية والاشتراكية) . إن أعوان ستالـــين السابقين يتنكرون الآن لمقدرتـــه الشهيرة كرجل دولة ويسخرون منها ، ويصفون حكمه بانـــه حقبة طويلة من عنف لا مبرّر له ضد

الشعب الروسي . لا يمكن قبول هذه الهجمات إلا بصعوبة ، لأنها تجنح نحو تمويه الوقائع الأكثر عمقاً التي بنيت عليها الحقبة الستالينية . لم يكن باستطاعة الثورة الروسية المعزولة ان تضطلع بنجاح بالمهام التي اخذت على نفسها ان تحققها لأنه كان يستحيل تنفيذ هذه المهام في نطاق دولة واحدة . فكانت معظم أعمال ستالين محاولات في « تربيع الدائرة » بواسطة الإرهاب الجماعي ، وكانت نظريته عن الاشتراكية في بلد واحد ، عن حق ، « مدينة فاضلة برغمائية » كما وصفها تروتسكي . فقد تخلى عنها الاتحاد السوفييتي جملة وتفصيلاً في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحت جيوشه ، وهي تطارد جيوش هتلر ، عشرات البلدان الأجنبية حاملة الثورة على رؤوس حرابها وفي قلاع دباباتها .

وتلا ذلك انتصار الثورة الصينية عام ١٩٤٨ – ١٩٤٩ ، هذه الثورة التي لم يحسب لها ستالين حساباً وبذل اقصى جهده لوضع العراقيل في طريقها. فانتهت « فترة الاستراحة » الى غير عودة. ورفع الستار عن فصل آخر من فصول الثورة العالمية . ومنذ ذلك الحين والغليان الثوري يجتاح آسيا وافريقيا وحتى اميركا اللاتينية . وكانت كل واحدة من هذه الانتفاضات ، في ظاهرها ، ذات طابع وبُعد وطنيين ، ومع ذلك فقد اتخذت كل واحدة منها مكانها في النهج العالمي . فما من أحد يستطيع إيقاف الدفع الثوري . لقد عادت الثورة الدائمة الى سابق عهدها، فمها طالت استراحاتها المقبلة ومهما بلغت هزائمها اللاحقة ستبقى المضمون الاجتماعي – السياسي لهذا القرن .

ان التاريخ ، في معظم الحالات ، لا يمنح تأكيده المطلق لأية فكرة استباقية عظيمة . وهو لم يمنح مثل هذا التأكيد حتى لتروتسكي ، لانه لا يوجد مفكر سياسي معصوم عن الخطأ . ان نبوءة تروتسكي العظيمة آخذة بالتحقق ، ولكن ليس على الشكل الذي تنبأ هو بها . وقد لا يبدو الفرق شاسعاً بالنسبة للأجيال القادمة بقدر ما يبدو لنا . ففي عصر لاحق ، عندما ينظر المؤرخ إلى الوراء ، سيرى استمرارية العملية كلها، فلن يولي الوقفات والفواصل أهمية بالغة . اما بالنسبة للأجيال المعاصرة ، لجيل تروتسكي وجيلنا ، فالوقفات والفواصل

مليئة بالتوتر والاصطدام بقدر ما هي الفصول الرئيسية ؛ انها تشغل حيزاً هاماً من حياتنا وتمتص طاقاتنا ومجهودنا . لقد أمضى تروتسكي النصف الأول من حياته والثورة في ذروة مدّها ، وامضى النصف الثاني منها والثورة في جَزْر . من هنا كانت الخيبات والهزائم التي تلت انتصاراته ، والعقم النسبي للقسم الأكبر من نضاله ضد ستالين . وفي الاتحاد السوفييتي ابيدت المجموعة الواسعة والهامة من اتباعه بحيث غدا التروتسكيون السوفييت ، شأنهم شأن « التشرينيين » منذ ما يزيد عن مئة عام ، « جيلاً من الثوريين بدون أبناء » ، أي بدون خلفاء مباشرين . وفي خارج الاتحاد السوفييتي ، لم تكن التروتسكية حركة سياسية فعالة ، فعجزت « الأممية الرابعة » عن ان تبدأ بداية حقيقية . وعجزت حتى عبقرية تروتسكي السياسية عن تحويل الجزر الى مدّ .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد سلكت الثورة الدائمة خطاً يختلف كل الاختلاف عن الخط الذي توقّع لها تروتسكي ان تسلكه . فقد توقّع ، إنسجاماً مع تقاليد الماركسية التقليدية ، أن تكون الفصول القادمة منها في دول الغرب « المتقدمة والمتحضرة » . ولكن عوضاً عن ذلك ، غدت بلدان الشرق المتخلفة والمتأخرة المسرح الرئيسي للثورة . هذا لا يعني ان تروتسكي قد تغافل عن الطاقات الكامنة في الشرق ، غير انه كان يعتبرها طاقات ثانوية اذا ما قورنت بطاقات الغرب التي ظل يعتقد انها هي الطاقات التي تلعب الدور الحاسم .

إن قصر النظر هذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقييم الماركسي لدور الطبقة العاملة الصناعية في المجتمع الحديث ، هذا التقييم الذي يتلخص بهذه العبارة الشهيرة : « إما ان تكون الثورة من صنع العمال وإما ان لا تكون هنالك ثورة البتة » . ومع ذلك ، فلم تكن أية واحدة من الانتفاضات الاجتماعية خلال العقدين الأخيرين « من صنع العمال » وحسب . لقد نفذتها جميعها منظمات عسكرية متماسكة او أحزاب برقراطية صغيرة ، وكان الفلاحون أكثر فاعلية فيها من البروليتاريا الصناعية . وقد تجلى هذا بشكل خاص في اعظم هذه الانتفاضات : الثورة الصينية . فلقد نقل أنصار ماوتسي تونغ الثورة من الريف

الى المدينة ، في حين كان تروتسكي يعتبر ان انتقال الثورة من المدينــة الى الريف هو قانون مطلق ، وان هذه الثورة لن تنجح إلا بمبادرة المدن وتحت قيادتها .

ومع ذلك ، لا يجب ان نتعجل باستنتاج ، كما يفعل بعض الكتاب وبخـاصة س . رايت مِلزْ ، فنقول ان هذا كله انمـا يخطّىء المفهوم الماركسي الذي يعتبر ان الطبقة العاملة الصناعية هي « البـــاني التاريخي » الرئيسي للاشتراكية . ولا يجب ان ننسى ان الطبقات العاملة في اوروبا كانت ، بالتأكيد ، البناة الرئيسية للاشتراكية خلال ما يزيد عن القرن ؛ وان الجيل تلو الجيل منها قد ناضل بذكاء واندفاع وبطولة ادهشت العالم. فلا شيء يستطيـع ان يمحي من سجلات التاريخ اعمال « الشارتريين » الانـكليز ومقاتلي « عامية باريس » ، او نضال العـــمال الالمـــان ضد بسمارك وسلالة هوهنزولرن ، او النضال السرّي الملحمي الذي خاضه العمال الاشتراكيون والشيوعيون في بولونيا خلال نصف قرن، أو الانتفاضات البروليتارية الروسية عام ١٩٠٥ و ١٩١٧ .تلك مآثر لا تجاريها مآثر في سجلات البشرية، فالعبيد والأرقاء والفلاحون «الأحرار» ومعدمو المدن، الذين يشكلون الطبقات المستغَلة والمضطهَدة في المجتمعات البدائية ، لم يتمكنوا من مجـــاراة الطبقة العــاملة الحديثة ، عن بعيد او قريب ، في مجـــالات التفكير السياسي والسيطرة على النفس والتنظم والعمل . لقد كان « أَجرَاء المصانع » في سان بطرسبرغ هم الذين « ابتــكروا » المؤسسة التي دعيت « مجلس مندوبي العــمال » (السوفييت) ، وليس المثقفـين البلاشفة او المنشفيك . حتى مجالس السوفييت الحالية المنحطة والنقابات الغربية التي طغت عليها البرقراطية ستبقى صروحـــاً تشهد على إبداع الطبقة العــاملة السياسي ، بالرغم من التشويه الخبيث التي أُلحِق بها . ان جميع الهزائم التي مُني بها العمال ، وفشلهم في قطف ثمــار انتصاراتهم ، وحتى عجزهم عن لعب أي دور حاسم في انتفاضات العقدين الاخيرين ؛ كل هذا لا يكفي لتجريدهم من لقب « بناة الاشتراكية الرئيسيون » . هذا اللقب الذي نالوه خلال قرن من الزمن. علينا ان نحتفظ بتقدير للنسبة والبعد لكي نتفادى التعميم عن عملية تاريخية بعيدة المدى انطلاقاً من طور واحد فقط من اطوارها.

ولا بد من الإقرار، بعد ذلك، بأن تعقيدات التطور التاريخي كانت امتحاناً قاسياً للمفهوم الماركسي حول الاشتراكية البروليتارية ولقناعات الحركة العمالية وآمالها . إن الثورة الدائمة تعصف بالعالم ، ولكن .هـــل هي ثورة الاشتراكية البروليتارية ؟ لكي تحافظ فكرة تروتسكي على صوابيتها لا بد من ان تتحقق فرضيتها الأولى : على عمال الامم الصناعية المتقدمة ، إن في الاتحاد السوفييتي أو في الغرب ، ان يتحرروا من الخنوع والتشوّش والاستسلام الذي دفعتهم اليـــه الستالينية والاصلاحية الغربية ، وعليهم ان يفرضوا أنفسهم مجـــدداً كبناة الاشتراكية الرئيسيين. إن مسألة «من سوف يسيطر على ثورة هذا القرن» ما زالت موضع نقاش : هل ستسيطر البرقراطيات الطائشة المتحكمة ام الطبقة العامـلة التي تمثل مصلحة المجتمع العامة ؟ وعلى هذه المسألة يتوقف مصير اشياء هي اهمّ بكثير من صواب اية عقيدة ، فجميع القيم المادية والروحية التي خلقها الانسان وراكمها موضوعة على المحكّ .

إن الفكرة القائلة بأن الطبقة العاملة هي التي تلعب الدور الرئيسي في الثورة الاجتماعية وانه يجب ان تظل تلعب هذا الدور ، هــذه الفكرة تحدِّد تفكير تروتسكي السياسي ومفهومــه للنظام السوفييتي وللحزب البلشفي ونضاله ضد المذهبيات الاشتراكية – الديمقراطية والستالينية عـــلى السواء . إن مفهوم « الديمقراطية العمالية » هو المفهوم الرئيسي الذي تـــدور حوله جميع افكاره وحججه .

يعتبر تروتسكي ، كغيره من الماركسيين الثوريين ، ان دكتاتورية البروليتاريا هي الشرط السياسي الضروري لانتقال العالم من الرأسمالية الى الاشتراكية . ولم يكن أي من رفاقه أو خصومه ، ولا حتى لينين ، أكثر صلابـة وتصميماً منـه في التمسك بهذا المبدأ في النظرية وفي التطبيق . إن تصوير تروتسكي عـــلى انه انساني مائع ، أو مثقف حالم أو داعية الى اللاعنف ، أو أنه « غاندي » الحركة البلشفية هو افتراء على التاريخ . إن هذا الشهيد العظيم لم يكن يحيـا على حليب الماعز ولا كان يتاجر بحليب اللطف الانساني . كان يعلم ان عـــدداً كبيراً من

الانعطافات الهامة في التاريخ قد تلطخت بالدم البشري . فلم يتقاعس عن استعمال القسوة عندما كان مقتنعاً بأنهـا ضرورية لتقدّم المجتمع . وإن ادانته باسم الحضارة الغربية وقيمها ضرب من التدجيل والمرواغة ، هذه الحضارة التي ترزح على ضميرها المذابح الجماعية خلال الحربين العالميتين والتي عرّضت البشرية لاهوال الحرب النووية . إن تروتسكي يختلف عن اولئك الجزارين الذين يمجدهم التاريخ في انه لم يكن يتلذذ ، ولا في أي حال من الاحوال ، بقساوته ولا بطعم الدم . لقد حضّر لأعظم انتفاضة مسلّحة – انتفاضة اكتوبر ١٩١٧ – بحيث شهداشدّ المراقبين عداء لها بأن عدد ضحاياها لم يتجاوز العشرة ؛ وعندما كان قائداً في الحرب الاهلية كان يعالج موضوع سفك الدماء بالطريقة التي يعالجه بها الجرّاح كمرحلة محدودة لا بد منها في عملية جراحية ضرورية ومنقذة .

وكان يؤمن بدكتاتورية البروليتاريا لأنه كان يسلّم بأن أصحاب الأراضي والرأسماليين ومالكي العبيد لا يتنازلون عادة عن ممتلكاتهم وسلطتهم بدون قتال وحشي . لذا كانت الدكتاتورية هي وحدها التي تمّهد الطريق امام الثورة في روسيا . ولكن كيف تكون طبيعة هذه الدكتاتورية ؟

يتوجب علينا ، في هذا الصدد ، ان نعيد لافكار تروتسكي معناها الاصلي (وبالنسبة للينين والبلاشفة الاول طبعاً) ، لأن تجربة الانظمة الكلّية (Totalitarian) قد راكمت على هذه الافكار شوائب ثقيلة ومنفّرة لا تمت اليها بأية صلة . ان دكتاتورية البروليتاريا ، بالنسبة لتروتسكي ، هي ديمقراطية عمّالية ويجب عليها أن تكون كذلك . وليس هذا بالقول الخبيث . يجب ان نتذكر ان تروتسكي ، كغيره من الماركسيين ، معتاد على وصف جميع الديمقراطيات البرجوازية (الملكية الدستورية في بريطانيا ، وجمهورية فايمار في المانيا ، والجمهورية الفرنسية الثالثة ، والنظام السياسي في الولايات المتحدة) بانها « دكتاتوريات برجوازية » . وكان يعلم ، طبعاً ، ان هذه الانظمة ليست دكتاتورية أو شبه دكتاتورية على الصعيد السياسي والدستوري البحت ؛ وكذلك كان على علم تام بالحريات التي يتمتع بها الشعب في ظل الديمقراطيات البرلمانية .

غير ان تروتسكي كان يصرّ على وصف النظام البرلماني الغربي بأنه دكتاتورية برجوازية بالمعنى العام لهذه العبارة ، اي انه نظام يقوم على الملكية الرأسمالية ويضمن للطبقات الحاكمة تفوقها الاقتصادي والاجتماعي وبالتالي طغيانها الثقافي والسياسي . ان عبارة « الدكتاتورية البرجوازية » تصف بدقة هذا التفوّق والطغيان ، وهي لا تعني بالضرورة أي نظام دستوري معيّن او أية طريقة في الحكم . لذلك ، فعندما يتكلم تروتسكي (او لينين او ماركس) عن دكتاتورية للبروليتاريا ، فإنه يستعمل هذا التعبير بمعناه العام للإشارة الى نظام يضمن للطبقة العاملة التفوّق الاجتماعي ، وهو ليس حكماً مسبقاً على طريقة الحكم او شكله الدستوري . وان دكتاتورية البروليتاريا ، شأنها شأن الدكتاتورية « البرجوازية » ، إما ان تكون دكتاتورية وإما ان تكون ديمقراطية في طابعها السياسي ، وقد تتخذ أشكالاً دستورية متنوعة . ففي الفترة التي تلي الثورة مباشرة ، وخلال الحرب الأهلية ، لا بد لها من ان تتخذ طابعاً دكتاتورياً بحتاً ، أما في ظروف أكثر طبيعية فإنها تتجه نحو اتخاذ شكل ديمقراطي . وحتى في طورها الدكتاتوري البحت ، كما كان النظام السوفييتي في أول عهده ، تضمن الديموقراطية العمّالية حرية أصيلة للتعبير وللمناقشة للعمال على الأقل ، وتمكّنهم من ممارسة رقابة فعلية على الحكومة . ولا علاقة لهذا المفهوم للدكتاتورية بأي حكم يستمدّ شرعية وجوده من نفسه وتسيطر عليه فئة « اشتراكية » ذات امتيازات ، او بحكم فردي او بأي نظام حكم « وحداني » او كلّي ؛ انه عكس ذلك تماماً . ولا عجب ان تدين الستالينية هذا المفهوم بأنه هرطقة منشقية ، ولا عجب أيضاً ان يمحى من التفكير الشيوعي . فقد انتزعت المدرسة الستالينية من عقول تلامذتها الايمان بأن الطبقة العاملة هي او انها يجب ان تكون ، بانية الاشتراكية .

وينبثق مفهوم تروتسكي للحزب ، وغيره من المفاهيم ، من هذا الاقتناع . يكفي أن نشير في هذا الصدد الى ان تروتسكي ظل على خلاف مع لينين خلال ما يقارب الخمسة عشر عاماً ، وانه عارض ستالين خلال ما يقارب العشرين

عاماً ، فهو لم يواكب البلاشفة إلا خلال ست سنوات فقط ، تلك السنوات التي « هزّت العالم » بين عام ١٩١٧ و ١٩٢٣ . إن أسباب مساجلاته مع لينين ليست نفسها الأسباب التي دعته الى معارضة ستالين . ورغم ذلك ، فلكلاهما **أساس** واحد ، هو رفض تروتسكي لأي شكل من أشكال الوصاية الحزبية على العمّال . وكان يشك قبل عام ١٩١٧ ان لينين يطمح الى ممارسة مثل هذه الوصاية ، وقد وجد هذا الطموح مجسّداً ومكتملاً في شخص ستالين . ولقد اعترف تروتسكي من تلقاء نفسه بأنه ارتكب خطأ فادحاً في تقييمه للينين الذي درّب الحزب البلشفي لكي **يقود** العمال وليس لكي **يروّضهم** او يخضعهم . وعندما ميّز تروتسكي الناضج بين القيادة الشرعية من جهة وبين الوصاية والاغتصاب من جهة أخرى ، صحّح بذلك النظرة الجزئية التي كان يحملها ؛ كان قد اعتمد أكثر من اللازم على عفوية الوعي الطبقي عند العمال ، وعلى ذكائهم وإرادتهم الثورية الفكرية ، فاعتبر ان هذه العوامل تكفي بحد ذاتها لتأمين انتصار الاشتراكية . وكان يجنح إلى النظر الى الطبقة العاملة وكأنها فئة اجتماعية متجانسة يحرّكها حسّ اشتراكي واحد ويملك جميع أفرادها مقدرة فائقة على العمل السياسي . فلم تكن طبقة كهذه بحاجة الى دليل خاص ، لذا كان على الحزب أن ينصهر فيها وان يعبّر عن تطلعاتها .

إن لينين، الذي كان الاعتقاد الأساسي عنده هو الايمان برسالة العمال التاريخية بوصفهم بناة الاشتراكية الرئيسيين ، فقد نظر الى الطبقة العاملة من زاوية نقدية وأكثر واقعية . فكان يراها فئة معقدة غير متجانسة فيما بينها ، تتكون من عدة مجموعات لكل منها اصله وماضيه ، ترتبط كل منها بالفلاحين وبالبرجوازية الصغيرة وبسائر مجموعات الطبقة العاملة نفسها بشتى الارتباطات ، ولكل منها مستواه الثقافي ووعيه الاجتماعي ، ولكل منها درجة من المقدرة (أو من العجز) على خوض النضال الثوري . ولا يجمع بين اجزاء هذه الكتلة المتمايزة كل التمايز فيما بينها إلاّ وضعها البروليتاريا في المجتمع وعداؤها للاستغلال الرأسمالي، بينما تفرّق فيما بينها قوى فاعلة في داخلها ووجود درجات متباينة في تقبلها للاشتراكية .

كانت هذه الطبقة **الحقيقية** مكوّنة من عناصر تقدميــة وأخرى رجعية ، من عناصر صافية الرؤيا واخرى بليدة ، من عناصر شجاعــة واخرى جبانة ، لذا كانت بحاجة الى أن يقودها الحزب لكي ترقى الى مستوى « رسالتها » الثورية. وبالتالي،فلا يكفي ان ينصهر الحزب بالعمال مكتفياً بامتصاص تطلعاتهم والتعبير عنها ؛ عليه أن يقولب هذه التطلعات. وان يربط نفسه في البدء بالعمال المتقدمين لكي يتسنى له ان يثقف بواسطتهم العمال المتــأخرين. يتوجب على الحزب، إذن، أن يكون « طليعة بروليتارية» ونخبة ماركسية واضحة الرؤيا منضبطة لا تقهر وقادرة على تكوين « القيادة العامة » للثورة .

لقد تبنّى تروتسكي الناضج هذه الفكرة اللينينية ولم يتخلّ عنها قط. ولكن من العبث محاولة إنكار الأخطار الموجودة في داخل حزب النخبة، هذه الاخطار التي كان تروتسكي الشاب شديد الحساسية تجــاهها بحيث اذا ما عدنا الآن الى مساجلاته السابقة ضد نهج لينين الحزبي وجدنا انها تنبؤات صادقة لمــا حصل في النظام الستاليني . فمن السهل جداً ان تتحول النخبة الى فئـــة ذات امتيازات (Oligarchy) ، وتولد هذه الفئة الدكتاتور المعصوم عن الخطأ الذي لا يمكن ازاحته . ومهما يكن من أمر ، فإن تروتسكي قــد قبل بنهج لينين بسبب تحليل هذا الأخير للعلاقة بين الحزب والطبقة تحليلاً واقعياً جــــداً ، وبشكل خاص بسبب الطريقــــة التي كان حزب لينين يمارس بها قيادتــه (على عكس الطريقة الستالينية أو الخروتشيفية) . فبالرغم من الدرجة العالية من الانضباط في الحزب فقد ظل تجمعاً حراً للثوريين يسلم بالحقوق الديمقراطيــة داخل التنظيم ويستفيد منها الى أقصى حد ، إذ كان الحزبيون ينتقدون قياداتهم بدون خوف ودون ان يكون هذا الحق منة تتصدق بها القيادات عليهم . فكانوا يناقشون، في معظم الأحيان ، كل قضية سياسية أساسية علناً . وكان النقد المرّ ورقابة القاعـــدة العاملين اللذين يوازيان الصلاحيات الواسعة التي تتمتع بها اللجنة المركزية اللينينية التي تحتكر سلطة شديدة المركزيــة وتفرض على الحزبيين العمل بشكل موحّد وفق أوامرها .

لا بد من التمييز بين « الديمقراطية المركزية » عند لينين وبين المركزية – البرقراطية الشديدة التي تطبع الحقبة الستالينية . فلم يكن حزب النخبة، بالنسبة للينين ، هيئة تكفي نفسها بنفسها وتحل محل الطبقة العاملة في بناء الاشتراكية . كان عليه أن يبقى جزءاً من الطبقة العاملة ، مثلما تبقى الطليعة في الجيش جزءاً من القوة المقاتلة حتى وهي تعمل كفصيلة خاصة تنفذ مهمة معيّنة . كانت القاعدة تتمتع في الحزب اللينيني بكامل حريتها في تغيير اللجنة المركزية ، مثلما كان يحق للطبقة العاملة، نظرياً ، ان تخرج الحزب الحاكم في الجمهورية السوفييتية وان تأتي بغيره . كان الطابع الخاص للديمقراطية العمالية هو وجود الديمقراطية في داخل الحزب .

بالرغم من ان هذا النهج لا يرقى اليه أي شك ، فإن احداث الثورة قد طمست معالمه . ولم يكن ذلك « صدفة تاريخية » أو مجرد تعبير عن ارادة ستالين الشرّيرة . ان نشوء الستالينية هو أبشع تعبير عن تخلّف روسيا القديمة. كانت الثورة والحرب الأهلية قد انهكتا الطبقة العاملة الروسية التي تقطعت بشكل فاجع الى عدد ضئيل جداً منها، وغدت غير منظمة، وأدّى انهيار الاقتصاد بجمله إلى تحطيم معنوياتها . فاثبتت انها غير قادرة على المحافظة على الديمقراطية العمّالية وعلى السيطرة على الحزب الحاكم . وفي داخل الحزب ايضاً ، فشلت القاعدة في حماية حقوقها ومراقبة قادتها . فاكتسى النظام البلشفي طابعاً بروقراطياً وحدانياً احتفظ به خلال عقود من الزمن .

وقد شكّل صراع ستالين ضد تروتسكي مرحلة حاسمة من مراحل هذا التحوّل . فإن حدّة هذا الصراع ووحشيته القصوى تعودان في الواقع الى كون « التروتسكية » تمثل وعي الثورة ، ولأنها كانت تذكر الحزب البلشفي باستمرار بالتزاماته تجاه الديمقراطية العمالية ، ولأنها كانت توقظ في نفوس الطبقة العاملة تطلعاً ، لم يكن قد خبا بعد ، الى استعادة دورها في قيادة التحويل الاشتراكي. فكانت التروتسكية خلال حقبة كاملة من الزمن البديل الثوري الوحيد للستالينية .

كانت أفكار تروتسكي حول « بناء الاشتراكية » في تضاد تام مع نظرية ستالين وتطبيقه . والعودة الى الماضي قد توضّح أبعاد هذا التضاد. كان تروتسكي أول من دعا وناضل في سبيل التصنيع السريع في الاتحاد السوفييتي ، لذا فان له فضله على صعود الاتحاد السوفييتي الاقتصادي المالي . وكان يعتبر ان تجميع المزارع خطوة ضرورية تلازم التصنيع ، وانه الطريق إلى نمط من الانتاج الزراعي يتفوّق على ذلك النمط الذي يقوم على الملكيات الريفية الصغيرة التي تفلح بواسطة ادوات قديمة بالية . ويصح القول ان ستالين قد سرق شعارات تروتسكي بعد ان هزمه وانه اخذ برنامج التصنيع والتجميع عن « المعارضة اليسارية » .

ولقد دفع هذا بعض « الاخصائيين في شؤون الاتحاد السوفييتي » الى القول انه لا يوجد فرق كبير بين ستالين وتروتسكي ، وانه ليس ثمة من مجال للمفاضلة بينهما . ان هذه الحجة تتعامى عن نقطة هامة وهي أن ستالين إرتدى « ثياب » تروتسكي بعد ان غمّسها بدم الفلاحين والعمّال الروس . هنا ، باختصار ، يكمن الفرق بين الرجلين في « طريقة بناء الاشتراكية » .

كان تروتسكي يعتبر في منهاجه انه يجب دفع التصنيع الى الامام بموافقة العمّال وليس رغم ارادتهم ومصالحهم . وكان هذا المنهاج يفترض وجود توسّع متوازن متوازٍ في الصناعات الإنتاجية والاستهلاكية ، ووجود تحسنٍ مضطرد في مستوى الشعب المعاشي ، واشتراك العمال الارادي الواعي المتوسع في عملية التخطيط ، « التخطيط من الأعلى والتخطيط من الأسفل في الوقت نفسه » . غير ان ستالين قد شجّع تطوراً ذا وجه واحد هو تطور الصناعات الانتاجية واهمل الصناعات الاستهلاكية. فانخفض بالتالي مستوى الجماهير المعاشي او ظل راكداً؛ وعندما احتجّ العمال على سلبهم منافع التصنيع حرموا من اية مشاركة في تقرير السياسة الاقتصادية ، كما حرموا من جميع حقوق الاحتجاج والاضراب وابداء الرأي . وخلال عقدين من الزمن ، ظلّ العمال يدفعون ثمن اتفه الاساءات الى « انضباط العمل » سنوات من العبودية والتعذيب في جحيم معسكرات الاعتقال

الستالينية . وكان صوت تروتسكي ، خـــلال الثلاثينات ، هو الصوت الوحيد الذي ارتفع ليدافع عنهم ، هذا الصوت الذي ترامت اصداؤه في كل انحاء العالم ضد الدعاية الستالينية الكاذبة التي تصمّ الآذان . ومن ناحيـــة أخرى ، كانت دعوة تروتسكي لتجميع الزراعة تسلِم بانه سيجري تنفيذ هذا التجمع تدريجياً بواسطة الإقناع وبموافقة الفلاحين ، وليس كما فرضه ستالين « بالجملة » في الفـترة بين عام ١٩٢٩ و ١٩٣٢ .

يقول البعض انــه لو حلّ الاقناع محل القسر في تحديـــد سرعة التصنيع والتجميع في الاتحاد السوفييتي لما كان أمكنه أن يبني قوته الاقتصادية والعسكرية بالسرعة اللازمة لكي يخرج منتصراً من الحرب العالميــة الثانية ولكي يتمكن من تحطيم الاحتكار الأميركي للطاقة الذريــة بعد ذلك بمدة قصيرة . لا يمكن قبول مثل هذا التفكير أو رفضه استناداً الى أسس تجريبية بحتة . ان حجة تروتسكي المضادة جديرة بان نوليها اهمية بالغة إذ تعتبر انه لو توفرت قيادة اقتصادية أكثر عقلانية وتحضراً من قيادة ستالين واكثر استجابة منها لحاجات الشعب ، لقامت قوّة الاتحاد السوفييتي الاقتصادية والعسكرية على أسس أرسخ وأصبحت اكثر فعالية مما هي عليه الآن . إن المكاسب التي جناهــا ستالين بسبب دفعه لتطور جد سريع ، عاد فخسرها بسبب سوء ادارة البرقراطية وهدرها الفظيع للرجال والعتاد . إن خلفاء ستالين يرددون اليوم نفس الانتقادات التي وجهها تروتسكي لمشاريع السنوات الخمس خلال عهد ستالين عندما كان هؤلاء شركاء في أعمـــال سيّدهم . واذا كان بالامكان القول ان « الاسلوب » الستاليني كان حتميـــاً من وجهة النظر التاريخية ، فانما يعود ذلك فقط الى كون الزمرة السوفييتية الحاكمة خاصة والبرقراطية السوفييتية عامة شديدة التخلف والرعونة والوحشية فـلم تسلك طريقاً لبناء الحكم السوفييتي اكثر تحضراً وأقرب الى الاشتراكيـة . وفي التحليل الأخير ، يمكن القول إن مساوىء البرقراطية انما تنبثق عن البربريـــة الروسية القديمة التي استمرت بعد ثورة اكتوبر وتغلبت عليها . فكانت مـأساة روسيا ، ومأساة تروتسكي أيضاً ، هي انها لم تستطع الارتفاع فوق البربريـــة

حتى وهي تناضل للانعتاق منها .

قد يجد العديد من القراء صعوبة في تصوّر ضخامـة الصراع الذي كان يدور في روسيا خلال عقدين من الزمن . ولكن من المؤكد ان تروتسكي حمل معه الى حلبة هذا الصراع الدفع الفكري والأخلاقي وحرارة المأساة ودفء الانسانية . إن انعتاق روحه والحقل الواسع الذي تشمله اهتماماته ونشاطه تنعكس كلها في كتاباته . لقد قال ذات مرّة عن لينين انه يفكر « على صعيد القارات والحقبات التاريخية » إن هذا القول ينطبق عليه أيضاً . ورغم ان فكره كان مـا يزال ، مثل عصره ، مركزاً حول أوروبا ، فقد كان يتخطى هـذه الحدود دائماً ليصل الى قارات وشعوب أخرى كانت « صامتة » آنذاك ، وليصل الى حقبتنا هـذه حيث أصبح لكل شعب صوته الخاص، الأمر الذي تمكن أخيراً من أن يضفي طابعـاً شاملاً على السياسة اليومية . وفي سنوات نفيه الأخير ، عندما كان الاضطهاد الغربي « الديمقراطي » أو الستاليني يطارده من الجزيرة التركية القصية الى مخبئه في جبال الألب الفرنسية الى قريـة نروجية وأخيراً الى ضاحية من ضواحي مدينة المكسيك لم يتوقف عقله وقلبه لحظة واحدة عن معانقة العالم . لم تكن نزعته الأممية مجرد قناعة فكرية، كانت غريزية في عفويتها أيضاً، تكشف عن نفسها في تضامن حي وفعّال مع كل قطاع من قطاعات البشريـة المضطهدة والمناضلة ... فقد كان يشعر في كل أمّـة ومع كل شعب وكأنه في بيته ، فكل شعب من الشعوب وكل أمة من الأمم سوف تساهم بحصتها في الثورة الدائمة .

ومن ناحية اخرى ، كان اتساع أفق آرائه مثيراً للدهشة . فقد كان تروتسكي قائداً سياسياً ، وعالماً اجتماعياً واقتصادياً ، وقائداً حربياً ، ومفكراً عسكرياً و « اخصائياً » لامعـاً في شؤون الثورة المسلحة ، ومؤرخاً ، وكاتب سِيَر ، وناقداً أدبياً ، وسيداً من أسياد النثر الروسي ، وأحـد أعظم خطباء التاريخ كله ، يخترق عقله الثاقب الأصيل ومقدرته الخارقة على التعبير كل حقل من حقول نشاطه . فهو يعالج كل موضوع بطريقته الخاصة ، كما لم يعالجه إنسان من قبل او من بعد . وحتى عندما يلجأ الى ترديد البديهيات الماركسية ، يبدو وكأنه يعيد

اكتشاف الحقيقة التي تحويها هذه البديهيات فيبث فيها حيـاة جديدة بحيث لا تخرج وكأنها « كليشيهات » ممجوجة ؛ فهو يرددها ليستنبط منهـا استنتاجات جديدة خلاّقة . انه ، في عدة نواح ، أكثر الماركسيين مذهبية إلا ان شخصيته تطرد رائحة المذهبية . وعندما يتكلم ، يتكلم عـن حجّة ولا يتكلم كأحد الكتبة الهواة ؛ وهو في روحـه وطبعه وأسلوبه أقرب الى ماركس من جميع رسله واتباعه .

« الأسلوب هو الإنسان» ، إلا ان الاسلوب هو العصر أيضاً . إن أسلوب تروتسكي يعكس ، بشكل رائع ، الفترة البطولية من تاريخ الثورة والماركسية بظلامها وبألوانها الزاهية . ومنذ ذلك الحين ، حجب الدم والوحـل ، خلال الحكم الستاليني ، هذه الفترة عن أعين الجيل الحـاضر ، وكذلك فعلت المبهمات الباهتـة الرتيبة خلال المرحلة التي عقبت المرحلة الستالينية في الاتحاد السوفييتي وفي البلدان الشرقية الأخرى .

... حقاً ان تروتسكي نفسه قـد فشل في محاولاته لخلق حركة شيوعية مستقلة وفعالة على الصعيد السياسي . مع ذلك ، فالآراء المغروسة في أعمـاق الواقع الاجتماعي لا يمكن تحطيمها ، على حد قول تروتسكي ، حتى عندما يقتل دعاتها او يذهبون ضحية الإبادة الجماعيـة . لا بد لهذه الآراء من ان تبرز مجدداً وان تمتلك عقول أناس آخرين قد لا يعلمون من هو أول من صاغ هـذه الأفكار أو دعـا إليها . وفي بعض الأحيان ، يسير الجدول في مجراه مسافة طويلة في الصحراء ثم يختفي فجأة ويغور تحت الأرض ، ويبقى مطموراً طوال مسافـة طويلة من مسيرته ثم ينفجر مجدداً إما على شكل جدول واحد وإما على شكل عدة تيارات متباينة . ان « التروتسكية » تمرّ بوضع يشابه هذا الوضع . فبعد ربع قرن من تصفيتها « النهائية » طفت الى السطح في الاتحـاد السوفييتي ليس بشكلها القديم المعترف عليه ولا حتى باسمها ذاته ، وإنما كأنها قد قسّمت الى العناصر التي تكونها وتوزّعت على تيارات مبعثرة .

ففي الخلاف بين خروتشيف وماوتسي تونغ الذي يمزّق العـالم الشيوعي ،

يتهم الطرفان بعضهما البعض بالتروتسكية . وطبعاً يحـاول كل طرف ان يلصق التهمة بالآخر بغية تشويه سمعته بأسهل طريقة ممكنة ، فعند أتباع كل طرف لا يزال الاستهجان الستاليني للتروتسكية متقداً . ومع ذلك هنالك مـا هو أهم من هذه الألاعيب السجالية في هذا الاتهام المتبادل . إن خروتشيف يبدو فعلاً لماو وكأنه تروتسكي متخفٍ ، وكذلك يبدو ماو لخروتشيف . وبالإضافـة الى ذلك ، لكل منهما بعض الحق في أن يفكر عن الآخر ما يفكره ، لأنهما ينفذان وصية تروتسكي السياسية ، ولكن ينفذ كل منهما جزءاً مختلفاً منهـا رغم انهما يفعلان ذلك بشكل مشوّه وربما دون علمهما . إن النزعة الخروتشيفية المعاديـة للستالينية هي انتصار لتروتسكي بعد موتـه : فكل اصلاح تقدمي داخلي نفذ في الاتحاد السوفييتي منذ عام ١٩٥٣ لم يكن سوى صدى بعيد لآمال تروتسكي ومطاليبه التي طرحها ذات مرّة ، في حين مـا تزال نزعة الانتهازية والاكتفاء الذاتي الموروثة عن العهد الستاليني تهيمن على السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي . وعلى العكس من ذلك ، ما يزال نظام مـاو الداخلي ، الذي يعكس فقر الصين وتخلفهـا ، أقرب الى الانموذج الستاليني ، في حين نجد أن نقد مـاو لسياسة خروتشيف الخارجية والطريقة التي يعالج بهـا القضايا الشيوعية العالمية تحوي ، ولا شك ، بعض معطيات الثورة الدائمة الأساسية معروضة بشكل فظ .

يا له من مثال ساخر على « قانون التطور غير المتكافىء » ! ان التروتسكية تعود الى المسرح ، الى حدٍ ما ، غير ان عناصرها تمتزج بشكل فاجع بتركيبات غريبة من العناصر الستالينية . إن الحركة الشيوعية ، التي ما زالت تعاني من « فقر الدم » السياسي ، لم تع بعد الطريقة التي تؤكد فيها تقاليدها المطمورة استمراريتها على شكل استمرارية وسط التقطع . إلا أن انبعاث افكار تروتسكي ما يزال في بدايته . علينا أن نرى كيف سيستمر هـذا الانبعاث ، وأن نرى كيف ومتى ستلتحم آراء تروتسكي فيما بينها مجدداً ، ليس كنسخة عن التروتسكية القديمة ، ولكن بامتصاصها لها وتجاوزها إياها نحو طور جديد من أطوار الماركسية ، وفي وعي اشتراكي جديد أغنتـه تجارب عصرنا . ومهما يكن من أمر فمن المؤكد ان

ان معرفة كتابات تروتسكي ونضاله أمر ضروري للغاية لفهم الغليان الذي يعاني منه العالم الشيوعي والتغيرات التي ستطرأ عليه في السنوات المقبلة .

... أما على صعيد الآراء فأنا على ثقة أن تروتسكي ما يزال معلماً ممتازاً .

إسحق دويتشر ١٩٦٤

نتائج وتوقعات

(١٩٠٦)

مقدّمة

لقد تكونت مختلف الاتجاهات الايديولوجية والتنظيمات السياسية داخل الحركة الثورية الروسية بناء على مواقفها من قضية أساسية هي قضية طابع الثورة الروسية . وقد أثارت هذه القضية خلافات حادة في الحركة الاشتراكية الديمقراطية منذ ان فرضت عليها الأحداث طابعاً سياسياً . فمنذ عام ١٩٠٤ الى يومنا هذا ، اتخذت هذه الخلافات شكل اتجاهين أساسيين : المنشفية والبلشفية. فكانت وجهة النظر المنشفية تقول ان ثورتنا ستكون ثورة **برجوازية** ، أي ان نتيجتها الطبيعية ستكون انتقال الحكم الى البرجوازية وخلق الظروف الملائمة لقيام البرلمانية البرجوازية . وكانت وجهة النظر البلشفية ، بالرغم من اقرارها بحتمية الطابع البرجوازي للثورة القادمة ، تعتبر ان مهمة الثورة هي إنشاء جمهورية ديمقراطية بواسطة ديكتاتورية العمال والفلاحين .

كان تحليل المنشفيك في غاية السطحية ، يقتصر في جوهره على مقارنات تاريخية باهتة ، ذلك الأسلوب التقليدي الذي يعتمده « المثقفون » المتحذلقون المحدودون. فلا تطور الرأسمالية الروسية الذي خلق تناقضات حادة عند قطبيه والذي حال دون ان تلعب الديمقراطية البرجوازية دورها ، ولا تجربة الأحداث اللاحقة أوقف سعي المنشفيك الدؤوب وراء الديمقراطية « الصحيحة » و « الحقيقية » التي سوف تقود « الأمة » وتبني البرلمانية وتوفّر ، قدر المستطاع ، الظروف الديمقراطية للتطور الرأسمالي . وفي كل مكان وكل زمان ، جنّدوا أنفسهم لاكتشاف آثار لتطور الديمقراطية البرجوازية ؛ وحيث لم يجدوا هذه

الآثار اخترعوها . فأخذوا يضخمون أهمية أيـة بادرة او ظاهرة « ديمقراطية » بينما عملوا في الوقت نفسه على التقليل من أهمية قوى البروليتاريا ومن الاحتمالات المطروحة أمام مسيرتها النضالية . ولأجل تأمين الطابع البرجوازي « الشرعي » للثورة الروسية الذي زعموا ان قوانين التاريخ تتطلبـه ان يكون كذلك ، الى درجة انهم خلال الثورة ذاتهـا عندما لم تتوفر ديمقراطية برجوازية لقيادتها ، تعهدوا بأن يقوموا هم بواجباتها ببعض النجاح .

إن ديمقراطية البرجوازية الصغيرة الخاويـة من أي مضمون إيديولوجي اشتراكي ، والمجردة من أي تحضير ماركسي طبقي ، ما كان بإمكانها – طبعاً – أن تتصرف في ظروف الثورة الروسية بشكل يختلف عـن تصرف المنشفيك الذين لعبوا دور الحزب « القائد » لثورة شباط . ان فقدان قاعدة اجتماعيـة جدية ترتكز إليها الديمقراطية البرجوازية ارهق المنشفيك، فسرعان ما استنفدوا طاقاتهم فطرحهم الصراع الطبقي جانباً في الشهر الثامن من الثورة .

وعلى العكس من ذلك ، لم يكن البلاشفة يؤمنون بالطاقات الثورية الكامنة في الديمقراطية البرجوازيـة في روسيا ولا بقوتها . فمنذ البدء أقرّوا الأهميـة الحاسمة للطبقة العاملة في الثورة القادمة . أما فيما يخص برنامج الثورة ذاتها ، فقد اقتصر البلاشفة فيه أول الأمر على ضمـان مصالح ملايين الفلاحين الذين لم يكن باستطاعة البروليتاريا ان تقوم بالثورة حتى آخرها ضدهم أو بمعزل عنهم . من هنا جاء اعترافهم الآني بالطابع الديمقراطي **البرجوازي** للثورة .

فيما يتعلق بتقييم قوى الثورة الداخلية وتوقعاتها، لم ينضم مؤلف هذا الكتاب في ذلك الحين الى أي من الاتجـاهين الأساسيين السائدين داخل الحركة العمالية الروسية . وبالامكان رسم الخطوط العريضة لموقفـه في ذلك الحـين على النحو التالي : ان الثورة ، التي ستبدأ كثورة برجوازيـة فيما يخصّ مهامها الأولى ، سوف تولـّد صراعات طبقية عنيفة ، وهي لن تحرز النصر الأخير إلا بعد أن ينتقل الحكم فيها الى الطبقة الوحيدة القادرة على قيادة الجماهير المضطهدة ، وهذه الطبقة هي البروليتاريا . ولمجرد أن تصبح البروليتاريا في الحكم ، فإنها لن ترضى

بأن تحصر نفسها ضمن البرنامج الديمقراطي فحسب ، ولكنها ستجد نفسها مجبرة على تخطيه أيضاً ؛ وسوف تتمكن من تحقيق الثورة حتى النهاية فقط في حال تحول الثورة الروسية الى ثورة تشمل كل البروليتاريا الأوروبية . إذ ذاك يصبح بمقدور الطبقة العاملة الروسية ان تتخطى البرنامج الديمقراطي البرجوازي للثورة بحدوده الوطنية الضيقة ، فتتحول السيطرة السياسية الآنية التي تمارسها الى دكتاتورية اشتراكية بعيدة المدى . وإذا لم تتحرك البروليتاريا في أوروبا ، فإن الثورة المضادة البرجوازية لن تطيق وجود حكومة للجماهير الكادحة في روسيا فتسير بالبلد بعيداً ، بعيداً جداً عن جمهورية العمال والفلاحين الديمقراطية . لذا ، يستحيل على البروليتاريا ان تبقى ضمن حدود الديمقراطية البرجوازية . إنها مجبرة على تبنّي خطط **الثورة الدائمة** ، أي على تحطيم الحواجز التي تفصل بين برنامج الحد الأدنى وبرنامج الحد الأقصى من مطالب الحركة الاشتراكية الديمقراطية وعلى ان تلجأ الى إصلاحات اجتماعية اكثر جذرية ، وان تسعى الى كسب تأييد سريع ومباشر من الثورة في أوروبا الغربية . ان هذا الكتاب ، الذي نحن بصدد التقديم له والذي كتب بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٦ يعرض هذا الموقف ويحلله .

خلال تمسكه بالموقف الداعي الى الثورة الدائمة طوال خمسة عشر عاماً كان لا بد للمؤلف من ان يقع في الخطأ عند تقديره للجناحين المتصارعين داخل الحركة الاشتراكية ــ الديمقراطية . وبما ان كلا الجناحين كان ينطلق من الثورة **البرجوازية** ، اعتبر المؤلف أن الخلافات الموجودة بينهما ليست من العمق بحيث تؤدي الى حدوث الانشقاق . وكان يأمل ، في الوقت نفسه ، أن يبرهن تطور الأحداث القادم على ضعف الديمقراطية البرجوازية الروسية وعلى عدم اهميتها من جهة ، وعلى أنه يستحيل موضوعياً ان تحصر البروليتاريا نفسها ضمن حدود البرنامج الديمقراطي من جهة ثانية . وكان يظن ان هذا البرهان سوف يزيل كل مبرر لقيام خلافات بين الأجنحة .

وبسبب كون المؤلف خارج كلا الجناحين طوال فترة الهجرة ، لم يتسنّ له

ان يقدر تمام التقدير ان الخلاف بين البلاشفة والمنشفيك قــد أدى الى تكتيل الثوريين الصلبين في جهة والعناصر التي تزداد انتهازيتها وضوحاً ويظهر استعدادها للتكييف في جهة أخرى . فعندمـا اندلعت ثورة ١٩١٧ ، كان الحزب البلشفي قد غدا منظمة مركزية تجمع افضل العمال المتقدمين والمثقفين الثوريين استطاعت أن تتبنى ، بعد فترة من الصراع الداخلي ، خططاً علنية تدعو لقيام دكتاتورية الطبقة العاملة الاشتراكية تنسجم انسجاماً كاملاً مع الوضع الدولي بجمله ومـع العلاقات الطبقية في روسيا . أما الجناح المنشفيكي فكان قد نضج في ذلك الحين النضج الكافي الذي يؤهله ان يتحمل أعبـاء تحقيق الديمقراطية البرجوازية ، كما أشرت سابقاً .

إني ، إذ أقدم هذه الطبعة الجديدة من كتابي للجمهور ، لا أريد فقط أن أشرح المبادىء التي مكنتني ، مع رفاق آخرين ظلوا سنوات عديدة خارج صفوف الحزب البلشفي ، من أن نربط مصيرنا بهذا الحزب في بداية عام ١٩١٧[١] (إن مبرراً كهذا لا يكفي لإعـادة طبع الكتاب) ، ولكن لكي أستعيد التحليل الاجتماعي – التـاريخي للقوى المحركة للثورة الروسية الذي توصلت من خلاله الى الاستنتاج ان استلام الطبقة العاملة للسلطة السياسية يمكن ويجب ان يكون هدف الثورة الروسية ، قبل أن تصبح دكتاتورية البروليتاريا واقعاً ملموساً بزمن طويل. ان مجرد استطاعتنا أن نعيد طبع هذا الكتاب الذي كتب عام ١٩٠٦ ، والذي كانت خطوطه الرئيسية جاهزة منذ عام ١٩٠٤ دون أن نجري عليه أي تعديل ، إن هذا لدليل كاف على ان النظرية الماركسية ليست الى جانب البديل الديمقراطي البرجوازي الذي يقدمه المنشفيك وانمـا هي الى جانب ذلك الحزب الذي حقق دكتاتورية الطبقة العاملة تحقيقاً فعلياً .

إن الامتحان الأخير للنظرية هو التجربة . لذا كان الدليل القاطع على كوننا

---

١ – انضم تروتسكي الى الحزب البلشفي في صيف عام ١٩١٧ ، وقد انضمت معه الأغلبية الساحقة لمنظمة ماركسية ثورية تسمى « منظمة المنـاطق » كانت تضم حوالي ٣٠٠٠ عامل ، ومن قادتها انتونوف – اوفسينكو ولوناتشارسكي . (المترجم) .

طبقنا النظرية الماركسية بشكل سليم هو اننا تنبأنا بالخطوط العريضة للأحداث التي نشارك فيها الآن وحتى باشكال هذه المشاركة منذ مـــا يقارب الخمسة عشر عاماً .

كملحق لهذا الكتاب ، سنعيد طبـع مقال نشر في مجلة « ناشي سلافو » في١٧ تشرين الثاني ١٩١٥ في باريس بعنوان « النضال من أجل استلام الحكم » . إن لهذا المقال هدفاً سجالياً Polemic ، فهو نقد «لرسالة » على شكل برنامج وجهها القادة المنشفيك الى « الرفاق في روسيا » . ونخلص في هـــذا المقال الى أن تطور العلاقات الطبقية خلال السنوات العشر بعد ثورة ١٩٠٥ قد حطم أمل المنشفيك في إمكان قيام ديمقراطية برجوازية ، وانــه من البدهي ان يرتبط مصير الثورة الروسية أكثر من ذي قبل بقضية دكتاتورية البروليتاريا ... ففي وجه الصراع الفكري الذي دار خلال السنوات العديدة السابقة ، كان كل من تكلم عن« طابع المغامرة » في ثورة اكتوبر هو متحجر الرأس فارغه !

وفي معرض حديثنا عن موقف المنشفيك من الثورة ، لا بـد من الاشارة الى تقهقر كاوتسكي[1] الى مواقع المنشفيك . إن كاوتسكي هــذا يجد الآن في « نظريات » مارتوف ودان وتسيريتللي خير تعبير عن تعفنه النظري والسياسي . سمعنا من كاوتسكي بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ مـا معناه : بما أن استيلاء الطبقة العامـلة على الحكم يجب ان يكون مهمة تاريخية ينفذهـــا الحزب الاشتراكي — الديمقراطي ، وبما أن الحزب الشيوعي الروسي لم يدخل الى الحكم من الباب الخاص الذي عينه له كاوتسكي وفي الوقت الذي حدده هو له ، إذن يجب تسليم الجمهورية السوفييتية الى كرنسكي وتسيريتللي وتشرنوف ليجروا عليها التعديلات اللازمة .

---

١ — كارل كاوتسكي (١٨٥٤ — ١٩٣٨) هو اشتراكي — ديمقراطي الماني ومحرر المجلة النظرية « داي نيو زايت » (الحياة الجديدة) منذ عام ١٨٨٣ . اصبح المفكر الرئيسي في الحركة الماركسية بعد موت انغلز . وكان قائد الحملة ضد نزعة برنشتاين التحريفية عام ١٨٩٩ . ابتداء من عام ١٩١٥ اتخذ موقفاً وسطياً من اليسار الالماني المتمثل بروزا لوكسمبرغ ومهرينـغ وكلارا زتكين . ثم انضم الى المعسكر التحريفي ووقف موقفاً معادياً من ثورة اكتوبر .

(المترجم)

لا بد من أن يكون نقد كاوتسكي الرجعي المتحذلق قد فاجأ هؤلاء الرفاق الذين واكبوا فترة الثورة الروسية الاولى باعين مفتوحة وقرأوا مقالات كاوتسكي خلال العامين ١٩٠٥ و ١٩٠٦ . ففي ذلك الوقت ، تمكن كاوتسكي (بتأثير من روزا لوكسمبورغ) من أن يفهم الثورة الروسية فهماً عميقاً وأن يعترف بانه لا يمكنها ان تنتهي الى جمهورية ديمقراطية – برجوازية بل إنها ستؤدي حتماً الى دكتاتورية البروليتاريا نتيجة المستوى الذي بلغه الصراع الطبقي بمجمله في البلد نفسه ، ونتيجة لوضع الرأسمالية العالمي . وكان كاوتسكي في ذلك الحين يتكلم بصراحة عن حكومة عمالية يكون الاشتراكيون – الديمقراطيون أغلبية فيها . ولم يخطر بباله قط ان يسخّر المسيرة الطبيعية للصراع الطبقي لتقلبات تركيبات سطحية في الديمقراطية السياسية .

في ذلك الحين ، فهم كاوتسكي ان الثورة ستبدأ بتحريك ملايين الفلاحين والعناصر البرجوازية الصغيرة في المدن ، ليس دفعة واحدة وانما بالتدرج ، فئة بعد فئة ؛ فعندما يبلغ الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية الرأسمالية ذروته تكون الجماهير الفلاحية ما زالت على مستوى بدائي جداً من التطور السياسي فتمنح أصواتها للاحزاب السياسية الوسطية التي لا تعكس سوى تأخر طبقة الفلاحين وعقدها . وقد فهم كاوتسكي أيضاً ان البروليتاريا ، التي يدفعها منطق الثورة ذاتها الى استلام الحكم ، لن تستطع ان تؤجل هذا العمل الى ما لا نهاية بشكل فردي لأنها تكون بتضحيتها بنفسها قد أخلت الطريق أمام الثورة – المضادة . وإنه في حال استلام البروليتاريا الحكم ، ليس عليها ان تعلق مصير الثورة على الأمزجة المتقلبة لأقل الجماهير وعياً ويقظة في أية لحظة من اللحظات، بل على العكس عليها ان تحول السلطة السياسية الموضوعة بين أيديها الى جهاز ضخم لتوعية هذه الجماهير الفلاحية الجاهلة المتخلفة وتنظيمها . وفهم كاوتسكي ان تسمية الثورة الروسية ثورة برجوازية ، وبالتالي حصر مهامها ضمن هذه الحدود ، هو جهل مطبق بما يجري في العالم . وقد اعترف عن حق ، مع الماركسيين الثوريين في روسيا وبولونيا بانه في حال استيلاء البروليتاريا الروسية

على الحكم قبل أن تستولي عليه البروليتاريا الأوروبية ، يتوجب عليها أن تستغل وضعها كطبقة حاكمة ليس لتسليم مواقعها بسرعة للبرجوازية ولكن لكي تقدم مساعدة قوية لثورة البروليتاريا في أوروبا والعالم بأسره . إن هـــذه التوقعات الأممية المليئة بروح العقيدة الماركسية لم نصل اليها ولا وصل اليها كاوتسكي بناء على التفكير بكيف سينتخب الفلاحون ولمن سيدلون باصواتهم في انتخابات مـــا يسمى بالجمعية التأسيسية في تشرين الثاني وكانون الأول عام ١٩١٧ .

الآن ، وبعد ان تحولت التوقعات التي تبلورت منذ خمسة عشر عـــاماً الى واقع ملموس ، يرفض كاوتسكي ان يمنح الثورة الروسية شهادة ولادة لأنـــه لم يجرِ تسجيل ولادتهـــا في حينه في سجلات المكتب السياسي للديمقراطيـــة البرجوازية . يا له من حدث مدهش ! يا لانحطاط الماركسية ! بإمكاننا ان نقول عن حق ان تعفن « الأممية الثانية » قد عبّر عن نفسه في هـــذا الحكم الدعيّ على الثورة الروسية من قبل أكبر مفكري هذه الأممية بشكل أكثر بشاعة مما عبّر عنه التصويت الى جانب مصاريف الحرب في ٤ آب عام ١٩١٤ .

لقد وضح كاوتسكي مبادىء الثورة الاجتماعية ودافع عنها خلال عقود من الزمن . اما الآن وقد أصبحت هذه المبادىء واقعاً ، يفرّ كاوتسكي من أمامها بذعر . انه يخشى سلطة السوفييت الروسية . انه يتخذ موقفاً معادياً من الحركة الجبارة التي ولدتها البروليتاريا الشيوعية في المانيـــا . فكأني بكاوتسكي ذلك المدرس البائس الذي ظـــل خلال سنوات عديدة يصف الربيع لتلامذته ضمن جدران غرفة الدرس المظلمة . وأخيراً وبعد أن انتهت سني خدمته ، يخرج الى الهواء النقي فإذا به لا يتعرف الى الربيع ، فيتملكه الغضب (الى مدى مـــا يمكن للغضب ان يتملك مدرساً) فيحاول أن يثبت ان الربيع ليس هو الربيع وإنما هو فوضى كبيرة في الطبيعية لأنـــه أتى بشكل مغـــاير لقوانين التاريخ الطبيعي . ولكن من حسن الحظ ان العمال لا يثقون ولا حتى بأكبر واحد من هؤلاء الأساتذة المتحذلقين ، إنهم يثقون بصوت الربيع .

نحن تلامذة ماركس ، الواقفين الى جانب العمال الالمان ، نتمسك بقناعاتنا

ان ربيع الثورة قد أطلّ بشكل ينسجم مع قوانين الطبيعة الاجتماعية ومع قوانين النظرية الماركسية في آن واحد ؛ لأن الماركسية ليست عصا مدرّس تشير الى ما وراء التاريخ ، وإنما هي تحليل اجتماعي للأساليب التي تنتهجها العملية التاريخية في مسيرتها الحقيقية .

لقد تركت كلا الكتابين ، كتاب عام ١٩٠٦ وكتاب عام ١٩١٥ ، دون ان أجري عليهما اي تعديل . فقد أردتُ في الأصل ان أزود النص بملاحظات ترقى به الى مستوى الأحداث، بيد أني أقلعت عن هذه الفكرة بعد مراجعتي له . فلو اني أردت الدخول في التفاصيل ، لكان علي ان أضاعف حجم الكتاب وهذا ما ليس لدي الوقت لأحققه ، بالاضافة الى كون كتاب « ذي طابقين » قليل الفائدة بالنسبة للقارىء . وأهم من ذلك اني أعتبر أن الخط الفكري في فروعه الأساسية يقترب الى حد كبير من ظروف زمننا هذا . لذا ، فإن القارىء الذي يبذل جهد التعرف الوثيق على هذا الكتاب ، سوف يتسنى له بسهولة فائقة ان يضيف الى ما يحتويه الاحصاءات والوقائع الضرورية المستنبطة من تجربة ثورتنا الحالية .

الكرملين في ١٢ آذار ١٩١٩

ليون تروتسكي

نتائج وتوقعات

إن الثورة في روسيا قد فاجأت الجميع ما عدا الديمقراطيين – الاجتماعيين . فمنذ زمن طويل تنبأت الماركسية بحتمية الثورة الروسية التي كان لا بد من ان تنفجر نتيجة للصراع القائم بين التطور الرأسمالي وبين قوى الحكم المطلق المتحجرة . ولقد بيّنت الماركسية سلفاً طابع الثورة القادمة . فعندما أطلقت عليها صفة الثورة البرجوازية كانت إنما تشير الى أن **الاهداف العاجلة** للثورة تتلخص في توفير « الظروف الطبيعية لتطوير المجتمع البرجوازي كله » .

لقد كانت الماركسية على حق ، هذا أمر لا يحتاج الى نقاش او إثبات . إن مهمة من نوع جديد تواجه الماركسيين الآن : إنهم مطالبون بأن يكتشفوا « الامكانات » الكامنة في الثورة التي تتوالى أمامنا بواسطة تحليل تركيبها الداخلي . وكل من يحاول تشبيه ثورتنا بأحداث ١٧٨٩ – ١٧٩٣ أو بأحداث ١٨٤٨ إنما يقع في خطأ فادح . فلا يمكن للمقارنات التاريخية ، التي تعيش عليها الليبرالية وتتغذى بها ، ان تحل محل التحليل الاجتماعي .

إن الثورة الروسية تتميز بطابع فريد هو حصيلة الاتجاه الخاص الذي سار فيه التطور الاجتماعي والتاريخي عندنا ، والذي يفتح أمامنا آفاقاً تاريخية جديدة .

١ ـ مميزات التطوّر التاريخي في روسيا

إذا ما أجرينا مقارنة بين تطور روسيا الاجتماعي وبين التطور الاجتماعي في البلدان الأوروبية الأخرى ، على أساس ما يجمع بين تاريخها وتاريخ روسيا وما يميزه عنه ، لأمكننا القول إن الطابع الأساسي لتطور روسيا الاجتماعي هو بدائيته وبطؤه النسبيان .

لن نتوقف عند الأسباب الطبيعية لهذه البدائية ، ولكن هذه حقيقة لا يمكن الشك فيها: لقد بنيت الحياة الاجتماعية الروسية على قاعدة اقتصادية اكثر فقراً وبدائية .

تعلمنا الماركسية أن تطور قوى الانتاج يحدد العملية الاجتماعية – التاريخية . فتكوين التجمعات الاقتصادية والطبقات والطوائف[1] ممكن فقط عندما يبلغ هذا التطور مستوى معيناً . ان تمايز الطوائف والطبقات ، الذي يحدده تطور تقسيم العمل وخلق وظائف اجتماعية اكثر اختصاصاً ، يفترض ان قسماً من السكان الذين يعملون في الانتاج المادي المباشر ينتج ما يفيض عن استهلاكه : وفقط بواسطة تملك الطبقات غير المنتجة لهذا الفائض تستطيع تلك الطبقات ان تنشأ وتتبلور . فان تقسيم العمل بين الطبقات المنتجة نفسها ممكن فقط عندما يبلغ

---

١ ـ اننا نستعمل كلمة « طائفة » كترجمة Estate أي لقطاع من المجتمع ما قبل الرأسمالية يملك حقوقاً وواجبات . مثلاً « الطائفة الثالثة » أو « الطائفة الدنيا » هي المجموعة من البشر التي لا تنتمي الى النبلاء ولا الى رجال الدين في فرنسا قبل ثورة ١٧٨٩ .

(المترجم)

تطور الزراعة درجة معينة تستطيع أن تؤمن تزويد السكان غير الريفيين بالمنتوج الزراعي . لقد سبق لآدم سميث ان عرض بوضوح هذه الموضوعات الأساسية للتطور الاجتماعي .

لذلك ينتج عن ذلك انه بالرغم من ان مرحلة « نوفغورود[1] » في تاريخنا تصادف بداية القرون الوسطى الأوروبية، فكان لا بد لبطء التطور الاقتصادي الذي سببته الظروف الطبيعية ـ التاريخية (وضع جغرافي أقل ملاءمة ، سكان مبعثرون) من أن يعيق عملية التكوين الطبقي ويضفي عليها طابعاً أكثر بدائية .

من الصعب أن نحدد الشكل الذي كان التطور الاجتماعي في روسيا سيتخذه لو ظل معزولاً ومعرضاً لتأثير النزعات الداخلية فقط . يكفي أن نؤكد ان هذا لم يحصل . فالحياة الاجتماعية الروسية ، المبنية على أساس اقتصادي داخلي معين ، كانت دائماً تحت تأثير، وحتى تحت ضغط ، وسطها الاجتماعي – التاريخي الخارجي .

وعندما اصطدم هذا التنظيم الاجتماعي والحكومي ، خلال عملية تكونه ، بتنظيمات مجاورة أخرى لعبت بدائية العلاقات الاقتصادية عند الأول والتطور المرتفع نسبياً عند الأخرى دوراً حاسماً في العملية التي تبحث عن هذا الاصطدام .

إن الدولة الروسية ، التي نمت على قاعدة اقتصادية بدائية ، دخلت في علاقات واصطرعت مع تنظيمات دولة مبنية على أسس اكثر ارتفاعاً ورسوخاً . فبرز احتمالان : إما ان تنهار الدولة الروسية نتيجة صراعها مع هذه التنظيمات مثلما انهارت « العشيرة الذهبية »[1] في صراعها مع دولة موسكو ، وإما ان

---

٢ – مرحلة «نوفغورود» هي بداية تكوين أول تجمع قبلي سياسي في روسيا حوالي منتصف القرن التاسع . (المترجم)

١ – « العشيرة الذهبية » هي جيوش « باتو » حفيد جنكيزخان الذي اخضع الأمراء الروس في القرن الثاني عشر واستقر عند أسفل نهر الفولغا وكانت عاصمته « ساراي » .
(المترجم)

تتجاوزها في تطور العلاقات الاقتصادية وتمتصّ قدراً اكبر من الطاقات الحيوية من الذي كان بإمكانها ان تمتصه لو بقيت معزولة . إلا ان الاقتصاد الروسي كان متطوراً التطور الكافي ليمنع تحقيق الاحتمال الأول . فلم تتحطم الدولة ولكنها أخذت تنمو تحت ضغط رهيب تمارسه القوى الاقتصادية .

وهكذا ، فالشيء الأساسي بالأمر ليس ان روسيا كانت مطوقة بالأعداء من كل جهة . فهذا بمفرده لا يفسّر الوضع . بالتأكيد لا ينطبق هــذا على أي بلد أوروبي آخر ربما باستثناء انكلترا . في صراعها مع بعضها من أجل البقـاء ، اعتمدت هذه الدول على أسس اقتصادية متشابهة الى حد مـا فلم يكن تطور تنظيمات الدولة فيها عرضة لضغط خارجي قوي كالذي كانت روسيا عرضة له .

لقد استدعى الصراع ضد القبائـل التترية في القرم ونوغاي بـذل مجهود جبار . ولكن هذا المجهود لم يكن ، طبعاً ، أكبر من المجهود الذي بذل خلال حرب المائة عـام بين فرنسا وانكلترا . لم يكن التتار هم الذين اجبروا روسيا القديمة على إدخال الأسلحة النارية وعلى إنشاء وحدات مقاتلة من الستريلتسي ، ولم يكن التتار هم الذين أجبروها فيما بعد على تكوين سلاح الخيـالة ووحدات المدفعية، انه ضغط ليتوانيا وبولونيا والسويد .

ونتيجة لهذا الضغط الذي مارسته الدول الأوروبية ، ابتلعت الدولة بشكل فوضوي قسماً كبيراً من فائض الانتـاج ، أي انهـا كانت تعيش على حساب الطبقات المالكة التي كانت في طور التكوين فأعاقت بذلك تطورهـا الذي كان بطيئاً في الأصل . ولكن لم يكن هذا كل ما في الأمر . فقد انقضّت الدولة على « المنتوج الضروري » للمزارع وحرمته من سبل معيشته وأجبرتـه على ترك الأرض التي لم يتسن له الوقت الكافي للاستقرار فيها ، فعرقلت بهذا نمو عـدد السكان وتطور قوى الإنتاج . وهكذا ، فبمقدار مـا كانت الدولة تبتلع قسماً هائلاً من فائض الانتاج كانت تعرقـل بذلك التمايز البطيء أصلاً بين الطوائف ، وبمقدار ما استولت على قسم كبير من المنتوج الضروري كانت تحطم بذلك حتى تلك الأسس الانتاجية البدائية التي تعتمد عليها .

ولكن لكي تتمكن الدولة من البقاء ومن ممارسة وظيفتها ، وعلى الأخص لكي تتمكن من الاستيلاء على الحصة التي تحتاجها من المنتوج الاجتماعي **كانت بحاجة الى تنظيم هرمي للطوائف** . لهذا ، بينما كانت تنسف الأسس الاقتصادية لتطورها ، كانت تسعى في الوقت ذاته إلى تطور هذه الأسس بواسطة التدابير الحكومية ، وعملت كغيرها من الدول ، لتحويل تطور الطوائف لصالحها . إن مليوكوف[1] ، مؤرخ الثقافة الروسية ، يرى أن هذا يتناقض بشكل مباشر مع تاريخ أوروبا الغربية . غير انه لا تناقض هنا .

إن ملكيات الطوائف في القرون الوسطى التي تحولت الى حكم مطلق برقراطي كانت شكلاً من أشكال الدولة يفرض بعض المصالح والعلاقات الاجتماعية المحددة . ولكن هذا الشكل من أشكال الدولة ما ان يقوم ويتحرك حتى يكتسب مصالح خاصة به (مصالح السلالة والقصر والبرقراطية ...) تتصارع ليس فقط مع مصالح الطوائف الدنيا ولكن مع مصالح الطوائف العليا أيضاً . إن الطوائف المسيطرة ، التي كانت تشكل « جدار الوسط » الذي لا غنى عنه بين جماهير الشعب وتنظيم الدولة ، تمارس ضغطاً على تنظيم الدولة وتجعل من نشاطها العملي التعبير العملي عن مصالحها . وفي الوقت نفسه ، كانت سلطة الدولة ، كقوة مستقلة ، تنظر الى مصالح الطوائف العليا من **وجهة نظرها هي**. فقاومت مطامحها **وحاولت** إخضاعها لسلطتها . إن التاريخ الفعلي للعلاقات بين الدولة والطوائف كانت تسير في خطوط متعاكسة يحددها تشابك القوى .

ان عملية مشابهة في معالمها الرئيسية حدثت في روسيا .

حاولت الدولة أن تستغل المجموعات الاقتصادية النامية لكي تخضعها لمصالحها المالية والعسكرية المحددة . والمجموعات الاقتصادية المسيطرة حاولت ، خلال نموها ، ان تستغل الدولة لترسخ امتيازاتها على شكل امتيازات طوائف .

---

١ - بول مليوكوف (١٨٥٩ - ١٩٤٣) هو مؤرخ وقائد حزب الكاديت الليبرالي . شغل منصب وزير الشؤون الخارجية في أول حكومة مؤقتة بعد سقوط الحكم القيصري . غادر روسيا الى الخارج بعد ثورة اكتوبر . (المترجم)

وفي لعبة هذه القوى الاجتماعية ، كانت النتيجة لصالح سلطة الدولة بقدر أكبر مما كانت عليه في أوروبا الغربية . ان تبادل الخدمات بين سلطة الدولة والفئات الاجتماعية العليا ، على حساب الجماهير العاملة ، الذي ينعكس في توزيع الحقوق والواجبات والاعباء والامتيازات ، كان أقل نفعاً للنبلاء والاكليروس في روسيا مما كان عليه في ملكيات الطوائف في اوروبا الغربية خلال القرون الوسطى . هذا أمر لا شك فيه . ومهما يكن من امر ، فإنه من المبالغة الكبيرة والمعاكسة لحس النسبة ان نقول انه بينما الطوائف خلقت الدولة في الغرب ، كانت سلطة الدولة في روسيا هي التي خلقت الطوائف لتخدم مصالحها (كما يقول مليوكوف) .

إن التدبير الحكومي والقانون لا يستطيعان خلق الطوائف . فقبل ان تتخذ هذه الفئة الاجتماعية او تلك شكل طائفة ذات امتيازات بمساعدة سلطة الدولة، لا بد لها من أن تكون قد نمت اقتصادياً بجميع ما يحمل هذا النحو من امتيازات اجتماعية . لا يمكن صنع الطوائف وفق سلم من المراتب موضوع سلفاً او وفق شرائع « جوقة الشرف » . إن سلطة الدولة تستطيع فقط أن تساعد ، بجميع مواردها ، العملية الاقتصادية الأولية التي تولد بنيات اقتصادية على مستوى أرفع . وكما أشرنا سابقاً ، فالدولة الروسية قد استهلكت حصة كبيرة نسبياً من طاقات الأمة معرقلة بذلك عملية التبلور الاجتماعي ، ولكنها كانت بحاجة الى هذه العملية لمصالحها الخاصة . انه من الطبيعي ، اذن ، تحت تأثير وضغط محيطها الاوروبي الأكثر تبلوراً ، ذلك الضغط الذي انتقل خلال التنظيم العسكري للدولة ، أن تسعى الدولة بدورها الى دفع تطور التمايز الطبقي على أساس اقتصادي بدائي. والى جانب ذلك ، فإزاء الحاجة الى الدفع ذاتها، التي يقتضيها ضعف التكوينات الاجتماعية – الاقتصادية ، كان من الطبيعي أن تحاول الدولة بوصفها حارساً ، أن تستعمل سلطتها الجبارة لتوجه تطور الطبقات العليا ذاته وفق مصالحها. ولكن في طريقها الى تحقيق نجاح كبير في هذا الاتجاه ، وجدت الدولة نفسها أولاً مكبلة بضعفها وبالطابع البدائي لتنظيمها ، الذي يعود الى

بدائية البنيان الاجتماعي .

وهكذا ، فالدولة الروسية ، التي تقوم على أساس الظروف الاقتصادية الروسية ، كانت مدفوعة بضغط أخوي ، أو عدائي في معظم الأحيان ، من تنظيمات الدولة في البلدان المجاورة القائمة على أساس اقتصادي اكثر تطوراً . وابتداء من وقت معين ، وخاصة من نهاية القرن السابع عشر ، بذلت الدولة أقصى جهدها لتعجيل النمو الاقتصادي الطبيعي في البلد . فألصقت فروعاً جديدة من حرف، وآلية ، ومصانع وصناعة كبيرة ورأس مال بشكل مصطنع على الجذع الاقتصادي الطبيعي . فبدا وكأن الرأسمالية هي ابنة الدولة .

انطلاقاً من هذا الموقف يمكننا القول إن جميع العلوم الروسية هي من افتعال المجهود الحكومي، وانها كلها تطعيم مزيف على الجذع الطبيعي للجهل الوطني[1].

إن الفكر الروسي ، كالفكر الاقتصادي الروسي مثلاً ، قد نما في ظل تأثير مباشر مارسته عليه العلوم الاقتصادية الأكبر تطوراً ورقياً في الغرب . ولأن العلاقات مع البلدان الأخرى اتخذت طابع العلاقات مع الدولة ، بسبب طابع الاقتصاد – الطبيعي الذي يطغى على الظروف الاقتصادية ، أي النمو البطيء للتجارة الخارجية ، اتخذ تأثير هذه البلدان شكل صراع عنيف للابقاء على الدولة قبل ان يتخذ شكل التنافس الاقتصادي المباشر . ان الاقتصاد الغربي أثر على الاقتصاد الروسي بواسطة الدولة . ولكي تتمكن من البقاء على قيد الحياة في وسط بلدان معادية تفوقها سلاحاً ، اضطرت روسيا الى أن تنشىء المصانع وكليات البحرية وان تنشر الكتب المدرسية حول التحصين الى آخره . ولكن لو لم تكن المسيرة العامة للاقتصاد الداخلي لهذا البلد الكبير لتسير في هذا الاتجاه نفسه، ولو أن تطور الأوضاع الاقتصادية لم يخلق الحاجة الى العلم العام والتطبيقي،

---

١ – يكفي أن نستعيد السمات المميزة للعلاقات الأصلية بين الدولة والمدرسة لتبين إن هذه الأخيرة ، على أقل تعديل ، منتوج « اصطناعي » من منتوجات الدولة بقدر ما كان المصنع . وإن مجهود الدولة التعليمي مثال على هذا الاصطناع . كان التلامذة الذين يتجبرون على رفاقهم يكبلون بسلاسل من حديد . كانت المدرسة كلها مكبلة . وكان الدرس شكلا من أشكال الخدمة . وكان التلامذة يتلقون اجوراً ، الى آخره ، الى آخره . (ل. ت.) .

لكانت جميع مجهودات الدولة ذهبت هباء . فالاقتصاد الوطني ، الذي كان طبعاً يتطور من الاقتصاد الطبيعي الى الاقتصاد المالي – البضاعي ، كان يستجيب فقط لتلك الإجراءات الحكومية التي تلائم تطوره وفقط الى مدى ما تتلاءم مع هذا التطور . إن تاريخ الصناعة الروسية ونظام روسيا المالي والتسليف الحكومي هي أفضل قرائن لدَعم هذا الرأي .

يقول البروفسور فيديلاييف :

« إن غالبية فروع الصناعة (صناعة المعادن والسكر والنفط والتقطير وحق صناعات النسيج) قد ولدت نتيجة التأثير المباشر للتدابير الحكومية ، وفي بعض الأحيان حتى بمساعدة التعويضات الحكومية ، خاصة لأن الحكومة كانت تتبع دوماً سياسة الحماية بشكل واع . فخلال حكم القيصر الكسندر ، أدرجت الحكومة هذه السياسة صراحة في برنامجها ... إن الأوساط الحكومية العليا ، التي وافقت كلياً على تطبيق مبادىء الحماية في روسيا ، قد برهنت على انها أكثر تقدماً من طبقاتنا المثقفة جميعها » .

(د. منديلاييف: نحو معرفة روسيا، سان بطرسبرغ – ١٩٠٦ – ص ٨٤).

إن هذا المداحة المفوّه للحماية الصناعية ينسى أن يضيف ان سياسة الحكومة لم يكن يمليها أي اهتمام بتطوير القوى الصناعية ، وانما تمليها فقط الاعتبارات المالية ، والاعتبارات العسكرية التقنية بشكل جزئي . لهذا السبب ، كانت سياسة الحماية تتعارض ليس فقط مع المصالح الأساسية للانماء الصناعي بل مع المصالح الخاصة لمجموعات رجال الأعمال المختلفة . وهكذا فقد أعلن أصحاب محالج القطن جهاراً أن « الضرائب المرتفعة على القطن يجري الاحتفاظ بها ليس لغاية تشجيع زراعة القطن وإنما من أجل مصالح ضرائبية ليس إلا » . ومثلما كانت الحكومة في اتباعها سياسة «خلق» الطوائف تحقق أهداف الدولة، كذلك كان همها الأساسي في « زرع » التصنيع هو خدمة متطلبات خزينة الدولة. ولا شك في أن الحكم الفردي قد لعب دوراً ليس صغيراً في نقل نظام المصانع الانتاجي الى الأرض الروسية .

عندما بدأ المجتمع البرجوازي النامي يشعر بحاجة الى المؤسسات السياسية في الغرب أثبت الحكم المطلق على انه مسلح بجبروت الدول الأوروبية المادي . فقد كان يعتمد على آلة برقراطية مركزية لا تفيد بشيء في إنشاء علاقات جديدة ، ولكنها بارعة في توليد زخم كبير لتنفيذ حملات قمع منتظمة . فحل التلغراف مشكلة المساحات الشاسعة في البلد الأمر الذي منح الادارة شعوراً بالثقة بالعمل الذي تقوم به واضفى على اجراءاتها السرعة والانسجام النسبي (في قضية حملات القمع) . وقد فتحت سكك الحديد امكانية نقل القوات العسكرية بسرعة من طرف البلد الى الطرف الآخر . إن حكومات ما قبل الحقبة الثورية في اوروبا لم تكن تعرف سكك الحديد أو التلغراف. كان الجيش الموضوع تحت تصرف الحكم المطلق جباراً، واذا كان قد أثبت عن فشله في امتحانات جديدة كالحرب اليابانية، فقد بقي فعالاً لتحقيق السيطرة الداخلية. ليس فقط حكومة فرنسا قبل الثورة العظمى ولكن حكومتها عام ١٨٤٨ لم تكن تملك جيشاً كالذي تملكه روسيا الآن.

بينما الحكومة تستغل البلد الى أبعد حد بواسطة آلتها الضرائبية الأميرية والعسكرية استطاعت أن ترفع موازنتها السنوية الى رقم ضخم يبلغ ملياري روبل. باستنادها الى جيشها وموازنتها، حول الحكم الفردي البورصة الأوروبية الى خزينة له . هكذا أصبح دافع الضرائب الروسي رافداً تافهاً لهذه البورصة الأوروبية .

وهكذا ، في الفترة بين ١٨٨٠ و ١٨٩٠ تصدت الحكومة الروسية للعالم بوصفها منظمة عسكرية – برقراطية وأميرية – مالية جبارة لا تقهر .

إن جبروت الملكية المطلقة المالي والعسكري لم يقتحم وعي البرجوازية الاوروبية فحسب بل الليبرالية الروسية كذلك ففقدت هذه ايمانها بامكان امتحان حظها في مبارزة علنية مع الحكم المطلق . فبدا وكأن جبروت الحكم المطلق العسكري والمالي قد قضى على أي فرصة لقيام الثورة الروسية .

ولكن ، تأكد في الواقع أن العكس صحيح .

فكلما قويت مركزية الحكومة وازدادت استقلالاً عن المجتمع ، كلما اقتربت

من أن تغدو منظمة اوتقراطية تقف فوق المجتمع . وكلما عظمت قواها المالية والعسكرية كلما طال نضالها من أجل البقاء وتضاعفت امكانات نجاحه . إن الدولة المركزية بموازنتها التي تبلغ ملياري روبل ودينها الذي يبلغ ثمانية مليارات روبل وجيشها الذي يبلغ بضعة ملايين من الرجال تحت السلاح ، تستطيع أن تستمر في البقاء بعد ان تكون قد توقفت عن تلبية الحاجات الأولية للنمو الاجتماعي – ليس مجرد حاجات الادارة الداخلية ولكن حتى مقتضيات الحماية العسكرية الذي تكونت هذه الدولة في الأصل لتوفيرها .

وكلما طال هذا الوضع ، كلما قوي التناقض بين الحاجة الى الانماء الاقتصادي والثقافي وبين سياسة الحكومة الذي تكون قد ولّدت طاقتها « المتعددة الاتجاهات » . وبعد انقضاء حقبة « الترقيعات الاصلاحية الكبيرة » ، التي لم تتمكن من حل التناقضات بل على العكس أبرزتها لأول مرة بشكل صارخ ، اصبح من الصعب جداً ومن المستحيل نفسياً ان تسلك الحكومة باختيارها طريق البرلمانية . فكان المخرج الوحيد من هذه التناقضات ، كما يشير وضعها للمجتمع ، هو في تجميع القدر الكافي من البخار في مرجل الحكم المطلق حتى ينفجر .

وهكذا ، فإن قوى الحكم المطلق الإدارية والعسكرية والمالية ، الذي يستطيع بفضلها ان يبقى بالرغم من التطور الاجتماعي ، لم تستبعد امكانية قيام الثورة كما هو رأي الليبراليين فحسب ، بل على العكس جعلت من الثورة المخرج الوحيد . وعلاوة عن ذلك ، فقد امنت للثورة سلفاً طابعاً جذرياً كل الجذرية بقدر ما يخلق الحكم المطلق ، بجبروته ، هوة بينه وبين الأمة . من حق الماركسية الروسية ان تكون فخورة لكونها المذهب الوحيد الذي فسّر اتجاه هذا التطور وتكهن بأشكاله العامة[1] في حين كان الليبراليون يحشون عقولهم

---

١ – حق برقراطي رجعي مثل البروفسور منديلاييف لم يستطع ان ينكر ذلك . ففي معرض حديثه عن تطور الصناعة قال : « إن الاشتراكيين قد اكتشفوا أمراً هاماً في هذا الصدد وفهموا بعضه ، إلا انهم انحرفوا ، انسجاماً مع نزعتهم اللاتينية (!) فأوصوا باللجوء الى العنف مدغدغين الغرائز الوحشية عند الجمهور في سعيهم نحو الثورة والسلطة » . (« نحو معرفة روسيا » ص ١٢٠) (ل . ت .) .

بأكثر أنواع « التجريبية » مثالية ، و « الشعبيون » الثوريون يعيشون على البدع المستحيلة وعلى الإيمان بالعجائب .

إن التطور الاجتماعي السابق بمجمله قد جعل الثورة حتمية. إذن فماذا كانت قوى هذه الثورة ؟

٢ - المدن ورأس المال

إن روسيا المدن من صنع التاريخ الحديث ، وبشكل أدق انها من صنع بضعة العقود الأخيرة من الزمن . ففي نهاية عهد بطرس الأول ، في الربـــع الأول من القرن الثامن عشر كان عدد سكان المدن لا يزيد كثيراً عن ٣٢٨،٠٠٠ أي ٣٪ من مجموع عدد سكان البلد . وفي نهاية القرن نفسه ، بلغ ١،٣٠١،٠٠٠ أي ما يقارب ١و٤٪ من مجموع عدد السكان . وبمجيء عام ١٨١٢ ، كان عدد سكان المدن قـد بلغ ١،٦٥٣،٠٠٠ أي ما يعادل ٤و٤٪ من المجموع . وفي منتصف القرن التاسع عشر لم يكن يزيد عن ٣،٤٨٢،٠٠٠ أي ٨و٧٪ من المجموع . وأخـــيراً يذكر الاحصاء الأخير (عام ١٨٩٧) ان عـدد سكان المدن يبلغ ١٦،٢٨٩،٠٠٠ أي ما يقارب ١٣٪ من مجموع عدد السكان[1] .

اذا اعتبرنا ان المدينة تشكيلة اجتماعية – اقتصادية وليست مجرد وحـــدة ادارية ، كان لا بـد لنا من الاقرار بان الأرقام المذكورة اعلاه لا تعطي صورة واضحة عن تطور المدن : فقد منحت الدولة الروسية في تاريخها براءات لمدن أو سحبتها منها لأغراض بعيدة كل البعد عن الهدف العلمي. وبالرغم من ذلك ، فان هذه الأرقام تبين بشكل واضح عدم أهمية المدن في روسيا قبل « عهد الاصلاح»

---

١ – هذه الأرقام مأخوذة من كتاب مليوكوف « دراسات ». وقد ذكر احصاء عام١٨٩٧ ان عدد سكان المدن في روسيا كلها ، أي بما فيها سيبيريا وفنلندا ، يبلغ ١٧،١٢٢،٠٠٠ أي ١٣،٢٥٪ من المجموع . (مندلييف : « نحو معرفـــة روسيا » ، سان بطرسبورغ ، ١٩٠٦ مجلدان ، الجدول على الصفحة ٩٠) (ل. ت.) .

وانتفاضها المرضي السريع خلال العقد الأخير . ويقدَر ميخايلوفسكي ان ازدياد عدد السكان في المدن ما بين عام ١٨٨٥ وعام ١٨٨٧ كان بنسبة ٣٣٫٨٪ ، أي بما يزيد عن ضعف نسبة زيادة عدد سكان روسيا ككل (١٥٫٢٥٪) ، وبما يقارب ثلاثة أضعاف نسبة زيادة عدد سكان الريف (١٢٫٧٪) واذا أضفنا الى هذا كله القرى الصناعية والقرى الصغيرة ، يتجلى النمو السريع لسكان المدن (أي سكان المناطق غير الزراعية) بوضوح تام .

إلا أن مدن روسيا الحديثة لا تختلف عن المدن القديمة بعدد سكانها فحسب ، ولكن في طبيعتها الاجتماعية ايضاً : انها مراكز الحياة التجارية والصناعية . إن غالبية مدننا القديمة كانت بالكاد تلعب دوراً اقتصادياً لانها كانت مراكز ادارية أو قلاعاً عسكرية يعمل سكانها في مختلف وظائف الدولة ويعيشون على حساب بيت المال ، وكانت المدينة بشكل عام مركزاً ادارياً او عسكرياً او مركزاً لجباية الضرائب .

وعندما كان الأهالي من غير الموظفين يستقرون في مشارف المدينة او في ضواحيها لحمايتها من الاعداء ، لم يعقهم ذلك عن الاستمرار باعمالهم الزراعية السابقة . وحتى موسكو ، اكبر مدينة في روسيا القديمة لم تكن ، على حد تعبير مليوكوف ، سوى « عزبة ملكية يرتبط قسم هام من سكانها بالقصر ، بشكل أو بآخر ، إما كأعضاء في الحاشية وإما كحرس او خدم . ويقول احصاء عام ١٧٠١ انه من بين ١٦٠٠٠ عائلة كانت تسكنها ، كان هنالك ٧٠٠٠ عائلة (٤٤٪) من المستوطنين او الحرفيين وحتى هذه العوائل كانت تسكن الضواحي التابعة للدولة وتعمل لحساب القصر . أما الـ ٩٠٠٠ عائلة الأخرى ، فكان ١٥٠٠ عائلة منها من الكهنة والبقية من الطبقة الحاكمة » . وهكذا ، فالمدن الروسية ، شأنها شأن المدن تحت الحكم الآسيوي المطلق ، وعلى عكس المدن الحرفية والتجارية في اوروبا إبان القرون الوسطى ، كانت تلعب دور المستهلك ليس إلا . وفي الفترة ذاتها ، نجحت مدن الغرب في ان تفرض مبدأ عدم السماح للحرفي بالسكن في القرية ، إلا ان مدن روسيا لم تسعَ مطلقاً نحو مثل هذه الأهداف .

أين ، اذن – كانت صناعة المانيفاتورة ؟ واين كانت الحرف ؟ لقد كانت في الريف ملحقة بالزراعة .

ان المستوى الاقتصادي المنخفض ومصاريف الدولة الباهظة كانا عقبة أمام أي تراكم للثروة او تقسيم اجتماعي للعمل . وكان الصيف القصير ، اذا ما قيس بالصيف في الغرب ، يفسح المجال أمام فترة أطول من الراحة الشتوية . بسبب هذه العوامل ، لم تنفصل صناعة المانيفاتورة عن الزراعة ولم تتجمع في المدن ولكنها بقيت في الريف كوظيفة فرعية بالنسبة للزراعة. وعندما بدأت الصناعة الرأسمالية تتسع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لم تكن الحرف في المدن عقبات في طريقها ولكن الحرف القروية الى حد بعيد. ويقول مليوكوف: « مقابل ما لا يزيد عن مليون ونصف المليون من العمال الصناعيين في روسيا ، يوجد ما لا يقل عن أربعة ملايين فلاح يشتغلون بصناعات منزلية في قراهم بينما يواصلون اشغالهم الزراعية في الوقت نفسه . هذه هي الطبقة ذاتها ... التي قامت عليها المصانع الاوروبية ، إلا أنها لم تساهم باي شكل من الاشكال ... في تشييد مصانع روسيا » .

وطبعاً ، أدى تزايد عدد السكان فيما بعد وارتفاع انتاجيتهم الى خلق قاعدة يقوم عليها التقسيم الاجتماعي للعمل . وكان طبيعياً ان يسري ذلك على الحرف في المدن أيضاً. وكنتيجة للضغط الاقتصادي الذي تمارسه البلدان المتقدمة، استولت الصناعة الرأسمالية الكبيرة على هذه القاعدة بحيث لم تجد الحرف في المدن الوقت الكافي لكي تنمو وتتطور .

كانت الملايين الأربعة من الحرفيين الريفيين هي العنصر ذاته الذي شكل في أوروبا نواة سكان المدن الذين دخلوا « التعاونيات الحرفية » كمعلمين او مياومين ثم وجدوا أنفسهم بالتالي يطردون خارج هذه التعاونيات الحرفية شيئاً فشيئاً . وطبقة الحرفيين ذاتها هي الطبقة التي كانت تشكل غالبية سكان أكثر أحياء باريس ثورية إبان الثورة الفرنسية العظمى. ان هذه الحقيقة وحدها – عدم أهمية

الحرف في المدن الروسية – كان لها تأثير هام على ثورتنا[1] .

إن السمة الاقتصادية الرئيسية للمدينة الحديثة هي انها تستعمل المواد الخام التي تأتي من الريف . لذا كانت المواصلات ذات أهمية مصيرية بالنسبة لها . إن انشاء الخط الحديدي فقط هو الذي يوسع مصادر تموين المدن بحيث يجعل من الممكن تجمع جماهير غفيرة من الناس فيها . وقد نتجت الضرورة لتجميع السكان عن نمو الصناعة الكبيرة . إن نواة السكان في المدينة الحديثة ، على الأقل في مدينة لها بعض الأهمية الاقتصادية والسياسية ، هي طبقة العمال المأجورين التي تتميز بوضوح عن سائر الطبقات . ان هذه الطبقة ، التي لم تكن متبلورة خلال الثورة الفرنسية العظمى ، هي الطبقة المؤهلة للعب الدور الحاسم في ثورتنا .

إن النظام الصناعي لا يدفع البروليتاريا إلى الصفوف الأمامية فحسب ، بل يعزل الديمقراطية البرجوازية أيضاً . ففي ثورات سابقة اعتمدت هذه الأخيرة على البرجوازية الصغيرة في المدن من حرفيين وأصحاب حوانيت صغار الى آخره .

إن سبباً آخر للدور السياسي الكبير الذي تلعبه البروليتاريا الروسية مما لا يتناسب مع حجمها ، هو كون رأس المال الروسي ذا أصل أجنبي في معظمه . يقول كاوتسكي ان هذا السبب قد أدى الى زيادة عدد أفراد البروليتاريا والى مضاعفة قوتها وتأثيرها بسرعة تفوق سرعة نمو البرجوازية الليبرالية .

وكما قلنا سابقاً ، فإن الرأسمالية في روسيا لم تنبثق عن نظام الحرف . فقد اجتاحت الرأسمالية روسيا حاملة ثقافة اوروبا الاقتصادية كلها وراءها لا يقف لينافسها غير حرفي القرية الذي لا حول له ولا قوة ، او حرفي المدينة البائس ، وكان الفلاحون المفقرون المستودع الذي يمدها بطاقات العمل . ولقد ساهم الحكم المطلق بطرق شتى بتكبيل البلد بقيود الرأسمالية .

---

١ – في زمن أصبحت فيه المقارنة غير النقدية بين الثورة الروسية وثورة ١٧٨٩ في فرنسا أمراً شائعاً ، أشار « بارفوس » بحكمة ، الى ان هذه الحقيقة في أساس الطابع الخاص الذي اتخذه مصير الثورة الروسية . (ل. ت.) .

ففي الدرجة الأولى ، حول الحكم المطلق الفلاح الروسي الى رافد من روافد البورصات في العالم . إن افتقار البلد لرأس المال وحاجة الحكومة الدائمة إليه خلقا أرضاً خصبة للقروض الأجنبية المرابية . منذ أيام حكم كاترينا الثانية حتى وزارة « ويتي » و « دورنوفو » ، كان اصحاب المصارف في امستردام ولندن وبرلين وباريس يسعون بدأب الى تحويل الحكم الفردي الى مجازفة ضخمة من مجازفات البورصة . فلم يكن بالامكان التمييز بين ما يسمى بالقروض الداخلية ، أي قروض مؤسسات التسليف الوطنية ، وبين القروض الأجنبية لأنها كانت جميعاً بين أيدي الرأسماليين الأجانب . إن الحكم المطلق ، بإفقاره الفلاحين وتحويلهم الى بروليتاريا تحت وطأة الضرائب المرتفعة ، كان يصرف الملايين التي تأتيه من بورصات العالم على انشاء الجيوش والبارجات الحربية وعلى بناء السجون وخطوط السكك الحديدية . فكان القسم الأكبر من هذه المصاريف غير منتج البتة من الناحية الاقتصادية . وكان قسم كبير من الدخول القومي يرسل الى الخارج على شكل فائدة تزيد في ثراء الارستقراطية المالية في أوروبا وتقويها . إلا ان البرجوازية المالية في أوروبا ، التي ازداد نفوذها السياسي بشكل مضطرد في الدول البرلمانية خلال العشر سنوات الأخيرة والتي أبعدت الرأسماليين الصناعيين الى الصفوف الأخيرة ، ان هذه البرجوازية حولت الحكومة القيصرية الى ذيل لها فعلاً ، بيد انها لم تصبح جزءاً من المعارضة البرجوازية داخل روسيا ولا هي حاولت ان تكونه . ففي عطفها او كرهها ، كانت تسير على هدى المبادىء التي صاغها اصحاب المصارف الهولنديون « هوب وشركاه » في شروط القرض الذي قدموه للقيصر بول عام ١٧٩٨ ، إذ قالوا : « تدفع الفائدة **مهما تكن الظروف السياسية** » . كان للبورصة الأوروبية مصلحة مباشرة في الابقاء على الحكم المطلق لأن ما من حكومة أخرى تضمن لها مصالحها المرابية . غير أن قروض الدولة لم تكن الوسيلة الوحيدة التي تسلل من خلالها رأس المال الأوروبي الى روسيا . إن المال ذاته ، الذي كان يستنفد دفعه قسماً هاماً من موازنة الدولة الروسية ، كان يعود الى روسيا على شكل رأس مال تجاري وصناعي تجذبه

ثروة البلد الطبيعية غير المستثمرة وخاصة قوة العمل غير المنظمة والتي لم تكن في ذلك الحين قد اعتادت على المقاومة . لذلك كانت الفترة الأخيرة من البحبوحة الصناعية التي عمت روسيا بين عام ١٨٩٣ وعام ١٨٩٩ أيضاً فترة هجرة مكثفة لرأس المال الأوروبي . وهكذا فإن رأس المال الذي بقي ، مثل ذي قبل ، أوروبياً الى حد بعيد والذي اكتسب قوته السياسية في برلمانات فرنسا وبلجيكا، هو رأس المال الذي كتّل الطبقة العاملة الروسية .

وبعد ان وضع رأس المال الأوروبي هذا البلد المتخلف في قيود العبودية الاقتصادية ، لجأ الى تقسيم فروع انتاجه الرئيسية وطرق مواصلاته على سلسة كاملة من المراحل التقنية والاقتصادية الوسيطة كالتي اضطر إلى المرور فيها في بلاده الأصلية . ولكنه بتضاؤل عدد الحواجز التي واجهها في طريق سيطرته **الاقتصادية** ، تقلص الدور الذي لعبه على الصعيد السياسي .

انبثقت البرجوازية الاوروبية من «الطائفة الدنيا» Third estate في القرون الوسطى . وقد رفعت مستوى الاحتجاج على القرصنة والعنف اللذين تمارسهما الطبقتان الاخريان باسم مصالح الشعب الذي كانت تطمح هي الى استغلاله . اعتمدت انظمة الحكم الملكية– الطبقية في القرون الوسطى، خلال عملية تحويل نفسها الى انظمة برقراطية مطلقة ، على سكان المدن في صراعها ضد ادعاءات الكهنة والنبلاء . ولقد استغلت البرجوازية هذا الصراع لأجل تقوية مركزها السياسي . وهكذا ، فقد نما الحكم البرقراطي المطلق والطبقة الرأسمالية في آن واحد ؛ وعندما تصارعا عام ١٧٨٩ ، برهنت البرجوازية على انها تحظى بتأييد الأمة بأسرها .

اما في روسيا ، فقد نما الحكم المطلق في ظل الضغط المباشر الذي مارسته الدول الغربية . فنقل عنها اساليب حكمها واشكال ادارتها قبل ان تسمح الظروف الاقتصادية بنشوء برجوازية رأسمالية . فكان هذا الحكم المطلق يملك تحت تصرفه جيشاً نظامياً كبيراً وآلة برقراطية ومالية ضخمة . وكان قد استدان مبالغ طائلة من اصحاب المصارف في أوروبا في زمن كانت مدن روسيا

ما تزال على هامش الحياة الاقتصادية .

وقد تسلل رأس المال من الغرب بمساعدة الحكم المطلق المباشرة ، وحول عدداً من المدن القديمة الى مراكز تجارية وصناعية ، الى درجة انه انشأ ، خلال فترة وجيزة من الزمن، مدناً تجارية وصناعية في اماكن لم تكن مأهولة من قبل. وقد ظهر رأس المال هذا في كثير من الاحيان على شكل شركات مساهمة كبيرة. وخلال فترة السنوات العشر من البحبوحة الصناعية بين ١٨٩٣ و ١٩٠٢ ، ازدادت قيمة رأس المال المساهم بمليوني روبل ، بينما كانت قد ازدادت في الفترة بين عام ١٨٥٤ وعام ١٨٩٢ بمبلغ ٩٠٠،٠٠٠ روبل فقط . فوجدت البروليتاريا نفسها فجأة وقد تجمعت في جماهير غفيرة لا تفصلها عن الحكم المطلق سوى طبقة برجوازية رأسمالية قليلة العدد ، معزولة عن « الشعب » نصفها اجنبي ، وتفتقر الى التقاليد التاريخية ، يدفعها محرّك واحد هو شهوة الربح .

٣ - ١٧٨٩-١٨٤٨-١٩٠٥

التاريخ لا يعيد نفسه. ومهما بالغنا في تشبيه الثورة الروسية بالثورة الفرنسية العظمى ، لا يمكن تحويل الثورة الاولى الى مجرد تكرار للثورة الثانية . إن القرن التاسع عشر لم يمرّ بدون سبب .

إن عام ١٨٤٨ يختلف كثيراً عن عام ١٧٨٩. وعند مقارنة الثورتين البروسية والنمساوية بالثورة الفرنسية العظمى ، نتفاجأ بكونهما قد مرّتا مروراً عابراً . فمن جهة حدثت هاتان الثورتان قبل أوانهما ، ومن جهة أخرى حدثتا بعد فوات الأوان. إن ذلك المجهود الجبار الذي يحتاجه المجتمع البرجوازي ليصفي حساباته بشكل جذري مع أسياد الأمس يتوفر **إما بقوة الأمة بأسرها** عندما تنتفض ضد تحكم الاقطاع ، وإما بتبلور **صراع طبقي** عنيف داخل هذه الأمة السائرة في طريق التحرر . ففي الحالة الاولى ، كما حدث بين ١٧٨٩ – ١٧٩٣ ، استنفدت كل الحيوية الوطنية ، التي ضغطتها مقاومة النظام القديم لها ، خلال الصراع ضد الرجعية . اما في الحالة الثانية ، التي لم تحدث بعد في التاريخ والتي نعالجها هنا بوصفها احتمالاً ليس إلا ، فان الحيوية الفعلية المطلوبة لقهر قوى التاريخ المظلمة تولدها داخل الأمة البرجوازية حربٌ طبقية « تزرع الدمار في كلا الجهتين » . ان الصراع الداخلي العنيف ، الذي يمتص القدر الأكبر من حيوية البرجوازية ويحرمها من لعب الدور الرئيسي ، يدفع نقيضها – البروليتاريا – الى المقدمة ويلخص لها تجربة عشرة أعوام بشهر واحد ويوليها القيادة ويسلمها زمام الحكم . هذه الطبقة المصمّمة التي لا تعرف التردد تغير مجرى الأحداث تغييراً كاملاً .

يمكن تحقيق الثورة إمـــا عندما تكون الامة قـــد جمعت نفسها متحفزة للانقضاض كالأسد ، وإما عندما تنقسم الامة على بعضها انقسامـــاً نهائياً خلال الصراع ، مخولة بذلك أفضل فئة فيها لتنفيذ المهام التي فشلت الأمــة ككل في تنفيذها. هاتان هما المجموعتان المتعارضتان من الشروط التاريخية اللتان تتعارضان منطقياً فقط بشكلها النقي .

والطريق الوسط بينهما ، كما في حالات عديــدة ، هو أسوأ الطرق ؛ ولكن هذا الطريق الوسط هو الذي ظهر عام ١٨٤٨ .

في الحقبة البطولية من التاريخ الفرنسي، نجد طبقة برجوازية متنورة ونشيطة لم تــع بعد تناقضات وضعها القى التاريخ على عاتقها بمهمة قيادة النضال من أجل تحقيق نظام جديد ليس ضد مؤسسات فرنسا البالية فحسب ولكن ضد القوى الرجعية في أوروبا ايضاً . وكانت البرجوازية دائمــاً ، وبجميع فصائلها ، تعتبر نفسها قائدة الامة فكانت تعبيء الجماهير للنضال وتطرح لها الشعارات وتملي عليها خطط الصراع التكتيكية . فصهرت الديمقراطية الأمــة بعضها ببعض بواسطة إيديولوجية سياسية . وكان الشعب – البرجوازية الصغيرة في المدن ، الفلاحون والعمال – ينتخب البرجوازيين نواباً عنه، وكانت التوصيات التي يقدمها الناخبون الى هؤلاء النواب مكتوبــة بلغة البرجوازية التي أخذت تعي مهمتها الرسلية . وخلال الثورة، وبالرغم من بروز التناقضات الطبقية، كانت القوة الدافعة للنضال الثوري تقذف باستمرار بالعناصر الأكثر محافظة من البرجوازيــة خارج الطريق السياسي . ولم تقذف فئة خارجاً إلا بعد أن تكون قد حوّلت طاقتها الى الفئة التي خلفتها . فاستمرت الامة ككل، إذن، في النضال من أجل أهدافها باساليب أعنف واكثر تصميماً . وعندما انفصلت الفئات العليا من البرجوازية الثرية من المجموعة القومية التي كانت آخذة بالتحرك ، وتحالفت مع لويس السادس عشر ، أصبحت مطالب الأمة الديمقراطية موجهة ضد البرجوازية الأمر الذي أدّى الى اكتساب حق الانتخاب للجميع وقيام الجمهورية بوصفها الشكل المنطقي والحتمي للديمقراطية .

كانت الثورة الفرنسية العظمى بالتأكيد ثورة قومية. وما هو أكثر من ذلك، وجد نضال البرجوازية الدولي من اجل السيطرة والقوة والانفراد بالنصر التعبير التقليدي عنه ضمن الاطار القومي .

لقد غدت **اليعقوبية** كلمة لوم على شفاه جميع المتحذلقين الليبراليين . إن حقد البرجوازية على الثورة والجماهير وعلى قوة وعظمة التاريخ الذي يصنع في الشارع قد تجمع كله في صرخة استنكار وهلع واحدة : **اليعقوبية** ! نحن ، جيش البروليتاريا العالمي ، قمنا بعملية تصفية حسابات تاريخية مع اليعقوبية منذ زمن طويل . ان كل الحركة البروليتارية العالمية المعاصرة قد تكونت وقويت من خلال النضال ضد تقاليد اليعقوبية . لقد تعرضنا لنظرياتها بالنقد ، وفضحنا ضيق حدودها التاريخية وتناقضاتها الاجتماعية وطوباويتها وكذلك فضحنا لفظيتها ورفضنا تقاليدها التي كانت تعتبر ، خلال عقود من الزمن ، إرثاً ثورياً مقدساً .

الا اننا ندافع عن اليعقوبية ضد الليبرالية المريضة المتقاعسة وضد تجريحها وشتائمها السافلة. لقد خانت البرجوازية بشكل مخزٍ جميع تقاليد شبابها التاريخي ويقوم عملاؤها الحاليون بتلويث قبور اسلافها . يهزأون من رماد المثل التي دافع هؤلاء عنها. ان البروليتاريا قد أخذت على عاتقها ان تحمي شرف ماضي البرجوازية الثوري . إن البروليتاريا ، مهما بلغ عمق انفصالها العملي عن تقاليد البرجوازية الثورية ، سوف تحافظ عليها كإرث مقدس من العواطف النبيلة والبطولة والإقدام وقلبها يخفق بعطف على خطب واعمال « المؤتمر اليعقوبي » .

ما هو الذي اضفى على الليبرالية جاذبيتها إن لم يكن تقاليد الثورة الفرنسية العظمى ؟ وفي أي فترة أخرى ارتفعت الديمقراطية البرجوازية الى ذلك الشأن واضرمت شعلة بهذا الاتقاد في قلوب الشعب كما فعلت خلال مرحلة الديمقراطية اليعقوبية الارهابية بقيادة روبسبيير و « المعدمين »[1] (Les sans culottes)

---

١ ـ المعدمون هم الفئات شبه البروليتارية من اصحاب دكاكين وحرفيين دعامة الحقبة اليعقوبية من الثورة الفرنسية . (المترجم) .

عام ١٧٩٣ ؟

من غير اليعقوبية مكـّن الرديكالية الفرنسية وما زال يمكنها ، على مختلف اتجاهاتها ، من ان تبقي على غالبية الشعب الساحقة ، بما فيه البروليتاريا ، تحت نفوذها في زمن ختمت فيه البرجوازية الراديكالية في المانيا والنمسا تاريخهـــا القصير بالاعمال الوضيعة والعار ؟

وأي شيء غـــير سحر اليعقوبية ، بايديولوجيتها السياسية المجردة وبطقس « الجمهورية المقدسة » وببياناتها المظفرة ، ما يزال الى يومنا هذا تغذي الراديكاليين والراديكاليين ـ الاشتراكيين في فرنسا امثال كليمنصو وميلران وبورجوا وغيرهم من السياسيين الذين يعرفون كيف يدافعون عن مرتكزات المجتمع البرجوازي بطريقة ليس باسوأ من الطريقة التي كان يتبعها « اليونكر » خـــلال عهد وليام الثاني الحاكم بنعمة الله؟إن الديمقراطيين البرجوازيين في البلدان الأخرى ينظرون اليهم بعين الحسد ولكنهم مع ذلـك ينهمرون بالشتائم على اليعقوبية البطلة التي كانت مصدر مركزهم هذا .

حتى بعد ان تحطمت الآمال العديدة ظلت اليعقوبية تقليداً في ذاكرة الشعب. ولمدة طويلة ظلت البروليتاريا تتكلم عن مستقبلها بلغة الأمس . ففي عام ١٨٤٠ أي بعد نيف ونصف قرن على قيام حكومة « الجبل » ، وقبل ايام حزيران ١٨٤٨ بثمانية أعوام زار « هاين »[1] عدة معامـل في « فوبورسان – مارسو » ليطلع على ماذا يقرأه العمال « اسلم قطاع من قطاعات الطبقات الدنيا » . فكتب في جريدة المانية يقول : « وجدت هناك عدة خطب جديدة لروبسبيير العجوز وكذلك منشورات لمارا صادرة في طبعات تباع النسخة منها بقرشين، ووجدت كتاب كابيه ، تاريـــخ الثورة وبعض اهاجي كارمينين القاتلة وجميع مؤلفـات بيوناروتي وأخيراً كتاب تعاليم بابوف ومؤامراته، كلها مؤلفات ترشح بالدم ... »

---

١ – هنريك هاين (١٧٩٧ – ١٨٥٦) شاعر وناقد الماني مشهور عـــرف بنضاله ضد الاضطهاد والحكم المطلق، الامر الذي اضطره الى ترك المانيا والاستقرار في باريس عام ١٨٣١. (المترجم) .

ويتنبأ الشاعر : « بأن احدى ثمار هذه البذرة سيكون عاجلاً أم آجـلاً خطر قيام جمهورية في فرنسا » .

في عام ١٨٤٨ كانت البرجوازية قد اثبتت عن عجزها عـن لعب دور ذي قيمة . فهي لم تحاول ولم تتمكن من تصفية النظام الاجتماعي الذي يعترض طريقها الى الحكم تصفية ثورية . اننا نعرف الآن لماذا كان الأمر كذلك . كان هدفهـا ان تدخل الى النظام القديم الضمانات الضرورية ليس لتحقيق سيطرتها السياسية وانما لمجرد ان تتقاسم السلطة مع قوى الامس . وكانت تعي هـذا الهدف الوعي التام . فكانت تلك مسلكية حقيرة تخللت تجربة البرجوازية الفرنسية الفاسدة بسبب خياناتها والخائفة بسبب فشلها . فهي لم تفشل في قيـادة الجماهير لتقويض النظام القديم فحسب ، ولكنها دعمت أيضاً هـذا النظام لكي تمنع الجماهـير الملحاحة من التقدم .

لقد نجحت البرجوارية الفرنسية في ان تفجر ثورتها العظيمة . فكان وعيهـا هو وعي المجتمع ، ولم يكن بالامكان لأي شيء ان يتحول الى مؤسسة إلا بعد ان يمرّ في وعيها على شكل هدف ، على شكل مشكلة خلق سياسي . وغالباً ما لجـأت الى الوقفات المسرحية لكي تخفي عن نفسها ضيق حدود عالمهـا البرجوازي ، ولكنها كانت تسير الى الأمام .

وعلى العكس من ذلك ، فالبرجوازية الالمانية لم تصنع « الثورة » بادىء بدء بل تبرأت منها. لقد تمرّد وعيها على الظروف الموضوعية التي تؤهل لها السيطرة. فلم يكن بالامكان تحقيق الثورة بواسطتها وإنما ضدها . فعوضاً عن ان تبـدو المؤسسات الديمقراطية لها هدفاً تناضل من أجله بدت خطراً يهدد مصالحها .

في عام ١٨٤٨ ، ظهرت الحاجة الى طبقـة تستطيع ان تتولى الأمور بمعزل عن البرجوازية وبالرغم عنهـا ، طبقة لا تكون مستعدة لدفع البرجوازية الى الأمام بواسطة ضغطها فحسب ولكنها ترمي الى التخلص من جثـة البرجوازية السياسية عندما يحين الأوان . ولم يكن بإمكان البرجوازية الصغيرة في المـدن ولا الفلاحون أن يحققوا ذلك .

فقد كانت **البرجوازية الصغيرة في المدن** معادية ليس فقط للأمس ، ولكن للغد كذلك . لكونها ما زالت مرتبطة بالعلاقات المتبقية من القرون الوسطى ولكنها عاجزة عن الصمود في وجه « الصناعة الحرة » ، ولكونها ما تزال تؤثر على المدن ولكنها تخلي الطريق أمام البرجوازية المتوسطة والكبيرة ، ولكونها مفرقة في حساسياتها يصم آذانها ضجيج الأحداث ، ولكونها مستغَلة ومستغِلة ، جشعة ومستسلمة في جشعها ظلت البرجوازية الصغيرة في ورطتها . فلم تتمكن من السيطرة على أحداث الساعة العاصفة .

أمـــا **الفلاحون** فقد كانوا أكثر حرمانـــاً من المبادرة السياسية المستقلة . ولكونهم مستعبدين خلال قرون من الزمن ومدقعي الفقر وغاضبين يحمون جميع خيوط الاستغلال قديمه وحديثــه كان الفلاحون في فترة معينة مصدراً غنياً من مصادر الطاقة الثورية،ولكن لكونهم بدون تنظيم ولكونهم مبعثرين ومعزولين عن المدن ، عصب الحياة السياسية والثقافية ، ولكونهم أغبيــاء ومحصورين في آفاقهم ضمن حدود قراهم ، وغير مبالين بكل مــا تفكر به المدينة ، لم يكن باستطاعة الفلاحين ان يكون لهم أية قيمة كقوة قائدة . فاستكان الفلاحون في اللحظة التي رفع فيها عبء الفرائض الإقطاعية عن اكتافهم ، وردوا على فضل المدن عليهم بنضالها من أجل حقوقهم بنكران الجميل .

كان **المثقفون الديمقراطيون** يفتقرون الى القوة الطبقية . فحيناً تتبع هــذه الفئة شقيقتها الكبرى – البرجوازية الليبرالية – فتغدو ذيلاً سياسياً لها وطوراً تتخلى عن البرجوازية الليبرالية في اللحظة الحاسمة فتكشف عــن ضعفها . لقد أورطت نفسها في تناقضات لا تحلّ وحملت هذه الورطة معها أينما ذهبت .

أما **البروليتاريا** فقد كانت جد ضعيفة تفتقر الى التنظيم والخبرة والمعرفة . كانت الرأسمالية قد تطورت الى درجة تحتم إلغاء العلاقات الاقطاعية القديمــة ، ولكنها لم تكن قـــد تطورت التطور الكافي الذي يسمح بدفع الطبقة العاملة ، ثمرة العلاقات الصناعية الجديدة ، الى المقدمة كقوة سياسية حاسمة. كان التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية ، حتى ضمن الإطار الوطني الالماني ، قـد عمق الى

مدى لم يعد يسمح فيـــه للبرجوازية من أن تقدم بدون خوف على لعب دور الهيمنة على الوطن ، ولكن هذا التناقض لم يكن من العمق الكافي بحيث يسمح للطبقة العاملة من أن تلعب هذا الدور . الحقيقة ان الاحتكاك الداخلي في الثورة مهّد للبروليتاريا ان تحرز استقلالها السياسي ، ولكنه في ذلك الحين حطّ من العزيمة وأضعف وحـدة العمل وادى الى بذل جهد لا مبرر له وأجبر الثورة على البقاء في مكانها بملل بعد انتصاراتها الاولى ، وعلى التقهقر تحت ضربات الرجعية .

إن النمسا مثال واضح وفاجع بشكل خاص لهـــذا الطابع غير الكامل او المنتهي من العلاقات الاجتماعية في مرحلة الثورة .

لقد برهنت **البروليتاريا في فيينا** عام ١٨٤٨ على بطولة نادرة وعلى حيويـة لا تنضب . كانت تقتحم المعركة مرة بعـد مرة ، يدفعها الى الأمام حسّ طبقي مبهم مفتقرة الى مفهوم شامل لأهداف النضال فأخذت تتخبط بين شعار وآخر. ومن المدهش حقاً ان قيادة البروليتاريا انتقلت الى أيدي **الطلاب** ، **المجموعـــة الديمقراطية** الفعالة الوحيدة التي استطاعت ان يكون لها ، نتيجة عملها ، نفوذ كبير في أوساط الجماهير وان تؤثر بالتالي على الاحداث . لا شك في ان الطلاب كانوا يقاتلون ببسالة وراء المتاريس ويتآخون بشكل مشرّف مع العمال ، غـير انهم كانوا عاجزين تماماً عن توجيه مسيرة الثورة التي سلمتهم إياها « دكتاتورية » الشارع .

ان البروليتاريا غير المنظمة والتي لا تملك الخبرة السياسية ولا القيادة المستقلة سارت وراء الطـــلاب . ولم يتخلف العمال في كل لحظة حاسمة عن ان يقدموا « للسادة الذين يعملون برؤوسهم » معونة « الذين يعملون بأيديهم » . فحيناً كان الطلاب يدعون العمال للقتـال وطوراً يسدون بوجههم الطريق من الضواحي الى المدينة. وفي بعض الأحيان ، كان الطلاب يستغلون سلطتهم السياسية ويعتمدون على أسلحة « الفرقـة الجامعية » لكي يمنعوا العمال من تقديم مطالبهم المستقلة . كان هـــذا شكلاً تقليدياً واضحاً من اشكال الدكتاتوريـــة الثورية الخيرة على

البروليتاريا . الى ماذا افضت هذه العلاقات الاجتماعية ؟ في ٢٦ أيار عندما هبّ جميع عمال فيينا مستجيبين لنداء الطلاب لمقاومة نزع السلاح من الطلاب (الفرقة الجامعية) ، وعندما ملأ سكان العاصمة مدينتهم بالمتاريس وبرزوا كقوة نادرة المثيل وسيطروا على فيينا ، وعندما كانت النمسا كلها تلتحق بفيينا المسلحة ، وعندما كانت الملكية على وشك الهرب وقد فقدت كل اهميتها ، وعندما سحبت آخر الوحدات العسكرية من العاصمة تحت ضغط الشعب ، وعندما استقالت حكومة النمسا دون ان تعين خليفة لها ، لم يكن هنالك قوة سياسية لتمسك بدفة الحكم . لماذا حصل ذلك ؟

لقد رفضت البرجوازية الليبرالية عن قصد استلام حكم جرى الاستيلاء عليه بشكل لصوصي ، كانت تحلم فقط بعودة الامبراطور الذي فرّ الى منطقة « التيرول » .

وكان العمال على جانب من الشجاعة بحيث قهروا الرجعية غير انهم لم يكونوا على جانب من التنظيم والوعي الكافيين ليحتلوا مكانها . كانت هنالك حركة عمالية قوية ولكن الصراع الطبقي البروليتاري ذا الهدف السياسي المحدد لم يكن قد تبلور بعد . فلم تكن البروليتاريا قادرة على استلام زمام الحكم ففشلت في الاضطلاع بهذه المهمة التاريخية الضخمة وانسحب الديمقراطيون البرجوازيون بهدوء في أكثر اللحظات حرجاً كما يفعلون في العديد من الأحيان .

ولكي تجر البروليتاريا هؤلاء الهاربين على القيام بواجباتهم كان يتطلب منها مستوى من الحيوية والنضج لا يقلّ عن المستوى الضروري لتكوين حكومة عمالية مؤقتة .

وبشكل عام ، نشأ وضع وصفه كاتب معاصر بهذا الوصف الصحيح : « لقد أعلنت الجمهورية في فيينا ولكن لم يشاهدها أحد مع الأسف » . وهذه الجمهورية التي لم يلاحظها أحد غابت لمدة طويلة عن المسرح مخلية الساحة أمام سلالة غايسبرغ ... ما فات قد فات .

إن لاسال[1] قد خلص بعد دراسته لتجربة الثورتين المجرية والالمانية الى أنه لا يمكن للثورات من الآن فصاعداً ان تجد دعماً لها إلا في صراع البروليتاريا الطبقي . فكتب في رسالة الى ماركس في ٢٤ تشرين الثاني عام ١٨٤٩ ما يلي :

« كان للمجر الحظ الأوفر من أي بلد آخر لأن تنجح في نضالها . ويعود ذلك،من بين أسباب اخرى الى أن الحزب فيها لا يعاني من الانقسام والتناقضات الحادة التي يعاني منها في اوروبا الغربية ، ولأن الثورة قد اتخذت طابع النضال من أجل الاستقلال الوطني الى حد ما . وبالرغم من ذلك انهزمت المجر نتيجة خيانة الحزب **الوطني** بشكل خاص .

« اذا اضفنا الى ذلك تاريخ المانيا خلال فترة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ نصل الى الاستنتاج انه لا يمكن للثورة أن تنجح في اوروبا إلا اذا أعلنت منذ البداية عن طبيعتها الاشتراكية الصرفة . ولا يمكن لأي نضال أن ينجح اذا ما دخلت فيه القضايا فقط على شكل عنصر مبهم من عناصره وبقيت في المؤخرة ، واذا كان النضال يخاض تحت لواء الانبعاث القومي او الجمهورية البرجوازية » .

لن نتوقف لنقد هذه الاستنتاجات الواثقة من نفسها جداً . ولكن مما لا شك فيه هو انه حتى في منتصف القرن التاسع عشر لم يكن بالامكان حلّ مشكلة التحرر السياسي بواسطة خطط تكتيكية شاملة ومنسجمة تمارس بها الأمة كلها الضغط . إن خطط البروليتاريا التكتيكية المستقلة التي تشحذ قوتها للنضال انطلاقاً من موقعها الطبقي ، ومن هذا الموقع فحسب ، هي وحدها الكفيلة بتحقيق انتصار الثورة .

إن الطبقة العاملة الروسية عام١٩٠٦ لا تشابه بشيء عمال فيينا عام ١٨٤٨. واحسن دليل على ذلك هو قيام مجالس مندوبي العمّال (السوفييت) على صعيد روسيا كلها. لم تكن هذه المجالس منظمات للتآمر جرى تكوينها في وقت سابق

---

١ — فردينان لاسال (١٨٢٥ — ١٨٦٤) اشتراكي الماني ومؤسس « الاتحاد العام للعمال الالمان » ، ثم ما لبث ان اتخذ مواقف انتهازية فانتقده ماركس وانغلز حق شكل جناحاً بقيادة في الحركة العمالية الالمانية . (المترجم)

لغاية استيلاء العمال على السلطة عند اندلاع التمرّد . كلا ، كانت هـذه منظمات خلقتهـا الجماهير نفسها بواسطة التخطيط لغـاية تنسيق نضالهـا الثوري . فكانت مجالس السوفييت التي تنتخبها الجماهير والمسؤولة امام الجماهير هي بدون شك مؤسسات ديمقراطية تنفذ سياسة طبقية جد مصممة فيها روح الاشتراكية الثورية .

إن مميّزات الثورة الروسية تصبح واضحة كل الوضوح عنـد معالجة قضية تسليح الأمة. كانت الميليشيا – « الحرس الوطني » – المطلب والمكسب الأولين لثورات ١٧٨٩ و ١٨٤٨ في باريس وجميع ثورات دول ايطاليا ، وفيينا وبرلين. ففي عام ١٨٤٨ ، كان مطلب إنشاء «الحرس الوطني» أي عملية تسليح الطبقات المالكة و « المثقفة » هو مطلب المعارضة البرجوازية باسرها، حتى أكثر الفئات اعتدالاً منها ، ولم تكن غايته المحافظة عـلى الحريات المكتسبة أو بالاحرى الحريات « الموهوبة » ضد تقلبات من فوق فحسب ، ولكن لحمايـة الملكيـة البرجوازية الفردية من هجمات البروليتاريا . يقول المؤرخ الليبرالي الانكليزي الذي أرّخ توحيد ايطاليا : « كان الايطاليون يعلمون عـلم اليقين ان الميليشيا الحديثة المسلحة سوف تساهم في تقويض الحكم المطلق . وهي بالاضافة الى ذلك ضمانة للطبقات الحاكمة ضد أي فوضى ممكنة أو أي اضطراب قـد يأتي من تحت [1] » . ان الرجعية الحاكمة التي لا تملك العدد الكافي من الجنود في ساحـة العمليات للقضاء على الفوضى ، أي على الجماهير الثورية ، قد وزعت السلاح على البرجوازية . لقد اتاح الحكم المطلق للبرجوازية فرصة قمع العمال وتجريـدهم من السلاح ثم جردت البرجوازية من سلاحها واسكتتها .

في روسيا لم تلق المطالبة بانشاء الميليشيا أي استجابـة عنـد الاحزاب البرجوازية . فقد كان الليبراليون يقدرون المدلول الخطير للاسلحة ، كانوا قـد تعلموا بعض الدروس عن هذا الموضوع على ايدي الحكم المطلق . ولكنهم كانوا

---

١ – بولتون كنغ : « تاريخ الوحدة الايطالية» – موسكو ١٩٠١ – المجلد ١ ص ٢٢٠ (ل . ت .) .

يفهمون أيضاً استحالة انشاء ميليشيا في روسيا بمعزل عن البروليتاريا أو ضدها. إن عمال روسيا ليسوا مثل عمال عام ١٨٤٨ الذين كانوا يملأون جيوبهم بالحجارة ويتسلحون بالمعاول بينما اصحاب الدكاكين والطلاب والمحامون يتنكبون البنادق الملكية ويحملون السيوف .

إن تسليح الثورة في روسيا يعني تسليح العمال بشكل خاص . والليبراليون الذين يعلمون هذا علم اليقين ويخافونه يتحاشون الخوض في موضوع انشاءالميليشيا من اساسه . فيتخلون عن مواقعهم في وجه الحكم المطلق بدون قتال مثلما سلّم « تيير » (Thiers)البرجوازي باريس وفرنسا الى بسمارك لمجرد انه يريد ان يتحاشى تسليح العمال .

في ذلك البيان الذي اصدره التحالف الليبرالي – الديمقراطي على شكل مجموعة من الدراسات بعنوان « الدولة الدستورية » يقول السيد دجيفيليفوف في معرض مناقشته لاحتمال قيام الثورات ، وهو محق فيما يقول : « على المجتمع ذاته ان يكون على اهبة الاستعداد للدفاع عن دستوره عندما يحين الوقت لذلك » . وبما ان النتيجة المنطقية لهذا القول هي المطالبة بتسليح الشعب ، يجد هذا الفيلسوف الليبرالي انه « من الضروري » ان يضيف « ان ليس من الضروري ان يحمل كل فرد من افراد الشعب السلاح »[1] لمنع الامتداد.منالضروري ان يكون المجتمع على أهبة الاستعداد للمقاومة ليس الا.اذا كان لا بد من استخلاص نتيجة من هذا الكلام فهيان الخوفالذييعتصر قلوب الديمقراطيينعندنا من البروليتاريا المسلحة هو اعظم من خوفهم من جنود الحكم المطلق .

لهذا السبب ، تقع مهمة تسليح الثورة على عاتق البروليتاريا وحدها . إن مطلب الميليشيا المدنية الذي قدمته البرجوازية في عام ١٨٤٨ لا يقابله في روسيا مطلب تسليح الشعب عامة والبروليتاريا خاصة . إن مصير الثورة يتوقف على هذه القضية .

---

١ – « الدولة الدستورية » – مجموعة دراسات – الطبعة الأولى – ص ٤٩ (ل . ت .).

٤ - الـثورة وَالبروليـتاريَا

إن الثورة امتحان صريح للقوة بين الفئات الاجتماعية خلال صراع من أجل استلام الحكم . ليست الدولة غايــة بحد ذاتها . إنهــا مجرد آلة لخدمة القوى الاجتماعية المسيطرة . وكغيرهــا من الآلات ، تحتوي على محرك وعلى جهــاز لاصدار الأوامر وعلى آخــر لتنفيذها . القوة التي تسيّر الدولة هي المصلحة الطبقية ، وجهاز المحرك فيها هو الدعــاية والصحافة والتعليم المدرسي والكنسي والأحزاب والاجتماعات العامة والعرائض والانتفاضات . أما الجهاز الذي يصدر الأوامر فهــو المؤسسة التشريعية التي تتولى تنظيم مصالح السلالات والطوائف والطبقات وتصورها على انها تعبيرعن إرادة الله (كما في الحكم المطلق) او عــن إرادة الأمة (كما في النظام البرلماني) . أما الجهاز التنفيذي فهو الادارة بشرطتها ومحاكمها وسجونها وجيشها .

ليست الدولة غايــة بحد ذاتها ، وانما هي وسيلة جبــارة لتنظيم العلاقات الاجتماعية او لتفتيتها او لإعادة تنظيمها وفق أسس جديــدة . وبإمكانها ان تكون محركاً أساسياً للثورة او ان تكون أداة للاستكانة المنظمــة ، حسب الأيدي التي تسيطر عليها .

إن كل حزب سياسي ، جدير باسمه، يسعى الى الاستيلاء على السلطة مسخراً الدولة لخدمــة الطبقة التي يمثل مصالحها . وطبعاً ، يسعى الاشتراكيون – الديمقراطيون بوصفهم حزب البروليتاريا ، الى تحقيق سيطرة الطبقــة العاملة السياسية .

إن البروليتاريا تنمو وتتضاعف قوتها بنمو الرأسمالية . بهذا المعنى يكون تطور الرأسمالية هو تطور البروليتاريا في اتجاه تحقيق دكتاتوريتها . على ان توقيت انتقال الحكم الى أيدى الطبقة العاملة لا يعتمد بشكل مباشر على المستوى الذي بلغته قوى الانتاج ، وإنما على العلاقات في الصراع الطبقي وعلى الوضع العالمي وأخيراً على عدد من العوامل الذاتية كتقاليد الطبقة العاملة ومبادرتها واستعدادها للنضال .

من المحتمل ان يصل العمال الى الحكم في بلد متخلف اقتصادياً قبل وصولهم إليه في بلد متقدم. ففي عام ١٨٧١ استولى العمال عن قصد على باريس البرجوازية الصغيرة لمدة شهرين فقط ، بينما العمال في المراكز الرأسمالية الكبيرة في بريطانيا والولايات المتحدة لم يستلموا الحكم ولو لساعة واحدة . إن التصور ان قيام دكتاتورية البروليتاريا يعتمد بطريقة ما على تطور البلد التقني وعلى موارده إنما هو زعم من مزاعم المادية « الاقتصادية » التافهة . إن وجهة النظر هذه لا تمت للماركسية بأي صلة .

إن الثورة الروسية سوف تخلق ، برأينا ، الظروف التي تمهد لانتقال السلطة الى العمال ، وفي حال انتصار الثورة عليها ان تمهد لهذا الانتقال ، قبل ان يتسنى للسياسيين البرجوازيين الليبراليين ان يعرضوا كل براعتهم في تسيير الحكم .

في معرض تلخيصه لتجربة الثورة والثورة المضادة عام ١٨٤٨ و ١٨٤٩ في جريدة « التريبيون » الأميركية ، كتب ماركس : « ان الطبقة العاملة الالمانية ما تزال متخلفة في تطورها الاجتماعي والسياسي عن الطبقة العاملة في انكلترا وفرنسا بقدر تخلف البرجوازية الالمانية عن برجوازية هذين البلدين . مثلما يكون السيد كذلك يكون الانسان . إن تطور ظروف وجود طبقة بروليتارية واسعة العدد وقوية وكثيفة وذكية يسير بخطٍ موازٍ مع تطور ظروف وجود طبقة وسطى غنية وواسعة العدد وكثيفة وقوية . ولا يمكن لحركة الطبقة العاملة ان تكون مستقلة ، ولا يمكنها ان تصبح ذات طبيعة بروليتارية صرفة إلا بعد أن تستولي على السلطة السياسية مختلف فصائل الطبقة الوسطى وبخاصة الفصيلة

الأكثر تقدمية منها : الصناعيون الكبار ، فتعيد تكوين الدولة وفق حاجاتها . اذاك ، لا بد من أن يبرز الصراع الحتمي بين رب العمل والعامل ولا يمكن تأجيله الى حين آخر » .

ربما كان هذا المقطع مألوفاً لدى القراء ، فلقد عمد « الماركسيون الحرفيون » إلى تشويهه الى حد كبير في الأزمنة الحديثة . لقد جرى إبرازه كحجة راسخة ضد فكرة قيام حكم عمالي في روسيا . « مثلما يكون السيد ، كذلك يكون الانسان » . فيقولون: اذا لم تكن الرأسمالية البرجوازية من القوة بحيث تستولي على الحكم إذن يتضاءل امكان قيام ديمقراطية عمالية اي تحقيق سيطرة البروليتاريا السياسية .

إن الماركسية اسلوب في التحليل قبل ان تكون اي شيء آخر . على انها ليست اسلوباً لتحليل النصوص ولكن لتحليل العلاقات الاجتماعية . هل يصح القول إن ضعف الرأسمالية الليبرالية في روسيا يرافقه ضعف في الحركة العمالية ؟ هل يصح القول انه لا يمكن ان تنشأ حركة عمالية مستقلة في روسيا إلا بعد ان تستلم البرجوازية الحكم ؟ يكفي أن نطرح الاسئلة بهذا الشكل لكي نتبين أية شكلية بائسة تختفي وراء محاولة تحويل قاعدة نسبية تاريخياً لماركس الى قاعدة فوق التاريخ .

خلال مرحلة الازدهار الصناعي في روسيا ، اكتسى تطور الصناعات فيها طابعاً « أميركياً » ، غير ان الصناعة الرأسمالية الروسية في ابعادها الحقيقية ليست سوى طفلة اذا ما قورنت بالصناعة في الولايات المتحدة . ففي روسيا ٥ ملايين شخص أي ١٦٫٦٪ من مجموع عدد السكان الفاعلين اقتصادياً ، يعملون في الصناعة ؛ أما بالنسبة للولايات المتحدة فان الرقم المقابل هو ٦ ملايين شخص و ٢٢٫٢٪ . هذه الارقام لا تفيدنا بشيء ، غير ان اهميتها البالغة تتجلى عندما نتذكر ان عدد سكان روسيا يقارب ضعف عدد سكان الولايات المتحدة. ولكي نقدر الابعاد الفعلية للصناعتين الروسية والاميركية التقدير الكامل ، يجب ان نلاحظ ان المصانع والمشاغل الكبيرة في الولايات المتحدة انتجت عام ١٩٠٠

بضائع برسم البيع تبلغ قيمتها ٢٥ مليار روبل ، بينما انتجت المصانع الروسية في العام ذاته بضائع لا تزيد قيمتها عن ٢و٥ مليار روبل[١] .

لا شك في أن عدد البروليتاريا الصناعية و كثافتها وثقافتها ووزنها السياسي كلها تعتمد على مدى تطور الصناعة الرأسمالية . الا انها لا تعتمد على هذا التطور اعتماداً مباشراً. بين قوى الانتاج في بلد معين وبين قوة طبقاته السياسية تتدخل في كل لحظة من اللحظات ، عوامل اجتماعيــة وسياسية مختلفة ذات طابع وطني ودولي ؛ وقد تغيِّر هذه العوامل التعبير السياسي عن العلاقات الاقتصاديــة الى حد انها قد تغيره تغييراً تاماً . فبالرغم من كون قوى الانتاج في الولايات المتحدة أضخم بعشرة مرات من قوى الانتـــاج في روسيا ، إلا أن الدور الذي تلعبــه البروليتاريا الروسية وتأثيرها على سياسة بلدها وإمكان تأثيرهــا على السياسة في العالم في المستقبل لهو بدون شك أعظم ممــا تستطيع ان تقوم به البروليتاريا في الولايات المتحدة .

يشير كاوتسكي ، في كتابه الأخير عن البروليتاريا الاميركية ، الى عــدم وجود علاقة مباشرة بين قوة البروليتاريا والبرجوازية السياسية من جهة ، وبين مستوى التطور الرأسمالي من جهة أخرى . فيقول :

« ثمة حالتان تتباينان تبايناً تاماً فيا بينهما. ففي احداهما يتطور احد عناصر الحالة الاخرى بشكل شاذ ، أي بما لا يتناسب مع مستوى تطور طريقة الانتاج الرأسمالية ؛ وفي الأخرى ينمو عنصر آخر من هذه العناصر . ففي الدولة الاولى – أميركا – نمت الطبقة الرأسمالية ، بينما في روسيا نمت البروليتاريا . ولا يوجد بلد آخر تتجلى فيه دكتاتورية رأس المال مثلما تتجلى في أميركا . بينما لم تبلـــغ البروليتاريا مستوى من النضاليــة في أي بلد آخر مثلما وصلت اليه في روسيا . ومما لا شك فيه أن هذا المستوى سيرتفع لأن هذا البلد بدأ يشترك في الصراع الطبقي الحديث منذ مدة ليست ببعيدة،ففتح في داخله مجالات فسيحة لاستمرار هذا الصراع » .

---

١ – د. منديلاييف : « نحو معرفة روسيا » – ١٩٠٦ – ص ٩٩ (ل. ت.) .

ويشير الى ان المانيا ستتعلم عن مستقبلها ، الى حد ما ، على يد روسيا فيقول :

« إنه لمن دواعي العجب ان تكون البروليتاريا الروسية هي التي سترينا مستقبلنا ، الى مدى ما يعبر هذا المستقبل عن نفسه في احتجاج الطبقة العاملة وليس في مدى تطور رأس المال . ان كون روسيا هي الأكثر تخلفاً بين البلدان الكبيرة في العالم الرأسمالي يبدو وكأنه يناقض المفهوم المادي للتاريخ الذي يعتبر ان التطور الاقتصادي هو أساس التطور السياسي » .

ويستطرد كاوتسكي قائلاً :

« والحقيقة تقال ان هذا يناقض المفهوم المادي للتاريخ كما يصوره خصومنا ونقادنا الذين لا يعتبرونه **أداة تحليل** وإنما مجرد « كليشيه » معدة سلفاً »[1].

إننا نوصي الماركسيين الروس قراءة هذه الأسطر بشكل خاص لأنهم يستبدلون التحليل المستقل للعلاقات الاجتماعية بما يستنبطونه من نصوص يجري انتقاؤها لخدمة أي وضع . وما من احد يسيء الى الماركسية بقدر ما يسيء إليها هؤلاء « الماركسيون – على – طريقتهم – الخاصة » .

وهكذا يعتبر كاوتسكي أن روسيا على مستوى منخفض اقتصادياً من التطور الرأسمالي ، ولكنها على الصعيد السياسي تحوي برجوازية رأسمالية قليلة الاهمية وبروليتاريا ثورية وقوية . ويؤدي هذا الى أن ...

« لقد ألقي الصراع من أجل مصالح روسيا **كلها** على عاتق **الطبقة الثورية الوحيدة الموجودة في البلد** : البروليتاريا الصناعية . لهذا السبب تكتسب البروليتاريا الصناعية أهمية سياسية بالغة ، ولهذا السبب ايضاً تحول الصراع لتحرير روسيا من نير الحكم المطلق الى **معركة واحدة بين الحكم المطلق والبروليتاريا الصناعية** ، معركة يستطيع الفلاحون ان يقدموا فيها مساعدة هامة ولكنهم لا يستطيعون أن يلعبوا دوراً قيادياً » .

---

١ – كارل كاوتسكي : « العمال في روسيا وأميركا » ، الترجمة الروسية ، سان بطرسبرغ ١٩٠٦ الصفحات ٤ و ٥ (ل . ت .) .

ألا يدعونا كل هذا الى الاستنتاج ان « الانسان » الروسي سوف يستلم الحكم قبل « سيده » ؟

* * *

هناك نوعان من التفاؤل السياسي . فبمقدورنا أن نبالغ في قوتنا وفي العوامل التي تعمل لصالحنا في وضع ثوري معين ، فنأخذ على عاتقنا مهام تبرّرها العلاقة المتبادلة بين القوى . او ان نضع حداً – بتفاؤل – لمهامنا الثورية يضطرنا وضعنا ذاته الى تخطيها حتماً .

قد نحدّد أفقاً لجميع القضايا المتعلقة بالثورة فنؤكد ان ثورتنا هي **ثورة برجوازية** في أهدافها الموضوعية وبالتالي في نتائجها الحتمية ، فنتجاهل بذلك كون البروليتاريا هي التي ستلعب الدور الرئيسي في هذه الثورة وكون سير الثورة ذاته يدفع هذه البروليتاريا نحو استلام الحكم .

وقد نطمئن أنفسنا بالقول ان سيطرة البروليتاريا السياسية ضمن إطار الثورة البرجوازية ستكون سيطرة مرحلية عابرة ، فنتناسى بذلك ان البروليتاريا في حال استلامها الحكم لن تتخلى عنه إلا بعد مقاومة مستميتة ، إلا بعد ان يجري انتزاعه من بين ايديها بالقوة المسلحة .

وقد نطمئن أنفسنا بالقول ان ظروف روسيا الاجتماعية ما تزال غير ناضجة لبناء اقتصاد اشتراكي متغافلين بذلك عن أن البروليتاريا باستلامها الحكم سوف تضطر حتماً بسبب منطق وضعها ذاته ، الى تحقيق إدارة الدولة للصناعة . إن العبارة السوسيولوجية العامة جداً : **الثورة البرجوازية** لا تحل بأي حال من الأحوال المشاكل والتناقضات والمصاعب التي يطرحها تركيب ثورة برجوازية معينة .

ففي نهاية القرن الثامن عشر تحققت دكتاتورية المعدمين (Les sans - culottes) داخل إطار الثورة البرجوازية التي تتلخص مهمتها الأساسية في تأمين سيطرة رأس المال ، ولم تكن هذه الدكتاتورية مجرد مرحلة عابرة فلقد تركت آثارها على القرن الذي تلاها كله ، هذا بالرغم من كونها تفتتت بسرعة بعد

اصطدامها بسدود الثورة البرجوازية . أمـــا بالنسبة للثورة في بداية القرن العشرين ، والتي تواجهها ايضاً مهـــام برجوازية ، فقـــد برز توقع هو سيطرة البروليتاريا الحتمية او المحتملة على اقل تقدير . وسوف تعمل البروليتاريا حتى لا تغدو هذه السيطرة مجرد « مرحلة » عابرة ، كما يأمل بعض الأدعياء الواقعيين . وبالامكان الآن أن نطرح هذا السؤال : هل ان تفتت الدكتاتورية البروليتارية نتيجة اصطدامها بسدود الثورة البرجوازية أمر محتم، ام انه من المحتمل ان يبرز أمامها فيالظروف التاريخية العالمية الحالية احتمالالانتصار باختراق هذه السدود؟ ان المسائل المطروحة علينا هنا مسائل تكتيكية : هل نحن مطالبون بالعمل الواعي لأجل قيام حكومة عمالية بقدر مـا يؤدي تطور الثورة الى التعجيل في قيام هذا الحكم ؟ أم علينا ان ننظر الى السلطة السياسية على انها حمل ثقيل تلقي به الثورة البرجوازية على كاهل العمال فيكون من الأفضل لهم ان يتجاهلوه ؟

هل علينا أن نجيب أنفسنا بنفس الطريقة التي يتكلم فيها السياسي «الواقعي» فولمار عن مناضلي عاميـــة باريس عام ١٨٧١ إذ يقول : « عوضاً عن استلامهم الحكم كان الأحرى بهم أن يخلدوا للنوم ... » ؟

٥ - البروليتاريا في الحكم والفلاحون

في حال انتصار الثورة الحاسم ، تنتقل السلطة الى أيدي الطبقات التي لعبت الدور القيادي في النضال، وبكلمات أخرى: الى أيدي البروليتاريا. فلنستدرك بسرعة قائلين ان هذا لا يعني إقصاء الممثلين الثوريين للفئات الاجتماعية غير البروليتارية عن الاشتراك في الحكم . ان اشتراك هذه الفئات بالحكم أمر ممكن وواجب . لذا ، فاذا اتبعت البروليتاريا سياسة سلمية فانها ستدعو قادة البرجوازية الصغيرة البارزين في المدن، والمثقفين والفلاحين لمشاركتها الحكم . إلا أن المشكلة تدور حول السؤال التالي : **من سيحدد محتوى سياسة الحكم ؟ لمن ستكون الأغلبية الثابتة داخل الحكومة ؟**

إن اشتراك ممثلي القطاع الديمقراطي من الشعب في حكومة ذات غالبية عمالية شيء، أما اشتراك ممثلين عن البروليتاريا في حكومة ديمقراطية–برجوازية صرفة بصفتهم اسراء مستكينين فشيء آخر تماماً .

إن سياسة البرجوازية الرأسمالية الليبرالية ، بكل تذبذبها وتراجعها وخيانتها ، سياسة محددة بوضوح . أما سياسة البروليتاريا فهي أكثر وضوحاً وكمالاً . ولكن سياسة المثقفين ، بسبب طبيعتهم الاجتماعية الوسطية وميوعتهم السياسية ؛ وسياسة الفلاحين ، بسبب تنوعهم الاجتماعي ووضعهم الوسطي وبدائيتهم ، وسياسة البرجوازية الصغيرة في المدن ، ايضاً بسبب هلاميتها ووضعها الوسطي وفقدانها التام للتقاليد السياسية – إن سياسة هذه الفئات الاجتماعية الثلاث غير محددة قط وغير مبلورة ومليئة بالاحتمالات وبالتالي مليئة

بالمفاجآت .

يكفي أن نحاول تخيّل حكومة ديمقراطية ثورية بدون ممثلين عن البروليتاريا، لكي نرى رأساً تهافت مفهوم كهذا. لذا، فإن رفض الديمقراطيين — الاجتماعيين الاشتراك في حكومة ثورية يجعل تشكيل مثل هــــذه الحكومة أمراً مستحيلاً ويكون بمثابة خيانة صريحة للثورة . إلا أن اشتراك البروليتاريا في حكومة من الحكومات أمر محتمل موضوعياً ومسموح به مبدئياً ، فقط عندما تكون هذه المشاركة **مشاركة قيادية تكون فيها البروليتاريا هي الفئة المسيطرة** . وبالامكان طبعاً تسمية حكومة كهذه « دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين » أو « دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين والانتليجنسيا » أو حتى « حكومة تحالف الطبقة العاملة مع البرجوازيــة الصغيرة » ؛ ولكن يبقى السؤال مطروحاً : من سيسيطر على الحكومة ذاتها ومن خلالها على البلد ؟ فعندما نتكلم عن حكومة عماليـــة نعني بذلك انه يجب ان تكون السيطرة للطبقة العاملة .

إن « المؤتمر الوطني » ، أداة دكتاتوريــة اليعاقبة ، لم يكن يضم اليعاقبـــة وحدهم . بل أكثر من ذلك ، كان اليعاقبة اقلية فيه ، على ان ضغط المعدمـــين (Les Sans culottes) من خارج جدران « المؤتمر » ، والحاجة الملحة الى سياسة محددة تنقذ الوطن ، وضعا الحكم في يد اليعاقبة . وهكذا ، فبينما كان « المؤتمر » يمثل **رسمياً** الوطن كله ، ويتكون من اليعــاقبة والجيرونديين والوسط الكبير المتذبذب الذي يطلق عليه اسم « المستنقع » ، كان **في جوهره** أداة لدكتاتورية اليعاقبة .

عندما نتكلم عن حكومة عمالية انما نعني حكومة يسيطر عليها ممثلو الطبقة العاملة ويتولون قيادتها . ولكي ترسخ البروليتاريا حكمها ، لا تستطيع إلا أن توسع قاعدة الثورة . فتنجذب الى الثورة قطاعات كبيرة من الجماهير الكادحة ، وفي الريف بخاصة ، وتنتظم سياسياً فقط بعدما تقف طليعة الثورة — بروليتاريا المدن — على دفة الحكم . ويتم القيام بالتحريك والتنظيم الثوريين بمساعدة موارد الدولة . وتغدو السلطة التشريعية أداة فعالة لدفع الجمــاهير في الاتجاه الثوري .

ان طبيعة علاقاتنا الاجتماعية والتاريخية، التي تلقي بعبء تحقيق الثورة البرجوازية على كاهل البروليتاريا لن تخلق مصاعب جمة أمـــام الحكومة العمالية فحسب ، ولكنها ستمدها أيضاً بفوائـــد عديدة في المرحلة الاولى من وجودها على الأقل . مما سوف يؤثر على العلاقات بين البروليتاريا والفلاحين .

في ثورات ١٧٨٩ – ٩٣ و ١٨٤٨ انتقلت السلطة اولاً من الحـــكم المطلق الى العناصر المعتدلة من البرجوازية ، وكانت هذه الطبقة هي التي حررت الفلاحين (إن **الطريقة** التي تم فيها هذا التحرر موضوع آخر) قبل ان تستلم الديمقراطية الثورية الحكم وحتى قبل التحضير لاستلامه. وفقد الفلاحون المتحررون كل اهتمام في المناورات السياسية التي يقوم بها « سكان المدن » ، أي في تطور الثورة القادم، وأصبحوا حجر الأساس « للنظام » وخانوا الثورة للرجعية القيصرية أو رجعية **العهد البائد** .

إن الثورة الروسية لم تسمح باقامـــة أي نوع من أنواع النظام الدستوري – البرجوازي بامكانه ان يحل مشاكل الديمقراطية الأولية ، وهي لن تسمح به لمدة طويلة. لذا، فجميع المجهودات « المتنورة » التي يبذلها المصلحون – البرقراطيون امثال « ويتي » و « ستولوبين » تذهب ادراج الريح امام صراع هؤلاء من أجل البقاء على قيـــد الحياة ، لأن مصير أبسط المصالح الفلاحية الثوريـــة ، مصالح الفلاحين **ككل** ، كطبقة ، مرهون بمصير الثورة كلها أي بمصير البروليتاريا .

ان البروليتاريا في الحكم ستقف امام الفلاحين بوصفها الطبقة التي حررتهم. وحكم البروليتاريا لا يعني المساواة الديمقراطية ، والحكم الذاتي الحر ، ووضع كل عبء الضرائب على عاتق الطبقات الميسورة، وتذويب الجيش النظامي في الشعب المسلح والغاء الضرائب الكنسية الالزامية فحسب ، بل أيضاً الاعتراف بكل التغييرات الثورية (الاستيلاء على الأرض) التي أحدثهـــا الفلاحون في العلاقات الزراعية . على البروليتاريا ان تجعل من هذه التغييرات نقطة الانطلاق نحو مزيد من الاجراءات تقوم بها الدولة في الحقل الزراعي .

في ظروف كهذه ، سيكون من مصلحة الفلاحين، في المرحلة الأولى والصعبة

من الثورة ، ان يحافظوا على نظام حكم البروليتاريا (الديمقراطية العمالية) في جميع الاحوال ، مثلما كان للفلاحين الفرنسيين مصلحة في المحافظة على نظام حكم نابليون بونابرت العسكري الذي ضمن للمالكين الجدد حرمة ممتلكاتهم بقوة حرابه . هذا يعني ان مؤسسة الأمة التمثيلية التي ستنعقد بقيادة البروليتاريا المعتمدة على تأييد الفلاحين ، لن تكون غير شعار ديمقراطي لحكم البروليتاريا .

ولكن ، اليس من المحتمل ان يزيح الفلاحون البروليتاريا ويحتلوا مكانها ؟ إن هذا أمر مستحيل . فكل التجربة التاريخية تدحض هذا الافتراض . إن التجربة التاريخية تبيّن ان الفلاحين عاجزون تماماً عن القيام بدور سياسي **مستقل**[1] .

إن تاريخ الرأسمالية هو تاريخ تبعية الريف للمدينة . لقد اقتضى التطور

---

١ – هل ان نشوء وتطور « الاتحاد الفلاحي » ومن بعده « مجموعة الشغل » (ترد روفيكي) في مجلس الدوما يدحض هذا القول وما قد ينتج عنه من اقوال ؟ كلا وابدا . ما هو « الاتحاد الفلاحي » ؟ انه اتحاد يشمل بضع عناصر ديموقراطية راديكالية تفتش عن جماهير تؤيدها، يضاف اليها العناصر الأكثر وعياً من الفلاحين ، طبعاً ليس تلك التي تنتمي الى القطاعات الدنيا من الفلاحين ، يجمعها برنامج يدعو الى الثورة الديمقراطية والاصلاح الزراعي .

اما بالنسبة للبرنامج الزراعي الذي يطرحه « الاتحاد الفلاحي » (« المساواة في استغلال الارض ») والذي هو مبرر وجوده ، فاننا سنبدي حوله هذه الملاحظات : عندما يتسع تطور الحركة الزراعية ويعمق وعندما يقترب هذا التطور من نقطة الاستيلاء على الارض،سوف يتفكك « الاتحاد الفلاحي » نتيجة آلاف التناقضات ذات الطابع الطبقي والمحلي واليومي والتقني . وسوف يلعب اعضاؤه دورهم في التأثير على « اللجان الفلاحية » ، ادوات الثورة الزراعية في الريف ، ولنتذكر ان «اللجان الفلاحية» ، التي هي مؤسسات اقتصادية – زراعية ، لن تتمكن من الغاء تبعية الريف للمدينة : احدى السمات الاساسية للمجتمع المعاصر .

ان راديكالية « مجموعة الشغل » من جهة ، وهلاميتها من جهة أخرى ، ليست الا تعبيراً عن التناقض الكامن في تطلعات الفلاحين الثورية . خلال فترة الاوهام الدستورية ، تبعت هذه المجموعة حزب « الكاديت » (حزب الديمقراطيين الدستوريين) . وعندما حل مجلس الدوما ، انضوت تحت لواء المجموعة الديمقراطية – الاجتماعية . إن تبعية ممثلي الفلاحين سوف تتجلى بوضوح تام عندما تقتضي الامور اظهار مبادرة وتصميم ، أي عندما يتوجب على الثوريين استلام الحكم . (ل . ت .) .

الصناعي في المدن الأوروبية ان تزول العلاقات الاقطاعية في الريـف . وحيث ان الريف لم يخلق طبقة تستطيع ان تأخـــذ على عاتقها مهمة الغاء الاقطاعيـة بشكل ثوري ، فالمدينة ، التي الحقت الزراعة برأس المال ، هي التي خلقت قوة ثوريـــة بسطت سلطتها على الريف ، ونقلت الثورة على الدولة وعلى عـلاقات المُلكية اليه . وعندما حدثت تطورات لاحقة ، وقـع الريف ضحية لعبودية رأس المال الاقتصادية، ووقع الفلاحون في عبودية سياسة الاحزاب الرأسمالية. فاحيت هذه الاحزاب الاقطاعية في السياسة البرلمانية، وجعلت من الريف حقلاً لبعثات صيدها الانتخابية . إن الدولة البرجوازية الحديثة ترمي الفلاح بـــين براثن رأس المال المرابي بواسطة الضرائب والانظمة العسكرية ، وتجعل منـــه فريسة سهلة لسياسة المرابين بواسطة كهنتها ومدارسها وبواسطة فساد الحياة في ثكنات الجيش .

ان البرجوازية سوق تجبر على التخلي عن جميع مواقعها الثورية للبروليتاريا. وسوف تتخلى ايضاً عن سيطرتها السياسية على الفلاحين . وفي وضع كهذا ينتج عن تحول السلطة الى البروليتاريا لن يجـد الفلاحون بدأ من الالتحـــاق بنظام الديمقراطية العمالية . ولن يتبدل الموقف بشكل جوهري حتى لو فعل الفلاحون ذلك بنفس الدرجةمن الوعي التيتدفعهم عادةللالتحاق بنظام الحكم البرجوازي. ولكن ، بينما يقوم كل حزب برجوازي يسيطر على اصوات الفلاحين بحشد قواه لخداع الفلاحين وتضليلهم ، ويخلي الطريق لحزب رأسمـــالي آخر بعد ان تسوء الأمور ، بينما الأمر كذلك بالنسبة للأحزاب البرجوازية،يتطلب من البروليتاريا ان تحشد كل قواها لمساعدة الفلاحين على تنمية وعيهم وعلى رفع المستوى الثقافي في الريف . ويتضح مما قلناه سابقاً ما هو موقفنا من فكرة « دكتاتورية العـمال والفلاحين » . ليست المسألة برأينـــا ان نقرّ هذا الشكل من التعاون السياسي اقراراً مبدئياً ، او « ان نريده او لا نريده » . اننـا نعتبر ، ببساطة ، انه لا يمكن تحقيق مثل هذا التعاون . على الأقل ليس بشكل عاجل ومباشر .

وفي الواقع ، ان تحالفاً من هذا النوع يفترض امـا ان يكون احد الاحزاب

البرجوازية الموجودة يتمتع بنفوذ بين الفلاحين ، وإما ان يكون الفلاحون قد انشأوا حزباً سياسياً قوياً مستقلاً يعبر عن مصالحهم ؛ غير اننا حاولنا ان نظهر استحالة كلا الاحتمالين .

٦ - نظام حكم البروليتاريا

لا تستطيع البروليتاريا ان تستولي على الحكم الا باعتمادها على انتفاضة شعبية عارمة وعلى الحماس الوطني . وسوف تشترك البروليتاريا في الحكم بوصفها الممثل الثوري للأمة ، وبوصفها القائد الوطني المعترف بـه في النضال ضد الحكم المطلق والبربرية الاقطاعية . وباستلامها الحكم ، يبـدأ عهد جديد ، عهد التشريع الثوري والسياسة الإيجابية ، ولكنها بهذا الصدد لن تستطيع المحافظة على كونها المعبّر الشرعي عن ارادة الأمة . وسيكون اول اجراء تتخـذه هو تنظيف اسطبلات العهد البـائد وطرد سكانها ، ذلك الاجراء الذي يحظى بتأييد الأمة باسرها بالرغم مما يزعمه التنـابل الليبراليون عن رسوخ بعض الحساسيات في اوساط جماهير الشعب .

وتواكب عملية التنظيف السياسي هـذه اعادة تنظيم العلاقـات في الدولة والمجتمع على اسس ديمقراطية . وسوف تضطر الحـكومة العمالية ، تحت تأثير الضغوط والمطالب المبـاشرة ، الى التدخل الحاسم في جميـع العلاقـات والأحداث ...

فتكون أول مهمة تقوم بها هي ان تطرد من الجيش ومن الادارة جميع الذين تلطخت ايديهم بدم الشعب ، وان تسرح تلك الوحدات العسكرية التي تلوثت اكثر من غيرها بالجرائم ضده . ويجب ان يتم ذلك في الأيام الأولى للثورة ، قبل ان يتسنى ادخـال نظام انتخاب الرسميين وجعلهم مسئولـين تجاه ناخبيهم وتنظيم الميلشيا الوطنية . على ان القضية لا تنتهي عند هذا الحد. ان الديمقراطية

العمالية سوف تواجه رأساً بقضايا يومية ملحة كالقضية الزراعية وقضية البطالة .

ثمة شيء واحد اكيد : ان كل يوم يمرّ سوف يعمق سياسة البروليتاريا الحاكمة ويزيد في وضوح **طبيعة هذا الحكم الطبقية** . وإلى جانب ذلـك ، سوف تنفصم الوشائج الثورية التي كانت تشد البروليتاريا الى الأمة ، فيتخذ تحلل الفلاحـين الطبقي شكلاً سياسياً ، ويتفاقم التناقض بـين الاطراف المشتركة في الحكم كلما اتضحت سياسة ديمقراطية العمال فتتخلى عن كونها سياسة ديمقراطية عـامة لتصبح سياسة طبقية .

ومع أن غياب التقاليد البرجوازية – الفردية المتراكمة، والحساسيات المعادية للبروليتاريا عند الفلاحين والمثقفين سوف تساعدان البروليتاريا على استلام الحكم من الضروري ألا يغيب عن الأذهان أن غياب هذه الحساسيات ليس مرده وجود وعي سياسي ناضج بل على العكس وجود نوع من الهمجية السياسية والهلاميـة الاجتماعية وفقدان الشخصية المميزة. ان أياً من هذه الصفات لا يمكن ان يكون أساساً متيناً لسياسة بروليتارية نشيطة ومتناسقة .

إن الغاء الاقطاع سيحظى بتأييد الفلاحين **كلهم** ، لكونهم طبقة مضطهدة . وسوف تؤيد غالبية الفلاحين ضريبة الدخل التصاعدية . ولكن تنفيذ أي قانون يحمي البروليتاريا الزراعية سيلاقي تأييد أغلبية الفلاحين الفعلي من جهة ، ويلاقي معارضة ضارية من بعضهم من جهة أخرى .

وسوف تجـد البروليتاريا نفسها مجبرة على نقل الصراع الطبقي الى القرى ، فتقضي بذلك على وحدة المصالح الموجودة دون شك بين جميع الفلاحين، بالرغم من كون وحدة المصالح هـذه محصورة ضمن نطاق ضيق نسبياً . منذ اللحظة الاولى لاستلامها الحكم ، يتوجب كل البروليتاريا ان تعتمد على التناقضات بـين فقراء القرية وأغنيائها ، وبين البروليتاريا الزراعية والبرجوازية الريفية . فبينما يخلق عدم التجانس بين الفلاحين المصاعب أمام البروليتاريا ويقلص قاعدتهـا السياسية ، فان عدم وجود التمايز الطبقي الواضح سيكون عقبة أمـام ادخال الصراع الطبقي المتبلور في أوساط الفلاحين الذي يمكن للبروليتاريا ان تعتمد

عليه . إن بدائية الفلاحين تدير للبروليتاريا وجهها العدائي .

ان انحسار المد في أوساط الفلاحين ، واستكانتهم السياسية وتفاقم المعارضة في أوساط القطاعات العليا منهم لا يمكن إلا أن يؤثر على قطاع من المثقفين وعلى البرجوازية الصغيرة في المدن .

وهكذا ، فكلما وضحت سياسة البروليتاريا وازدادت تصلبـاً ، ضاقت الارض من تحت أقدامها وتزعزعت . ان هـذا جد محتمل وهو حق حتمي الحدوث ...

إن السمتين الأساسيتين لسياسة البروليتـاريا اللتين سوف تلقيان أشد المعارضة بين أوساط حلفاء البروليتاريا هما **التجميع والنزعة الأممية .**

وإن بدائيـة الفلاحين وطبيعتهم البرجوازية الصغيرة ، ونظرتهم الريفية الضيقة ، وانعزالهم عن الارتباط والولاء السياسيين بالعالم الخارجي سوف تخلق المصاعب في وجه تدعيم السياسة الثورية التي تنتهجها البروليتاريا الحاكمة .

إن القول ان مهمة الديمقراطيين – الاجتماعيين تتلخص في دخول الحكومـة الائتلافية وقيادتها خلال مرحلة الاصلاحات الثوريـة الديمقراطية ، والنضال من أجل اعطائها طابعاً جذرياً بالاعتماد على البروليتاريا المنظمة ، وبعد أن يتم تنفيذ البرنامج الديمقراطي تتخلى الحركة الديمقراطية – الاجتماعيـة عن الصرح الذي شيدته وتخلي الطريق للأحزاب البرجوازيـة وتنتقل هي الى صفوف المعارضة مفتتحة بذلك حقبة السياسة البرلمانيـة ؛ إن قولاً كهذا يهـدد بنسف فكرة الحكومة العمالية من أساسها . ليس لأن هذا القول غير مسموح به « مبدئياً » ، فمجرد طرح القضية على هذا الصعيد يجردها من كل محتوى ، ولكن لأنه قول غير واقعي البتة ، انه ضرب من الطوباوية الثورية المدّعية ، أسوأ انواع الطوباوية .

لهذا السبب :

فإن تقسيم برنامجنا الى برنامج الحد الأقصى وبرنامج الحـد الأدنى له دلالة مبدئية ضخمة وعميقة خلال المرحلة التي يكون فيها الحكم في يد البرجوازيـة . لأن مجرد وجود البرجوازية في الحكم يحذف من برنامج الحد الأدنى جميع المطالب

التي تتعارض مع الملكية الفردية لوسائل الانتاج . هذه المطالب هي مضمون الثورة الاشتراكية وهي تفترض وجود دكتاتورية البروليتاريا .

ولكن حالما تنتقل السلطة الى يد حكومة ثورية ذات أغلبية اشتراكية ، فتقسيم برنامجنا الى برنامج الحد الادنى وبرنامج الحد الأقصى يفقد كل معناه على الصعيد المبدئي وعلى صعيد العمل المباشر. فلا يمكن بأي حال من الاحوال ، ان تسجن حكومة البروليتاريا نفسها ضمن هذه الحدود الضيقة . فلنأخذ مطلب ثماني ساعات عمل في اليوم . ان هذا المطلب لا يتناقض ، كما هو معلوم ، مع العلاقات الرأسمالية ، لذا فهو مدرج في برنامج الحد الأدنى الذي تعمل به الحركة الديمقراطية – الاجتماعية . ولكن ، ماذا يحصل لو حاولنا تحقيق هذا المطلب خلال الثورة ، في فترة من العواطف الطبقية العنيفة ؟ لا شك في ان الرأسماليين سيتصدون له بمقاومة منظمة وصامدةقد تتخذ شكل المقاطعة أو اغلاق المصانع.

سيجد مئات الآلاف من العمال انفسهم في الشارع . فماذا يتوجب على الحكومة ان تفعل ؟ اذا كانت الحكومة برجوازية ، ومهما بلغت راديكاليتها ، فهي لن تسمح ابداً للأمور بأن تصل الى هذا الحد لأنها ستجد نفسها مشلولة اذا ما واجهتها عملية اغلاق المصانع . فستضطر الى التراجع ، فلا يتحقق مطلب الثماني ساعات عمل في اليوم ويجري التنكيل بالعمال الذين يقاومون .

اما اذا كانت الحكومة تحت سيطرة البروليتاريا السياسية ، فان تنفيذ قانون الثماني ساعات عمل في اليوم يؤدي الى نتائج جد مختلفة . بالنسبة لحكومة تسعى الى الاعتماد على البروليتاريا وليس على رأس المال، كما تفعل الليبرالية، والتي لا تسعى الى لعب دور الوسيط «الحيادي»، الذي تلعبه الديمقراطية البرجوازية، بالنسبة لحكومة كهذه لن يكون اغلاق المصانع بالطبع مبرراً لزيادة ساعات العمل في اليوم . هناك طريق وحيد تسلكه الحكومة العمالية وهو ان تصادر المصانع المغلقة وتنظم العمل فيها على اساس اشتراكي .

وطبعاً يمكن الرد على ما ورد بهذا الشكل: فلنفترض ان الحكومة العمالية، الوفية لبرنامجها ، قد اصدرت قانوناً يحدد ساعات العمل بثماني ساعات في اليوم

الواحد ، فاذا قاوم رأس المال هذا الاجراء مقاومة لا يمكن التغلب عليها بما يحويه البرنامج الديمقراطي المبني على الاحتفاظ بالملكية الفردية ، اذن فعلى الديمقراطيين – الاجتماعيين ان يستقيلوا وان يتوجهوا الى البروليتاريا . إن حلاً كهذا هو حل فقط بالنسبة للمجموعة المشتركة بالحكم ، ، ولكنه لن يكون حلاً بالنسبة للبروليتاريا وبالنسبة لمستقبل الثورة . فبعد ان يستقيل الديمقراطيون – الاجتماعيون ، يعود الوضع الى ما كان عليه يوم اضطروا على استلام الحكم . إن الهرب عن مواجهة مقاومة رأس المال المنظمة لهو خيانة اعظم للثورة من رفض إستلام الحكم في المقام الأول . الافضل لحزب الطبقة العاملة الا يشترك بالحكم مطلقاً على ان يشترك فيه ليستعرض ضعفه ومن ثم يستقيل .

لنأخذ مثلاً آخر . لا يسع البروليتاريا الا ان تتبنى اجراءات حاسمة لحل قضية البطالة لانه من البديهي ان ممثلي العمال في الحكومة لن يستطيعوا الاجابة على مطالب العمال العاطلين عن العمل بالتحجج بطابع الثورة البرجوازي .

ولكن اذا أخذت الحكومة على نفسها ان تساعد العاطلين عن العمل ، ليس المهم بهذا الصدد تحديد شكل هذه المساعدة ، فان هذا يعني ان تنتقل السلطة بسرعة وبشكل فعلي الى جانب البروليتاريا . وهكذا ، فالرأسماليون الذين يعتمدون دوماً في استغلالهم للعمال على وجود جيش احتياطي من العمال ، سيجدون انفسهم بدون قوة اقتصادية ومحكومين على تحمل العقم السياسي في آن واحد .

عندما تأخذ الحكومة على عاتقها مساعدة العاطلين عن العمل ، فانها تتعهد في الوقت نفسه بمساندة المضربين . فإذا هي لم تفعل ذلك فقد نسفت مبرر وجودها من الأساس .

فلا يبقى للرأسماليين سوى ان يلجأوا الى المقاطعة ، اي الى اغلاق المصانع . ومن البدهي ان ارباب العمل يستطيعون تحمل تبعات توقف الانتاج اكثر مما يستطيعه العمال ، لذا كان هنالك جواب وحيد ترد به الحكومة العمالية على المقاطعة العامة الا وهو ان تصادر المصانع وان تدخل الى الكبيرة منها طرق

الإنتاج المشاعية او الحكومية .

وتنشأ مشاكل مشابهة بمجرد ان تجري مصادرة الاراضي، ولا يجب ان نفترض ، باي حال من الأحوال ، انه على الحكومة البروليتارية ، بعد مصادرتها للمتلكات الفردية ، ان تفتتها وتبيعها للمنتجين الصغار ليستثمروها. ان الطريق الوحيدة امام الحكومة هي ان تنظم الانتاج التعاوني باشراف « العامية » او ان يجري تنظيم الانتاج من قبل الدولة مباشرة . ولكن هذه الطريق هي الطريق الى الاشتراكية .

ان جميع ما ورد يؤكد بما لا يسمح الشك انه لا يمكن للديمقراطيين — الاجتماعيين ان يشتركوا في حكومة ثورية متعهدين سلفاً للعمال بالا **يتنازلوا** عن برنامج الحد الأدنى وواعدين البرجوازية في الوقت نفسه بالا **يتخطوا** هذا البرنامج . ان مثل هذا التعهد المزدوج لا يمكن تحقيقه . ان مجرد اشتراك ممثلي البروليتاريا في الحكم ليس كاسراء حرب لا حول لهم ولا قوة ، ولكن كقوة قيادية ، يهدم الحد الفاصل بين برنامج الحد الأدنى وبرنامج الحد الأقصى،**اي انه يضع قضية التجمع في حيّز التنفيذ** . وان الحد الذي يتوقف عنده تقدم البروليتاريا في هذا الاتجاه يتوقف على العلاقة بين القوى ، وليس على نوايا حزب البروليتاريا الاصلية .

لهذا السبب ، ليس هنالك أي معنى للحديث عن شكل **خاص** من اشكال دكتاتورية البرليتاريا في الثورة البرجوازية ، او عن دكتاتورية بروليتارية **ديمقراطية** (او عن دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين) . ان الطبقة العاملة لا تستطيع ان تحتفظ بالطابع الديمقراطي لدكتاتوريتهاالا اذا تخطت حدود برنامجها الديمقراطي . وان اية اوهام حول هذه النقطة لهي اوهام فاجعة ، سوف تعرض الحركة الديمقراطية — الاجتماعية للانهيار منذ البداية .

ان البروليتاريا بمجرد استيلائها على الحكم سوف تقاتل للاحتفاظ به الى النهاية . وحيث يكون احد اسلحتها في هذا القتال للاحتفاظ بالسلطة وتدعيمها هو التحريك والتنظيم في الريف بشكل خاص ، يكون سلاحها الآخر هو انتهاج

سياسية تجميعية . ولن يكون التجميع الطريق الحتمية الوحيدة الى الامـام من الموقع الذي يجد الحزب الحاكم نفسه فيه فحسب ، بل اداة الاحتفاظ بهذا الموقع بمساندة البروليتاريا ايضاً .

عندما تبلورت فكرة الثورة المستمرة في الصحافة الاشتراكية، هذه الفكرة التي تربط بين تصفية الحكم المطلق والاقطاع وبين الثورة الاشتراكية الى جانب تفاقم الصراعات الاجتماعية وتمرد قطاعات جماهيرية جديـدة وشن البروليتاريا الهجمات المستمرة على الامتيازات الاقتصادية والسياسية للطبقات الحاكمة، عندما تبلورت هذه الفكرة اطلقت صحافتنـا « التقدمية » صيحة استنكار واحدة . فصاحت : « اواه ! لقد تحملنا كثيراً، ولكننا لن نتحمل المزيد . ليست الثورة طريقاً يمكن جعلها شرعية » . فتطبيق الاجراءات الاستثنائية امر مسموح في الظروف الاستثنائية فقط. وليس في نية حركة التحرر ان تجعل الثورة دائمة ولكن أن تقودها بأسرع وقت ممكن في طريق « القانون » ، الى آخره ، الى آخره .

ان اكثر العناصر جذرية في هذه الديمقراطية نفسها ، لم يجـازفوا بالوقوف ضد الثورة حتى من وجهة نظر « مكاسب » دستورية مؤمنة سلفاً . فهذه البلاهة البرلمانية التي تسبق نشوء البرلمانية ذاتها لا تشكل سلاحاً ماضياً في الصراع ضد الثورة البروليتارية. فنجدهم يختارون طريقاً اخرى. انهم يحددون موقفهم ليس على أساس القانون ولكن على ما يبدو لهم وكأنه أساس للوقائع ، اي على اساس « الامكان » التاريخي ، وعلى اساس « الواقعية » السياسية ، واخيراً ... اخيراً حتى على اساس « الماركسية » ذاتها . ولم لا ؟ الم يكن على حق ذلك البرجوازي الفينيسي انطونيو إذ قال: «الشيطان قد يستشهد حتى بالانجيل لخدمة أغراضه»؟.

ان هؤلاء الديمقراطيين الراديكاليين لا يرهبون فكرة الحكومة العـمالية في روسيا فحسب ، انهم يتنكرون لإمكان قيام ثورة اشتراكية في اوروبا في الحقبة التاريخية المقبلة ايضاً. انهم يقولون : « ان الشروط المسبقة للثورة لم تتوفر بعد ». هل هذا صحيح ؟ ليست القضية، بالطبع ، قضية تحديد ساعة الصفر لقيام الثورة الاشتراكية ، ولكن من الضروري الاشارة الى توقعاتها التاريخية الحقيقية .

٧ - الشروط المسبَّقة لتَحقيق الاشتراكيَّة

إن الماركسية قد حوّلت الاشتراكية الى علم ، غير ان هذا لم يمنع بعض « الماركسيين » من تحويل الماركسية الى مذهب طوباوي .

لقد عرض روجكوف، في معرض رده على البرمجة الاشتراكية والتعاونية، « الشروط المسبقة الضرورية للمجتمع المقبل كما ارساها ماركس » فطرح هذا السؤال: «هل توفرت حتى الآن الشروط المسبقة المادية والموضوعية التي تتكون من التطور التقني الذي يضعف دافع الكسب الفردي والانشغال بالنقد(؟) والجهود والمبادرة والمجازفة الفردية ويحدّ منها ، والذي يجعل بالتالي من مسألة الانتاج الاجتماعي مسألة من المرتبة الأولى ؟ إن مثل هذا المستوى من التقنية يرتبط ارتباطاً صميماً بسيطرة الانتاج الكبير شبه التامة على جميع (؟) فروع الاقتصاد . فهل بلغنا هذا الطور ؟ حتى الشروط المسبقة الذاتية والنفسية ما تزال غير متوّفرة مثل نمو الوعي الطبقي لدى البروليتاريا الى المستوى الذي يحقق الوحدة الروحية بين غالبية الشعب الساحقة». ويستطرد روجكوف قائلاً: «إننا نعلم بوجود جمعيات انتاجية مثل معامل الزجاج الفرنسية الشهيرة في « آلبي» وبعدة جمعيات زراعية أخرى في فرنسا ، ومع ذلك فإن تجربة فرنسا تؤكد ، بما لا يسمح الشك ، انه حتى ظروف بلد عريق في تقدمه كفرنسا لم تتبلور بما فيه الكفاية لتسمح بطغيان العلاقات التعاونية . هذه المشاريع هي ذات حجم متوّسط فقط ، وليس مستواها التقني أعلى من مستوى الفعاليات الرأسمالية ، **انها ليست في مقدمة التطور الصناعي ، انها لا تقوده** ، وانما هي اقرب الى

المستوى المتوسط المتواضع .

« فقط عندما تبرهن تجربة الجمعيات الانتاجيةالفردية عن كونها تلعب دوراً قيادياً في الحياة الاقتصادية يصبح بمقدورنا القول اننا نقترب من نظام جديد ، وإذ ذاك فقط نستطيع أن نتأكد من أن الظروف الضرورية لوجودها قد توفّرت [1] » .

مع احترامنا لنوايا الرفيق روجكوف الحسنة ،يؤسفنا أن نعترف بأنه نادراً ما نلقى حتى في الكتابات البرجوازية تخبّطاً كالذي يقع فيه بصدد ما يسمّى بالشروط المسبقة لتحقيق الاشتراكية . ويجدر بنا ان نلقي نظرة على هذا التخبّط ان لم يكن من أجل روجكوف فمن أجل القضية .

يعلن روجكوف اننا لم نصل بعد إلى ذلك المستوى من التطور التقني الذي يضعف دافع الكسب الفردي والانشغال بالنقد [؟] والجهود والمبادرة والمجازفة الفردية ويحدّ منها ، والذي يجعل بالتالي من مسألة الانتاج الاجتماعي مسألة في المرتبة الأولى .

انه لمن الصعب ان نكتشف ما يعنيه هذا المقطع . يبدو ان روجكوف يريد ان يقول ، في الدرجة الأولى ، ان التقنية الحديثة لم تطرد بعد من الصناعة عدداً كافياً من طاقات العمل البشري ؛ وفي الدرجة الثانية ، ان عملية الطرد هذه لن تتمّ الا بعد ان تسيطر المشاريع الكبرى **سيطرة شبه تامة** على **جميع** فروع الإقتصاد **فيتحول بالتالي جميع سكان البلد إلى بروليتاريين تحولاً شبه كامل .** ويدّعي روجكوف ان هاذين هما الشرطان المسبقان للاشتراكية كما « أرسى قواعدهما ماركس » .

فلنحاول أن نتصور كيف سيكون وضع العلاقات الرأسمالية التي يعتبر روجكوف ان الاشتراكية ستواجهها عند قدومها . إن « السيطرة شبه التامة للمشاريع الكبيرة على جميع فروع الاقتصاد » تعني ، في ظل الرأسمالية ، ان يتحول المنتجون الصغار والمتوسطون في الزراعة والصناعة الى بروليتاريين كما

---

١ – ن . روجكوف . « حول المسألة الزراعية » – ص ٢١ و ٢٢ (ل . ت .).

ورد سابقاً ، اي ان تحول الشعب بأسره إلى بروليتاريا . غير ان السيطرة التامة للتقنية الآلية على هذه المشاريع الكبرى سوف تؤدي إلى التقليل من تشغيل طاقة العمل البشرية الى ابعد حد ، فتتحول الغالبية الساحقة من سكان البلد ، فلنقل ٩٠٪ منهم، الى جيش عمل احتياطي يعيش في المساكن العمالية على حساب الدولة . لقد قلنا ٩٠٪ من عدد السكان ، ولكن لا شيء يمنعنا من ان نكون منطقيين فنتخيل وضعاً تقتصر فيه عملية الانتاج كلها على آلة اوتوماتيكية واحدة تملكها جمعية صناعية واحدة يفي قرد مدرّب واحد حاجتها الى العمل الحيّ . وكما نعلم هذه هي النظرية المتماسكة اللامعة التي تدعو اليها البروفسور « توغان — بارانوفسكي » . في مثل هذه الظروف ، لا يتحلّ « الانتاج الاجتماعي » « المرتبة الأولى » فحسب ، بل يسيطر سيطرة تامة أيضاً . وفي مثل هذه الظروف ، من الطبيعي ان يتحول **الاستهلاك** ايضاً **تحولاً اشتراكياً** لأن الأمة باسرها ، باستثناء العشرة بالمائة الذين يملكون « التروتست » ، ستعيش على نفقة الحساب العام في المساكن العمالية . وهكذا يطل من وراء روجكوف وجه مألوف باسم هو وجه « توغان — بارانوفسكي » . والآن ، تستطيع الاشتراكية ان تظهر على المسرح . فيخرج الشعب من المساكن العمالية ويصادر أملاك مجموعة المالكين . ولا حاجة طبعاً للثورة او لدكتاتورية البروليتاريا .

يعتبر روجكوف أن الدلالة الاقتصادية الثانية على نضج البلد لقيام الاشتراكية تكمن في امكانية **سيطرة** الانتاج التعاوني في داخله . وحتى معامل الزجاج التعاونية في « البي » في فرنسا ليست على مستوى أرقى من مستوى اي مشروع رأسمالي آخر . فالانتاج الاشتراكي يصبح ممكناً فقط عندما تكون التعاونيات **في مقدمة التطور الصناعي** ، اي عندما تكون هي المشاريع **القائدة** .

ان هذه الحجة بكاملها مقلوبة رأساً على عقب . إن التعاونيات لا تستطيع ان تقود التطور الصناعي ليس لأن هذا التطور لم يقطع الأشواط البعيدة وانما لانه قد تقدم **أبعد من اللازم** . ولا شك في ان التطور الاقتصادي يخلق أساساً يقوم عليه التعاون ، ولكن ما هو نوع هذا التعاون ؟ اذا كنا نبحث عن التعاون

الرأسمالي ، المبني على العمل المأجور ، فان كل مصنع يرينا صورة عن هذا التعاون الرأسمالي . ومع تطور التقنية تتزايد أهمية مثل هذا التعاون ايضاً . ولكن ما هي الطريقة التي تمكن تطور الرأسمالية من وضع الجمعيات التعاونية في « مقدمة الركب الصناعي » ؟ وعلى ماذا يبني روجكوف آماله ان الجمعيات التعاونية سوف تتمكن من طرد الجمعيات الصناعية « والتروستات » والحلول مكانها في مقدمة ركب التطور الصناعي ؟ من البديهي انه اذا تمّ ذلك ، فلن يبقى على الجمعيات التعاونية إلا أن تقدم فوراً على مصادرة جميع المشاريع الرأسمالية ، ثم تخفض بعد ذلك ساعات العمل في اليوم بحيث يتوفر العمل للجميع وتعدل حجم الانتاج في مختلف المجالات لكي تتفادى الأزمات . بهذه الطريقة تكون قد أوجدت المعالم الاساسية للنظام الاشتراكي . ويتضح هنا أيضاً انه لا حاجة مطلقاً للثورة او لدكتاتورية البروليتاريا .

اما الشرط المسبق الثالث فهو ذو طابع نفسي : الحاجة الى « ان يصل الوعي الطبقي عند البروليتاريا الى المستوى الذي يحقق الوحدة الروحية بين غالبية الشعب الساحقة » . بما ان « الوحدة الروحية » في هذا المجال تعني ، ولا شك ، التضامن الاشتراكي الواعي ، نخلص إذن الى ان الرفيق روجكوف يعتبر ان الشرط النفسي المسبق للاشتراكية هو تنظيم « غالبية الشعب الساحقة » في صفوف الحزب الاشتراكي – الديمقراطي . فمن الواضح ، إذن ، ان روجكوف يسلم بان الرأسمالية ، بدفعها المنتجين الصغار الى صفوف البروليتاريا وبدفعها العمال الى صفوف جيش العمل الاحتياطي ، سوف تمهد الطريق أمام الحركة الاشتراكية – الديمقراطية لتنور **غالبية الشعب الساحقة** (٩٠٪) وتجمعهم في وحدة روحية .

هذا أمر يستحيل تحقيقه في عالم الرأسمالية البربرية بقدر ما يستحيل طغيان التعاونيات في نطاق المضاربة الرأسمالية . ولكن اذا كان تحقيقه ممكناً ، فمن الطبيعي إذن ان تقوم « غالبية الشعب الساحقة » ، الموحدة روحاً ووعياً ، بسحق بعض كبار الرأسماليين دونما صعوبة بالغة وتنظيم الاقتصاد وفق نهج

اشتراكي دون الحاجة الى ثورة او دكتاتورية .

ولكن يبرز هنا السؤال التالي . إن روجكوف يعتبر نفسه تلميذاً لماركس . غير ان ماركس ، بعد عرضه « للشروط المسبقة الاساسية للاشتراكيـــة » في «البيان الشيوعي» ، اعتبر ثورة عام ١٨٤٨ مدخلاً مباشراً الى الثورة الاشتراكية. طبعاً لا يحتاج المرء الى نظر ثاقب لكي يفهم ،بعد ستين عاماً ، أن ماركس كان مخطئاً لان العالم الرأسمالي مـا زال قائماً . ولكن كيف ارتكب ماركس خطأ كهذا؟ ألم يلاحظ ان المشاريع الكبيرة لم تسيطر بعد على جميع فروع الاقتصاد، وإن التعاونيات الانتاجية لم تستول بعد على قيـــادة المشاريع الكبرى ، وأن غالبية الشعب الساحقة لم تتوحد بعد حول الافكار التي طرحها «البيان الشيوعي» ؟ واذا كنا لا نلاحظ هذه الأشياء حتى في وقتنا هذا ، لماذا لم يلاحظ ماركس عام ١٨٤٨ انها غير موجودة ؟ يبدو أن ماركس كان يافعاً طوباوياً عام ١٨٤٨ اذا ما قارنا بينه وبين جهابذة الماركسية الحاليين المعصومين عن الخطأ !

هكذا نرى انـــه بالرغم من ان الرفيق روجكوف لا ينتمي باي حال من الاحوال الى نقاد ماركس، فانه يهمل كون ثورة البروليتاريا من الشروط المسبقة الاساسية للاشتراكية . وبما ان روجكوف يعبر بوضوح تام عن آراء عدد لا بأس به من المـاركسيين في كلا جناحي الحزب ، فمن الضروري ان نستدل الى جذور الاخطاء التي ارتكبها في المبدأ وفي الوسيلة .

ولا بـد من أن نشير بشكل عابر الى أن حجّة روجكوف فيما يتعلق بمصير التعاونيات تخصُّه هو وحده . فلم يسبق لنا أن قابلنا اشتراكيين يعتقدون بمثل هذا التقدم البسيط الدائم نحو مركزة الانتاج وإفقار الشعب الى جانب اعتقادهم، بالدور الطاغي الذي تلعبه الجمعيات التعاونية الانتاجية قبيل ثورة البروليتاريا . إن جمع هـــذين الشرطين المسبقين على صعيد النمو الاقتصادي أصعب بكثير من جمعها في رأس الباحث رغم إنه كان يبدو لنا ان حتى هذا الاخير امر مستحيل.

ولكننا سوف نعالج « شرطين مسبقين » آخرين يعبّران عن عُقَدٍ اكثر وضوحاً . لا شك في ان تمركز الانتـاج وتطور التقنية ونمو الوعي عند الجماهير

هي من الشروط المسبقة الأساسية للاشتراكية . غير ان هذه العمليات تجري في آن واحد وتكون الواحدة منها حافزاً للأخرى ، ولكن تعيق الواحدة منها الأخرى ، في الوقت ذاته ، وتحدّ منها . فكل واحدة من هذه العمليات تتطلب ، وهي في مستوى أرقى ، تطوراً معيناً لعملية أخرى على مستوى ادنى . غير ان التطور الكامل لكل منها يتعارض مع التطور الكامل للعمليات الأخرى .

لا شك في ان تطور التقنية يبلغ حده المثالي عند توفّر تركيب آلي واحد ينتزع المواد الخام من رحم الطبقية ويلقي بها عند قدمي الانسان على شكل مواد استهلاكية جاهزة . ولو لم تكن العلاقات الطبقية والنضال المتأتي منها عاملاً يحدّ من وجود النظام الرأسمالي ، لكان لنا بعض الحق في ان نفترض ان التقنية ، عندما تقترب من بلوغ مثال التركيب الآلي الواحد ضمن إطار النظام الرأسمالي ، سوف يؤهلها هذا ان تلغي الرأسمالية فوراً .

ان تمركز الانتاج الذي ينتج عن قوانين المضاربة يتجه ، من تلقاء ذاته ، الى إفقار جميع السكان . وإذا استثنينا هذا الاتجاه ، يحقّ لنا ان نفترض ان الرأسمالية سوف تقوم بعملها الى النهاية إذا لم تندلع الثورة خلال عملية الإفقار ، غير أن وجود علاقة معينة بين القوى يحتّم اندلاع الثورة قبل مدة طويلة من ان تحوّل الرأسمالية سكان الأمة الى جيش احتياطي يعيش في ثكنات هي أشبه بالسجون .

وبالإضافة لذلك ، فلا بدّ للوعي من ان ينمو بشكل مضطرد ، ذلك بفضل تجربة النضال اليومي وبفضل المجهود الواعي الذي تبذله الأحزاب الاشتراكية . وإذا استثنينا هذه العملية ، يمكننا ان نلاحق في مخيلتنا هذا النمو حتى تنضم غالبية الشعب إلى النقابات والمنظمات السياسية يجمع بينها روح التضامن ووحدة الهدف . وإذا تسنّى لهذه العملية حقاً ان تتزايد كمياً دون ان يؤثر ذلك على نوعيتها ، إذن لأمكن تحقيق الاشتراكية سلمياً بواسطة « حركة مدنية » شاملة وواعية في وقت ما من القرن الحادي والعشرين او الثاني والعشرين .

الا ان النقطة كلها تكمن في ان العمليات التي تشكل الشروط المسبقة التاريخية للاشتراكية لا تتطور بشكل معزول وانما تحدّ الواحدة منها الأخرى وعندما تبلغ تطوراً معيناً ، تحدّده ظروف عديدة بعيدة كل البعد عن الحدود الحسابية لهذه العمليات ،تتغيّر نوعياً ويتولّد من تركيبها المعقّد ما اصطلح على تسميته بالثورة الاجتماعية .

سنبدأ من العملية الآنفة الذكر: نمو الوعي . إن هذه العملية لا تأخذ مجراها كما هو معلوم في الاكاديميات حيث يمكن حجز البروليتاريا بشكل مصطنع لخمسين أو مئة أو حتى خمسمائة عام ، وانما تأخذ مجراها في مسيرة المجتمع الرأسمالي الشاملة على اساس صراع طبقي لا يتوقف . وإن نمو الوعي عند البروليتاريا يحوّل الصراع الطبقي ويضفي عليه طابعاً هادفاً وأكثر عمقاً مما يستجلب بدوره ردة فعل من قبل الطبقات المسيطرة . ويصل نضال البروليتاريا ضد البرجوازية الى مرحلة الانفراج قبل زمن طويل من بدء سيطرة المشاريع الكبرى على جميع فروع الصناعة .

وبالاضافة الى ذلك ، يصح القول طبعاً ان نمو الوعي السياسي يعتمد على تزايد اعداد البروليتارية ، وان دكتاتورية البروليتاريا تفترض ان تكون اعداد البروليتاريا كبيرة بحيث تمكنها من التغلب على مقاومة الثورة البرجوازية المضادة . الا ان هذا لا يعني ، باي حال من الاحوال ، انه يجب على « غالبية الشعب الساحقة » ان تكون في الطبقة العاملة، أو ان تكون «الغالبية الساحقة» من العمّال من الاشتراكيين الواعين . ومن الواضح ، طبعاً ، انه يجب ان يكون جيش البروليتاريا الثوري الواعي اقوى من جيش رأس المال المضاد للثورة ؛ وكذلك يجب ان تكون الفئات الوسطى والمترددة أو غير المبالية من الشعب في وضع يسمح لنظام دكتاتورية البروليتاريا ان يستميلها الى معسكر الثورة والا ينفرّها فتنضم الى معسكر اعدائها. ويتوجب على السياسة البروليتارية، طبعاً، ان تعي ذلك وان نأخذه بعين الاعتبار .

إن كل هذا يفترض هيمنة الصناعة على الزراعة وسيطرة المدينة على الريف .

* * *

سوف ننتقل الآن الى تفحص الشروط المسبقة للاشتراكية وفـق تقلّص نسبة عموميتها وتزايد نسبة تعقيدها .

١ ـ ليست الاشتراكية مسألة توزيع متساو فحسب وانما هي مسألة إنتاج مبرمج كذلك . والاشتراكية ، أي الانتاج التعاوني على نطاق واسع ، ممكنة فقط عندما يبلغ تطور قوى الانتاج مستوى تنتج فيه المشاريع الكبرى أكثر مما تنتجه المشاريع الصغيرة . فعندما ترّجح كفة المشاريع الكبيرة على كفـة المشاريع الصغيرة ، أي عندما يتزايد نمو التقنية ، تتضاعف الفوائد الاقتصادية للانتاج الاشتراكي ويصبح المستوى الثقافي للشعب كله أكثر ارتفاعـاً نتيجة التوزيع المتساوي المبني على الانتاج المبرمج .

لقد كان الشرط المسبق الأول للاشتراكية متوفراً منذ زمن طويل ، منذ ان ادّى التقسيم الاجتماعي للعمل الى تقسيم العمل في نظام المانيفاتورة . وقد اتسعت رقعته منذ ان حلّ الانتاج الآلي في المصنع مكان المانيفاتورة . فغدت المشاريع الكبرى أكثر وأكثر فائـدة الأمر الذي يعني ان تحويل هـذه المشاريع الى مؤسسات اشتراكية سوف يزيد في ثروة المجتمع . ومن الواضح ان انتقال جميع مشاغل الصناعة اليدوية الى ملكية عامة لجميع الصّناع ما كان سيزيد من ثرائهم قيراطاً واحداً ؛ في حين ان انتقال المانيفاتورة الى ملكية عامة للعمال بالقطعة ، أو انتقال المصانع الى ايدي العمال الذين يعملون فيها ، أو بالاحرى انتقال جميع وسائل الانتاج الكبير الى ايدي جميع السكان سوف يرفع مستوى الشعب المادي ولا شك ؛ وبمقدار ما يكون المستوى الذي بلغه الانتاج الكبير عالياً كذلـك يكون مستوى الشعب .

غالباً ما تتكلم الكتابات الاشتراكية عن « بيلرز » ، النائب الانكليزي[1]

---

١ ـ لم يكن جون بيلرز نائباً في البرلمان وانما كان مالكاً للاراضي ينتمي الى طائفـة « الكويكرز » . وقد قدّم مشروعه على شكل رسالة موجهة الى البرلمان (المترجم الانكليزي) .

الذي قدم للبرلمان عام ١٦٩٦ ، أي قبل مؤامرة « بابوف » بمدةِ قرن ، مشروعاً يقضي بانشاء جمعيات تعاونية تزوّد نفسها بجميع ما تحتاجه بشكل مستقل . ويقضي هذا الاجراء بان تضم هذه التعاونيات الانتاجية عدداً يتراوح بين مئتين وثلاثمائة شخص . لن نستطيع هنا ان نمتحن حجة السيد « بيلرز » فهي ليست ضرورية لما نسعى اليه ، المهّم في الأمر هو ان الاقتصاد الجماعي، حتى ولو نظرنا اليه فقط على أساس مجموعات من مئة أو مئتين أو ثلاثمائة أو خمسمائة شخص ، كان يعتبر إجراءً نافعاً من وجهة النظر الانتاجية حتى في نهاية القرن السابع عشر .

وفي بداية القرن التاسع عشر ، نشر « فورييه » مشاريعه المتعلقة بانشاء جمعيات انتاجية ــ استهلاكية تدعى « الفالانستير » تضّم الواحدة منها عدداً يتراوح بين الفين وثلاثة آلاف شخص . ولم تكن حسابات فورييه تتميّز بالدقة مطلقاً ، وعلى كلٍ فقد اوحى له تطور المانيفاتورة في ذلك الحين بجماعيات اقتصادية أوسع بكثير من تلك التي ذكرناها منذ قليل . ومهما يكن من أمر ، فمن الواضح ان جمعيات « جون بيلرز » و « الفالانستير » التي يحلم بها فورييه على حد سواء هي اقرب ما تكون في طبيعتها الى المشاعات الاقتصادية الحرّة التي يحلم بها الفوضويون . ولا تكمن طوباوية هذه المشاعات في « استحالة تحقيقها » ولا في كونها « ضد الطبيعة » ، فلقد برهنت تجربة المشاعات الشيوعية في اميركا عن امكان تحقيقها ، وانما تكمن في كونها متخلفة بمئة أو بمئتي عام عن مسيرة التطور الاقتصادي .

لقد ادّى تطور التقسيم الاجتماعي من جهة والانتاج الذى يعتمد على الآلة من جهة أخرى الى ايجاد وضع يجعل من الدولة ، في زمننا هذا ، الهيئة التعاونية التي تستطيع ان تستغل فوائد الانتاج الجماعي على نطاق واسع . وبالاضافة الى ذلك فإن اسباباً اقتصادية وسياسية توجب على الانتاج الاشتراكي ان يتخطى الحدود العنيفة لكل دولة بمفردها .

لقد احصى « اتلنتيكس » ، الاشتراكي الالماني الذي لا يتبّنى وجهة النظر

الماركسية ، المنافع الاقتصادية المتأتية من تطبيق الاقتصاد الاشتراكي ضمن نطاق المانيا في نهاية القرن الثامن عشر . ولم يكن اتلنتيكس يتميّز مطلقاً بالخيال المحلّق . فقد كانت افكاره تدور عادة في فلك رتابة الرأسمالية الاقتصادية . فبنى حججه على كتابات علماء زراعيين ومهندسين معاصرين يمكن الاعتماد عليهم . وإن هذا لا يضعف من حججه وانما هو الجانب المنيع منها إذ يحول دون انجرافه في تفاؤل لا مبرر له . وعلى كلٍ ، فقد خلص اتلنتيكس الى ان دخل العامل سوف يتضاعف مثنىً وثلثاً ، وان يوم العمل سوف يتقلص الى نصف ما كان عليه اذا توّفر التنظيم الصحيح للاقتصاد الاشتراكي وتشغيل الموارد التقنية التي كانت متوّفرة في منتصف العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

ومع ذلك ، لا يجب ان نظن ان اتلنتيكس هو أول من أظهر فوائد الاشتراكية الاقتصادية . إن ارتفاع انتاجية العمل في المشاريع الكبرى ، من جهة ، وضرورة تنظيم الانتاج من جهة أخرى ، كما افصحت عنها الازمات الاقتصادية ، لهي ادّلة أكثر اقناعاً بضرورة الاشتراكية من الدفتر الذي يعرض فيه اتلنتيكس حساباته الاشتراكية . ان الخدمة التي قدّمها تكمن في كونه عبّر عن هذه الفوائد بواسطة ارقام تقريبية .

يحق لنا ، استناداً الى ما ورد ، ان نخلص الى أن النمو المضطرد لطاقة الانسان التقنية سوف يزيد من منافع الاشتراكية اكثر فأكثر ، وأن الشروط المسبقة للتقنية الكافية لتحقيق الانتاج الجماعي متوفرة منذ مئة او مئتي سنة ، وان الاشتراكية في الوقت الحاضر **مفيدة من الناحية التقنية** ليس على الصعيد الوطني فحسب وانما على الصعيد العالمي الى حد بعيد أيضاً .

إن مجرد توفر الفوائد التقنية لم يكن وحده كافياً لتحقيق الاشتراكية . لقد تجلت فوائد الانتاج الكبير على شكل رأسمالي وليس على شكل اشتراكي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولم تنفذ مشاريع بيلرز او فورييه . لماذا ؟ لأن القوى الاجتماعية المؤهلة والمستعدة لتنفيذها لم تكن قد وجدت بعد .

٢ ــ ننتقل الآن من الشروط المسبقة ذات الطابع الانتاجي والتقني الى

الشروط المسبقة للاشتراكية ذات الطابع **الاجتماعي – الاقتصادي** . لو لم نكن نعالج في هذا المضمار مجتمعاً يمزّقه التناقض الطبقي ، وانما مجتمع منسجم يختار بوعي شكل نظامه الاقتصادي لكانت حسابات اتلنتيكس كافية ، ولا شك ، للشروع في بناء الاشتراكية. هكذا، بالتأكيد، كان اتلنتيكس ، ذلك الاشتراكي المبتذل ، ينظر الى ما قام به . إن وجهة النظر هذه لم يعد بالامكان تطبيقها في الوقت الحاضر إلا ضمن حدود عمل رجل اعمال فردي او شركة . ومن حقنا ان نفترض ان المالكين لن يقبلوا بأية خطة للاصلاح الاقتصادي ، كإدخال الآلية الحديثة واستعمال مواد خام جديدة او شكل جديد من أشكال تنظيم العمل أو أنظمة جديدة للترقم ، إلا اذا أمكن تبيان الفائدة التجارية التي تنتج عنها .غير ان هذا ليس كافياً ما دمنا في صدد معالجة اقتصاد مجتمع بكامله . إن مصالح متضاربة تتصارع هنا . فما هو لصالح الواحد ليس لصالح الآخر . وإن أنانية الطبقة الواحدة لا تسيء الى أنانية الطبقة الأخرى فحسب وانما تسيء الى المجتمع بأسره ايضاً . لذا فالشرط الضروري لتحقيق الاشتراكية هو ان يوجد ، بين الطبقات المتعادية في المجتمع الرأسمالي قوّة اجتماعية لها مصلحة ، بحكم ظرفها الموضوعي ، في تحقيق الاشتراكية وتكون على جانب من القوة بحيث تستطيع ان تتغلب على المصالح والهجمات المعادية لكي تحقق هذه الاشتراكية .

إن احدى الخدمات الاساسية التي قدمتها الاشتراكية العامية هي انها اكتشفت ، على الصعيد النظري ، ان البروليتاريا هي هذه القوة الاجتماعية ؛ وبيّنت ان هذه الطبقة ، التي تنمو بشكل حتمي مع نمو الرأسمالية ، لا تجد خلاصها الا في الاشتراكية ؛ وان وضع البروليتاريا العام يدفعها نحو الاشتراكية وانه لا بد للاشتراكية من ان تصبح في المدى البعيد ايديولوجية الطبقة العاملة .

من السهل إذن ، ان نتبين الخطوة الجبارة الى الوراء التي خطاها اتلنتيكس عندما يؤكد انه حالما يثبت « ان انتقال وسائل الإنتاج الى يد الدولة لا يوفر البحبوحة العامة فحسب بل يؤدي الى تخفيض يوم العمل أيضاً، يجعل من موضوع تأكيد صحة نظرية تمركز رأس المال واختفاء الطبقات الوسطى في المجتمع

موضوعاً لا أهمية له » .

ويعتبر اتلنتيكس انه طالما تتأكد فوائد الاشتراكية «يغدو من العبث تعليق الآمال على صنم التطور الاقتصادي ، ويتوجب القيام بتحريات واسعة والشروع [!] في التحضير الكامل الشامل للانتقال من الانتاج الفردي الى الانتاج الحكومة او الاجتماعي[1] » .

عندما يعترض اتلنتيكس على الطابع المعارض البحث لتكتيك الاشتراكيين ــ الديمقراطيين ، ويقترح « الشروع » فوراً في التحضير للانتقال الى الاشتراكية ، انما ينسى ان الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ما زالوا يفتقرون الى القوة اللازمة لتحقيق ذلك ، وان وليم الثاني وبولاو وغالبية أعضاء الرايخستاغ الالمان لا ينوون مطلقاً ان يدخلوا الاشتراكية رغم كونهم يمسكون بزمام الحكم . وإن خطط اتلنتيكس الاشتراكية ليست اكثر إقناعاً لسلالة الهوهنزولرن مما كانت عليه خطط فورييه بالنسبة لسلالة البوربون ؛ ولا يجب ان يغيب عن أذهاننا ان فورييه قد بنى « مدينته الفاضلة السياسية » على بدع حماسية في حقل النظرية الاقتصادية ، في حين ان اتلنتيكس ، الذي لا يقل طوباوية عن فورييه في حقل السياسة ، قد بنى نظريته على احصائيات رزينة متحذلقة .

ما هو المستوى الذي يجب ان يبلغه التمايز الطبقي لكي يتحقق الشرط المسبق الثاني للاشتراكية ؟ وبكلمات أخرى : ماذا يجب ان يكون الثقل العددي النسبي للبروليتاريا ؟ هل يجب أن يشكل نصف عدد السكان ام ثلثيه ام تسعة أعشاره؟ انه لمن العبث ان نحاول تعريف الحدود الحسابية المجرّدة لهذا الشرط المسبق الثاني للاشتراكية ؟ ففي الدرجة الاولى ، علينا ان نقرر ، في نطاق هذا المجهود المنهجي ، من هو الشخص الذي يمكن تصنيفه بانه بروليتاري ؟ هل يجب ان نضع تحت هذا الاسم تلك الفئة الواسعة التي تقع بين البروليتاريا والفلاحين ؟ هل يجب ان نضم الجماهير الاحتياطية بروليتاريا المدن ، الذين يندمجون في البروليتاريا الطفيلية كمتسولين ولصوص من جهة ، او يملأون من جهة أخرى .

---

١ - اتلنتيكس : « دولة الغد) ـ سان بطرسبرغ ـ ١٩٠٦ ـ ص ٢٢و٢٣(ل.ت.).

شوارع المدينة كتجار صغار يلعبون دوراً طفيلياً فيما يتعلق بالنظام الاقتصادي ككل ؟ ليست المسألة مسألة بسيطة على الاطلاق .

إن أهمية البروليتاريا تعتمد كلياً على الدور الذي تلعبه في الانتاج الكبير . ان البرجوازية تعتمد ، في نضالها من أجل السيطرة السياسية ، على قوتها الاقتصادية. وقبل ان تتمكن من تأمين السيطرة السياسية تعمد إلى حصر وسائل الانتاج في البلد بين أيديها . هذا هو العامل الذي يحدّد وزنها في المجتمع . ومهما يكن من أمر ، فإن البروليتاريا ، بالرغم من الأوهام التعاونية ، ستظل محرومة من وسائل الانتاج الى حين قيام الثورة الاشتراكية . إن قوتها الاجتماعية تكمن في كونها هي التي تستطيع تحريك وسائل الانتاج التي تسيطر عليها البرجوازية. والبروليتاريا هي ، من وجهة النظر البرجوازية ، احدى وسائل الانتاج التي تكون بالتقائها مع الوسائل الأخرى تركيباً موحّداً ، ولكن البروليتاريا هي وحدها الجزء غير الآلي في هذا التركيب ، ولا يمكن تحويلها الى وضع آلة اوتوماتيكية مهما بذلت البرجوازية من مجهود. ان هذا الظرف يخوّل البروليتاريا ان توقف مسيرة اقتصاد المجتمع ، جزئياً او كلياً ، بواسطة اضرابات جزئية أو عامة . ويتضح من هذا ان أهمية البروليتاريا تتزايد بنسبة موازية لتزايد عدد القوى الانتاجية التي تتولى تحريكها . هذا يعني ، ان العامل في مصنع كبير ، إذا ظلت العوامل الأخرى ثابتة ، يملك ثقلاً اجتماعياً أكبر من الثقل الذي يملكه عامل يدوي ؛ وكذلك يملك العامل في المدينة ثقلاً اكبر من ذلك الذي يملكه العامل في الريف . وبكلمات أخرى، فإن الدور السياسي الذي تلعبه البروليتاريا يتعاظم بقدر ما يزداد طغيان الانتاج الكبير على الانتاج الصغير ، وبقدر ما تسيطر الصناعة على الزراعة وتسيطر المدينة على الريف . وإذا عدنا الى تاريخ المانيا او انكلترا في الحقبة عندما كانت بروليتاريا هاذين البلدين تشكل نسبة من عدد السكان موازية للنسبة التي تشكلها البروليتاريا الآن في روسيا ، نجد ان أهميتها الموضوعية لم تكن تؤهلها ان تلعب دوراً سياسياً كالدور الذي تلعبه البروليتاريا في روسيا الآن .

ان الشيء نفسه ينطبق على دور المـدن ، كما سبق ورأينا . عندما كان عدد سكان المدن في المانيا يشكل ١٥٪ فقط من مجموع عـدد السكان في البلد ، كما هو الوضع بالنسبة لروسيا الآن ، لم يخطر ببـال أحد ان المدن الألمانية تستطيع ان تلعب دوراً في حياة البلد الاقتصادية والسياسية كالذي تلعبه المدن الروسية في أيامنا هذه . إن حصر المؤسسات الصناعية والتجارية الكبيرة في المدن ، وربط المدن بالريف بواسطة شبكة سكة حديد قد اضفى على مدننا اهمية تفوق بكثير أهمية عدد سكانها فقط ؛ ان تزايـد أهميتها قد سبق باشواط بعيدة نمو عـــدد سكانها ، في حين ان نمو عدد سكان المدن قـــد فاق بدوره الزيادة الطبيعية لعدد السكان في الريف بشكل عـــام ... وفي ايطاليا عام ١٨٤٨ لم يكن عدد العمال اليدويين – ليس البروليتاريين منهم فحسب وانما الصنّاع المستقلين – يزيد عن ١٥٪ من مجموع عدد السكان،انه ليس أقل من نسبة العمال اليدويين والبروليتاريين في روسيا الآن . ولكن الدور الذي كان يلعبه هؤلاء كان أضعف بكثير من الدور الذي تلعبه البروليتاريا الصناعية في روسيا .

يجب ان يتضح من جميع ما قيل ان نحـاول بشكل مسبق تحديد النسبة من مجموع السكان التي يجب أن تكون في صفوف الطبقة العاملة في لحظة الاستيلاء على الحكم لهي مهمة لا تثمر . عوضاً عن ذلك ، سوف نقدم بعض الأرقام التقريبيـة التي تبيّن القوة العـددية النسبية للطبقة العـــاملة في البلدان المتقدمة في الوقت الحاضر . كان عدد السكان العـــاملون في المانيا عام ١٨٩٥ يبلغ ٢٠،٥٠٠،٠٠ (هذا الرقم لا يشمل الجيش ولا الموظفـــين أو الأشخاص الذين لا يشتغلون في عمل محدّد) ومن هذا العدد ، كان هناك ١٢،٥٠٠،٠٠٠ عاملاً (بما فيهم العمال المأجورون في الزراعة والصناعة والتجـــارة والخدمات البيتية) ، وكان عدد العمال والعمال الزراعيين ١٠،٧٥٠،٠٠٠. وكان العدد الأكبر من الـ ٨،٠٠٠،٠٠٠ الباقية من البروليتاريين أيضاً من عمال في الصناعات المنزلية من أفراد العـــائلة العـاملين . إلى آخره . وكان عدد العمال المـــأجورين في الزراعة يبلغ وحده ٥،٧٥٠،٠٠٠ عاملاً. فكان السكان العاملون في الزراعة يشكلون ٣٦٪ من مجموع

عدد السكان في البلد . نكرّر ان هذه الارقام تشير الى الوضع عام ١٨٩٥ . لقد احدثت السنوات الاحدى عشر الأخيرة تغييراً هائلاً ، ولا شك ، في اتجـاه زيادة نسبة سكان المدن على نسبة سكان الريف (كان عدد سكان الريف يشكل عام ١٨٨٢ ، ٤٢٪ من المجموع) ، وفي اتجاه زيادة نسبة البروليتاريا الصناعية على نسبة البروليتاريا الزراعية ، وأخيراً في اتجاه زيادة كمية رأس المال المنتج لكل عامل صناعي عما كانت عليه عام ١٨٩٥ . ولكن حتى أرقـام ١٨٩٥ تبيّن ان البروليتاريا الالمانية تشكل القوة الانتاجية الطاغية في البلد منذ زمن بعيد .

إن بلجيكا بلد صناعي بحت يبلغ عـدد سكانه ٧،٠٠٠،٠٠٠ شخصاً . ومن بين كل مئة شخص يعملون في عمل أو في آخر ، يعمل ٤١٪ منهم في الصناعة بالمعنى الضيّق لهذه الكلمة ، ويعمل ٢١٪ فقط في الزراعة . ومن بين ٣،٠٠٠،٠٠٠ شخص يعملون بشكل ثابت يوجد ١،٨٠٠،٠٠٠ منهـم في صفوف البروليتاريا أي ٦٠٪ . وتصبح الصورة اكثر وضوحاً عندما نضيف الى البروليتاريا المتميّزة بوضوح العناصر الاجـتماعية المرتبطة فيها ، مـا يسمى بالمنتجين « المستقلين » كالموظفين الصغار والجنود ، الى آخره الذين هم مستقلون شكلاً فقط في حـين انهم عبيد لرأس المال فعلاً .

وتمثل بريطانيـا المكانة الاولى فيما يتعلق بتصنيع الاقتصاد وإفقار السكان . ففي عام ١٩٠١ ، بلغ عدد الاشخاص الذين يعملون في الزراعة ، والتحريـج وصيد الاسماك ٢،٣٠٠،٠٠٠ شخصاً ، في حين بلغ عـدد العاملين في الصناعة والتجارة والنقل ١٢،٥٠٠،٠٠٠ شخصاً . وهكذا نرى ان سكان المدن يفوقون سكان الريف عدداً في البلدان الاوروبية الرئيسية . غير ان الطغيان العظيم لسكان المدن لا يكمن فقط في كتلة القوى الانتاجية التي يكونوها ، وانمـا في التكوين النوعي لأفرادها . فالمدينة تجذب اكثر العناصر حيوية وذكاء ومقدرة من الريف . ان محاولة إثبات هذا بواسطة الاحصائيات لامر صعب ، رغم ان المقارنـة في تركيب الاعمار لسكان المدينة والريف هو دليـل غير مباشر على ذلك . ولهذه الحقيقة دلالتها الخاصة . ففي المانيا عام ١٨٩٦ كان عدد الذين يعملون في الزراعة

٨،٠٠٠،٠٠٠ وكان عدد الذين يعملون في الصناعة ٨،٠٠٠،٠٠٠ ايضاً. ولكن اذا قسمنا السكان وفق أعمارهم ، نجد ان عدد الذين يعملون في الزراعة يفوقون عدد الذين يعملون في الصناعة بمليون شخص من سليمي الابدان تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ٤٠ عاماً . هذا يظهر ان « الكهول واليافعين » هم الذين يبقون بشكل خاص في الريف .

ويؤدي بنا كل هذا الى الاستنتاج ان نمو الصناعة ، ونمو المشاريع الكبرى ، ونمو المدن ، ونمو البروليتاريا بشكل عام والبروليتاريا الصناعية بشكل خاص قد مهّد الطريق ليس فقط أمام **نضال** البروليتاريا من اجل السلطة السياسية وانما من أجل **استيلائها** على هذا الحكم كذلك .

٣ – أصبح بامكاننا الآن ان نعالج الشرط المسبق الثالث للاشتراكية : ديكتاتورية البروليتاريا. إن السياسة هي الصعيد حيث تتقاطع الشروط المسبقة الموضوعية للاشتراكية مع الشروط المسبقة الذاتية . ففي ظروف اجتماعية – اقتصادية محدّدة تضع طبقة معيّنة نصب اعينها هدف الاستيلاء على السلطة السياسية ، فتجمع قواها وتزن قوة العدو وتقدّر الوضع . حتى في هذا النطاق الثالث لا تكون البروليتاريا حرّة تماماً . فعلاوة عن العوامل الذاتية ، كالوعي والاستعداد والمبادرة التي يسير تطورها وفق منطق خاص، ستواجه البروليتاريا في معرض تنفيذها لسياستها عدداً من العوامل الموضوعية كسياسة الطبقات الحاكمة ، ومؤسسات الدولة الموجودة (كالجيش والمدارس الطبقية والكنيسة الحكومية) والعلاقات الدولية ، الى آخره .

سوف نعالج في باديء الامر الظروف الذاتية : استعداد البروليتاريا للثورة الاشتراكية . لا يكفي طبعاً ان يكون مستوى القضية قد جعل الاقتصاد الاشتراكي مفيداً من وجهة نظر انتاجية العمل الاجتماعي . ولا يكفي ايضاً ان يكون التمايز الطبقي الذي يقوم على هذه التقنية قد خلق طبقة عاملة هي الطبقة الأساسية نظراً لاعدادها وللدور الاقتصادي الذي تلعبه ، والتي لها مصلحة موضوعية في الاشتراكية . فمن الضروري ايضاً ان تكون هذه الطبقة **واعية**

لمصالحها الموضوعية ؛ من الضروري ان تكون قد فهمت ان لا مخرج لها إلا من خلال الاشتراكية ، ومن الضروري ان تنضوي تحت لواء جيش يكون من القوة بحيث يستطيع الاستيلاء على السلطة السياسية في معركة علنية .

انه لمن البلاهة في الوقت الحاضر ان ننكر ضرورة ان تتحضر البروليتاريا على هذا الشكل . ان « البلانكيين» الذين تخطاهم الزمن هم وحدهم الذين يأملون بالخلاص من خلال مبادرة منظمات تآمرية تتبلور بمعزل عن الجماهير ؛ اما الفوضويون ، الذين يقعون على طرفي نقيض معهم هم الذين يعتقدون بانتفاضة جماهيرية عفوية لا يمكن لأحد أن يتكهن بما ستؤدي اليه . إن الاشتراكيين — الديمقراطيين يعتبرون ان استلام السلطة هو **عمل واع تضطلع به طبقة ثورية .**

غير ان عدداً من الايديولوجيين[1] (بالمعنى السيىء لهذه الكلمة ، أي هؤلاء الذين يقلبون الأمور رأساً على عقب)يتكلمون عن تحضير البروليتاريا للاشتراكية بمعنى بعثها اخلاقياً . فيجب على البروليتاريا ، وحتى على « البشرية » جمعاء ، ان تتحرر بادىء بدء من طبيعتها الانانية القديمة ويجب ان تطغى الغيرية على الحياة الاجتماعية ، والى ما هنالك . وبما اننا ما زلنا بعيدين جداً عن مثل هذا الوضع ، وبما ان «الطبيعة البشرية» تتغيّر ببطء شديد ، إذن تؤجل الاشتراكية لمدة قرون . قد تبدو وجهة النظر هذه واقعية جداً وتطورية والى ما هنالك، ولكنها ليست في الواقع سوى ضرب من التبشير الاخلاقي الضحل .

ويُفترض انه يجب تنمية النفسية الاشتراكية قبل قيام النظام الاشتراكي ، وبكلمات أخرى انه من الممكن الوصول الى نفسية اشتراكية في ظل النظام الرأسمالي.لا يجب ان نخلط، في هذا المضمار ، بين الاتجاه الواعي نحو الاشتراكية وبين النفسية الاشتراكية . فإن هذه الاخيرة تفترض تحرّر الحياة الاقتصادية من الدوافع الانانية،في حين ينبثق الاتجاه نحو الاشتراكية والنضال لبلوغها من النفسية

---

١ — الملاحظ ان تروتسكي في هذا الكتاب وفيما عدا هذا الاستثناء فقط يستعمل عبارة « ايديولوجية » بمفهومها الشائع المرادف لعقيدة ، وليس بمفهومها الماركسي الذي يطلق لقب ايديولوجية على كل تمثل جزئي او زائف للواقع . (المترجم)

الطبقية عند البروليتاريا . ومهما يكن من أمر ، ثمة نقاط التقاء عديدة بين النفسية الطبقية عند البروليتاريا وبين نفسية المجتمع اللاطبقي ، ولكن ثمة بون شاسع يفصل بينهما .

يولّد النضال المشترك ضد الاستغلال ومضات رائعة من المثالية والتضامن الرفاقي والتضحية بالنفس؛ وفي الوقت نفسه فإن الصراع الفردي من اجل البقاء، وهوّة الفقر السحيقة ، والتمايز في صفوف العمّال انفسهم ، وضغط الجماهير الجاهلة من تحت تأثير الاحزاب البرجوازية الفاسد لا تسمح لهذه الومضات الرائعة ان تتطور بشكل كامل . ومع هذا كله ، ورغم ان العامل العادي يبقى انانياً متحذلقاً ولا يفوق الممثل العادي للطبقات البرجوازية في « القيمة الانسانية » ، رغم هذا كله يعرف هذا العامل من خلال التجربة انه لا يمكن ايفاء أبسط **متطلباته واهوائه الطبيعية الا** على انقاض النظام الرأسمالي ...

اذا كانت الاشتراكية تهدف الى خلق طبيعة بشرية جديدة ضمن حدود المجتمع القديم فهي لن تكون الا نسخة جديدة عن الطوباويات الاخلاقية . إن الاشتراكية لا تهدف الى خلق نفسية اشتراكية كشرط مسبق للاشتراكية، وانما تهدف الى خلق ظروف حياة اشتراكية كشرط مسبق للنفسية الاشتراكية .

٨ - الحكومة العمّاليّة في روسيا والاشتراكيّة

لقد بيّنا في الفصل السابق ان التطور الاقتصادي في البلدان الرأسمالية المتقدمة قد خلق المتطلبات الموضوعية لقيام الثورة الاشتراكية . ولكن ، ما الذي نستطيع قوله في هذا المجال بصدد روسيا ؟

هل بمقدورنا ان نتوقع ان يكون انتقال الحكم الى البروليتاريا الروسية بداية لتحويل اقتصادنا الوطني الى اقتصاد الاشتراكي ؟ منذ سنة اجبنا على هذا السؤال في مقالة شنت عليها الصحف الناطقة بلسان كلا الجناحين في حزبنا هجوماً عنيفاً . وفي تلك المقالة قلنا ما يلي :

« يقول ماركس : « ان عمال باريس لم يطلبوا من العامية التي أقاموها ان تصنع المعجزات ». ونحن أيضاً لا يجب ان نتوقع معجزات سريعة من دكتاتورية البروليتاريا الآن . فالسلطة السياسية ليست جبروتاً سماوياً . ومن العبث الافتراض انه يكفي ان تستلم البروليتاريا الحكم لتستبدل الرأسمالية بالاشتراكية بواسطة بضعة قرارات . ان النظام الاقتصادي لا تصنعه أعمال الحكومة . وكل ما تستطيع البروليتاريا ان تقوم به هو ان تستعمل قوتها السياسية بكل الزخم المتوفر لديها لتعبد طريق الانتقال الى الجماعية وتقصرها .

في البدء ، تحقق البروليتاريا تلك الاصلاحات المدرجة في ما يسمى ببرنامج الحد الأدنى ، ثم يفرض عليها وضعها ذاته ان تنتقل مباشرة الى اتخاذ الاجراءات التجميعية .

ان سن قوانين الثماني ساعات عمل في اليوم والضريبة التصاعدية على الدخل

ستكون أموراً سهلة نسبياً ، ولكن حتى في هذا المضمار يكون مركز الثقل هو في تنظيم عملية تنفيذ هذه القوانين وليس في سن « القوانين » بحد ذاتها . ولكن الصعوبة الأساسية هي في تنظيم الدولة للانتاج في تلك المصانع التي أغلقها اصحابها رداً على إصدار هذه القوانين – وهنا يكمن الانتقال الى الجماعية ! وسيكون من السهل نسبياً اصدار قانون يلغي حق الإرث وتطبيقه . فالمواريث التي على شكل رأس مال نقدي لن تحرج البروليتاريا ولن تثقل على اقتصادها . ولكن لكي تتمكن الدولة العمالية من ان تلعب دور الوريث للأرض ولرأس المال الصناعي يجب أن تكون مهيأة لتنظيم الانتاج الاجتماعي .

ان نفس القول ينطبق ولكن على مدى أوسع على مصادرة الممتلكات ا كانت هذه المصادرة بتعويض أم بدون تعويض . ان المصادرة بتعويض مفيدة سياسياً ولكنها صعبة التحقيق من الناحية المالية ، بينما المصادرة بدون تعويض مفيدة من الناحية المالية ولكنها صعبة التحقيق على الصعيد السياسي . ولكن المصاعب الكبرى هي التي ستواجه الحكومة العمالية خلال تنظيمها للانتاج . نكرّر : ان حكومة البروليتاريا ليست حكومة تصنع المعجزات .

يجب ان يبدأ التحويل الاشتراكي في الانتاج بتلك الفروع من الصناعة التي تقدم أقل قدر ممكن من المصاعب . فتكون الصناعة الاشتراكية ، في الفترة الأولى ، شبيهة بعدد من الواحات ترتبط بالقطاع الخاص بواسطة القوانين التي تنظم دورة البضاعة . وبقدر ما يرسخ النظام السياسي الجديد بقدر ما تكون الاجراءات الاقتصادية التي تتخذها البروليتاريا فيما بعد أكثر جرأة . ففي هذه الاجراءات تستطيع ويجب عليها لا فقط ان تعتمد على قوى الانتاج الوطنية ولكن على التقنية في العالم كله أيضاً ، مثلما لن تعتمد في سياستها الثورية على تجربة العلاقات الطبقية داخل البلد فحسب ولكن تعتمد ايضاً على التجربة التاريخية كلها التي خاضتها البروليتاريا العالمية » .

ان سيطرة البروليتاريا السياسية تسير في خط عكسي مع عبوديتها الاقتصادية . ومهما تكن الشعارات التي جاءت باسمها البروليتاريا الى الحكم فانها

مجبرة على السير في طريق السياسية الاشتراكية . انه لمن الطوباوية المفرطة ان نعتقد انه بامكان البروليتاريا ، التي يدفعها التركيب الداخلي للثورة البرجوازية الى استلام السلطة السياسية ، ان تحصر رسالتها في خلق الظروف الديمقراطية والجمهورية لسيطرة البرجوازية اجتماعياً ؛ انها لن تتمكن من ذلك حتى ولو كانت تريده . ان سيطرة البروليتاريا السياسية ، حتى ولو كانت آنية ، سوف تضعف الى حد بعيد من مقاومة رأس المال الذي يحتاج دوماً الى مساندة الدولة له بحيث تفتح آفاقاً جديدة أمام نضال البروليتاريا الاقتصادي . ان العمال لا يمكن أن يطالبوا الحكومة الثورية بالتعويض على المضربين ، ولا يمكن لحكومة تعتمد على العمال ان ترفض مثل هذا الطلب . على ان هذا يؤدي الى ابطال مفعول جيش العمل الاحتياطي وإلى جعل العمال مسيطرين ليس في المجال السياسي فحسب ولكن في المجال الاقتصادي أيضاً ، فتتحول الملكية الفردية في وسائل الانتاج الى خرافة ليس إلا . هذه النتائج الاجتماعية – الاقتصادية الحتمية لدكتاتورية البروليتاريا سوف تبرز بسرعة فائقة ، حتى قبل الانتهاء من إرساء النظام السياسي على أسس ديمقراطية. ان الحاجز الذي يفصل بين برنامج « الحدالأدنى » وبرنامج « الحد الأقصى » ينهار حالاً عند مجيء البروليتاريا إلى الحكم .

ان أول أمر يجب أن يعالجه النظام البروليتاري عند استلامه للحكم هو حل القضية الزراعية التي يتوقف عليها مصير جماهير غفيرة من الشعب الروسي . وفي معرض حل هذه القضية ، وأية قضية أخرى ، على البروليتاريا ان تضع نصب أعينها الهدف الأساسي لسياستهاالاقتصادية اي السيطرة على أوسع قطاع ممكن تنفذ فيه تنظيم الاقتصاد الاشتراكي . إلا ان الطريقة التي تنفذ فيها هذه السياسة الزراعية وسرعة هذا التنفيذ تعتمدان على الموارد المادية الموضوعة تحت تصرف البروليتاريا وعلى العمل بحذر حتى لا تدفع بالحلفاء الممكنين إلى صفوف أعداء الثورة .

ان القضية **الزراعية** ، اي قضية مصير الزراعة في علاقاتها الاجتماعية لا تقتصر بالطبع على قضية **الأرض** اي على قضية أشكال ملكية الأرض . ولا

شك في ان حل قضية الأرض ، حتى وإن كان لا يحدد مصير التطور الزراعي ، فانه على الأقل يحدد مصير السياسة الزراعية التي تنتهجها البروليتاريا . وبكلمات أخرى ، فان موقف النظام البروليتاري من قضية الأرض سيكون على ارتباط وثيق بموقفه العام من اتجار التطور الزراعي ومقتضياته . لهذا السبب تحتل القضية الزراعية المكانة الأولى .

ان احد الحلول لقضية الأرض، التي جمع حولها الاشتراكيون – الثوريون تأييداً واسعاً هو تأميم كل الأرض ، وهذه العبارة ، اذا جردناها من طلائها الأوروبي ، تعني مجرد « المساواة في استثمار الأرض »(او « التوزيع الأسود »). وهكذا فإن توزيع الأرض بالتساوي يفترض مصادرة جميع الأراضي ليس فقط الأراضي المملوكة فردياً بشكل عام وانما تلك التي يملكها الفلاحون فردياً وحتى اراضي المشاع . فإذا تذكرنا ان هذه المصادرة ستكون من أولى اجراءات النظام الجديد ، حيث تكون علاقات الرأسمالية – البضاعية ما تزال طاغية ، نجد ان الفلاحين سيكونون أول « ضحايا » هذه المصادرة (او بالأحرى هذا ما سوف يعتقدون). وإذا تذكرنا ان الفلاح كان يدفع ، خلال عدة عقود ، رسوم الاعفاء التي حوّلت الأرض الى ملك فردي له ؛ وإذا تذكرنا ان بعض الفلاحين الميسورين قد استملكوا مساحات شاسعة من الأرض بشكل فردي على حساب تضحيات كبيرة ولا شك ما زال الجيل الحالي يدفع ثمنها ؛ إذا تذكرنا كل هذا يسهل علينا ان نتوقع ان محاولة تحويل الأراضي المشاعية والملكيات الفردية الصغيرة إلى املاك دولة سوف تلقى مقاومة عنيفة . ان النظام الجديد اذا تصرف بهذا الشكل سوف يبدأ باثارة معارضة قوية ضده في أوساط الفلاحين .

ما هو السبب الذي يدعو لتحويل الأراضي المشاعية والملكيات الفردية الصغيرة الى أملاك دولة ؟ لكي تغدو ، بشكل او آخر ، تحت تصرف جميع مالكي الأرض ، بما فيهم الفلاحون الذين لا أرض لهم والعمال الزراعيون ، ليستثمروها اقتصادياً « بالتساوي » . وهكذا لن يربح النظام الجديد شيئاً على **الصعيد الاقتصادي** بمصادرة الملكيات الصغيرة والأرض المشاع ما دامت أراضي

الدولة والأراضي العامة سوف يجري استثمارها على شكل الملكيات الفردية بعد توزيعها . أما على **الصعيد السياسي** ، فان النظام الجديد يكون قد ارتكب بذلك خطأ كبيراً لأنه سيحرض جماهير الفلاحين ضد بروليتاريا المدن ، موجهة السياسة الثورية .

الى جانب ذلك ، يسلّم التوزيع العادل للأرض بانه سيجري تحريم تشغيل العمال لقاء أجر قانونياً . إن الغاء العمل المأجور يمكن ويجب ان يكون **نتيجة** للاصلاح الاقتصادي ، ولكن لا يمكن تحديده بشكل مسبق بالتحريم القانوني . فلا يكفي ان نحرم على الرأسمالي صاحب الأرض ان يشغل العمال لقاء اجر ، يجب علينا أولاً ان نضمن للعامل غير المالك للأرض سبل البقاء على قيد الحياة ، السبل المعقولة من وجهة النظر الاجتماعية – الاقتصادية . تحت برنامج المساواة في استثمار الأرض ، يؤدي تحريم تشغيل العمال لقاء اجر الى اجبار العمال غير المالكين للأرض على الاستيطان في قطع صغيرة من الأرض من جهة ، واجبار الحكومة على تزويدهم بالمواد والمعدات اللازمة لانتاجهم غير المعقول من وجهة النظر الاجتماعية .

من المفهوم طبعاً ان تدخل البروليتاريا في تنظيم الزراعة لن يبدأ بربط العمال المشتتين بقطع أرض مبعثرة ، ولكن باستثمار الملكيات الواسعة من قبل الدولة أو العاميات . وفقط بعدما تترسخ أسس الإنتاج الاشتراكي يمكن دفع عملية التحويل الاشتراكي الى الامام نحو تحريم العمل المأجور . هذا سيجعل الزراعة الرأسمالية الصغيرة مستحيلة ، لكنه يفسح المجال امام بقاء الملكيات التي تكفي نفسها بنفسها أو التي تقترب من الكفاف ، ان المصادرة القسرية لهذه الملكيات لا يدخل ضمن نطاق مشاريع البروليتاريا الاشتراكية .

وعلى كل حال ، فلا يمكن ان نتعهد بتنفيذ برنامج توزيع عادل يسلّم بمصادرة محض شكلية ولا هدف لها للملكيات الصغيرة من جهة ويطالب بتفتيت الملكيات الواسعة الى قطع صغيرة من جهة أخرى . إن هذه السياسة الخاسرة من وجهة النظر الاقتصادية ، لا يمكن الا ان تخفي وراءها دافعاً رجعياً –

طوباوياً ، وسوف تؤدي قبل كل شيء الى اضعاف الحزب الثوري سياسياً .

* * *

ولكن الى أي مدى تستطيع الطبقة العاملة ان تنفذ سياستها الاشتراكية في ظروف روسيا الاقتصادية ؟ شي واحد اكيد هو انها سوف تصطدم بعراقيل سياسية قبل ان تصطدم بالعراقيل التي يضعها في طريقها تخلف البلد التقني. **بدون مساعدة حكومية مباشرة تقدمها لها البروليتاريا الاوروبية لن تتمكن الطبقة العاملة في روسيا من البقاء في الحكم وتحويل سيطرتها الآنية الى دكتاتورية اشتراكية دائمة** . هذا أمر لا شك فيه . ومن جهة أخرى، ليس هنالك ادنى شك في ان الثورة الاشتراكية في الغرب سوف تمكننا من تحويل سيطرة الطبقة العاملة الآنية حالاً الى دكتاتورية اشتراكية .

في عام ١٩٠٤ ، كتب كاوتسكي ، في معرض مناقشته لتوقعات التطور الاجتماعي في روسيا ولإمكان قيام ثورة مبكرة في روسيا ، ما يلي :

« إن الثورة في روسيا لا يمكن ان تؤدي حالاً الى قيام نظام إشتراكي . لأن الظروف الاقتصادية في البلد لم تنضج النضج الكافي لهذا الغرض » .

إلا ان الثورة الروسية ستكون بالتأكيد حافزاً للحركة البروليتارية في سائر بلدان أوروبا ، وكنتيجة للصراع الذي يدور قد تأتي البروليتاريا الالمانية الى الحكم . ويستطرد كاوتسكي قائلاً :

« إن نتيجة كهذه سيكون لها تأثيرها على أوروبا كلها . فيجب ان تؤدي الى سيطرة البروليتاريا السياسية في أوروبا الغربية، وتوفر للبروليتاريا في أوروبا الشرقية امكان تلخيص مراحل تطورها **فتشيد المؤسسات الاشتراكية بشكل مصطنع** ناقلة اياها عن الانموذج الالماني . لا يستطيع المجتمع ككل ان يقفز بشكل مصطنع عن اية مرحلة من مراحل تطوره ، ولكن تستطيع قطاعات من هذا المجتمع ان تستعجل تطورها المتأخر بتقليد البلدان الأكثر تقدماً ، وبفضل هذا التقليد قد تتمكن حتى من ان تصبح في طليعة ركب التطور لأنها

لا ترزح تحت ثقل التقاليد التي تحملها البلدان الأكثر قدماً منها ... من المحتمل ان يحصل ذلك ولكن ، كما قلنا سابقاً، اننا نترك هنا مجال الحتمية لندخل مجال **الاحتمال** ، لذا يمكن للأمور ان تسير في مجرى آخر » .

لقد كتب المفكر الديمقراطي – الاجتماعي الالماني هذه الاسطر في زمن كان يعالج فيه ما اذا كانت الثورة سوف تندلع في روسيا أم في الغرب أولاً. وفيما بعد، تفتقت البروليتاريا الروسية عن قوة هائلة لم يتوقعها الديمقراطيون– الاجتماعيون حتى في أكثر اللحظات تفاؤلاً . لقد تحدد مجرى الثورة الروسية فيما يتعلق بسماتها الاساسية . إن ما كان منذ سنتين أو ثلاث **ممكناً** قد أصبح **محتملاً** وكل الدلائل تشير الى انه على اهبته ان يصير **حتمياً** .

٩ - أوروبا والثورة

في حزيران عام ١٩٠٥ كتبنا ما يلي :

« لقد مرّ أكثر من نصف قرن على عام ١٨٤٨ ، نصف قرن من الانتصارات الرأسمالية المضطردة في العالم كله ، نصف قرن من التكـيّف المتبادل بين قوى الرجعية البرجوازية وقوى الرجعية الإقطاعية ، نصف قرن كشفت فيه البرجوازية النقاب عن شهوتها الجنونية للسيطرة واستعدادها للقتال بوحشية من أجلها .

« ومثلما يصطدم الباحث عن « الحركة الدائمة » بعقبات جديدة دوماً فيجمع الآلة تلو الآلة بغية تجاوزها ، كذلك بدّلت البرجوازية آلة حكمها واعادت بناءها بحيث تتفادى الصراع « غير القانوني » مع القوى المعادية لها . ولكن كما انه لا بد للباحث عن الحركة الدائمة من ان يصطدم في النهاية بعقبة لا يمكن تخطيها هي « قانون المحافظة على الطاقة » ، كذلك لا بد للبرجوازية من ان تصطدم في طريقها بالعقبة التي لا يمكن تخطيها أيضاً وهي التناقض الطبقي الذي لا يمكن تسويته إلا بواسطة الصراع .

«إن الرأسمالية إذ تربط جميع البلدان بعضها ببعض باسلوب انتاجها وبتجارتها تحوّل العالم بأسره الى كيان اقتصادي وسياسي واحد . وكما يربط التسليف الحديث آلاف المشاريع بوشائج غير منظورة ويتيح لرأس المال فرصة التحرك بسرعة مذهلة بحيث يحول دون حدوث عدة إفلاسات صغيرة ولكنه يسبب في الوقت نفسه موجة غير متوقعة من الازمات الاقتصادية العامة ، كذلك فإن كل

مجهود الرأسمالية الاقتصادي والسياسي وتجارتها العالمية ونظام الديون الحكومية الهائلة والتجمعات السياسية للدول التي تضمّ جميع القوى الرجعيـة في نوع من الشركة المساهمة العالمية قد حال دون وقوع جميع الازمات السياسية الافراديـة وخلق اساس ازمة اجتماعية ذات حجم فظيع في آن واحد . ان البرجوازية ، بعملها على طمس جميع معالم المرض وتفاديها للمصاعب وتأجيلهـا لجميع القضايا العميقة المتعلقة بالسياسة الداخلية والدولية وتمويهها لجميع التناقضات ، قـد استطاعت ان تؤجل الانفراج ولكنها مهدت بـذلك لتصفية جذرية لحكمها على الصعيد العالمي. لقد تمسكت البرجوازية بجشعبكل قوة رجعية دون ان تتحرّى أصلها . وما البابا والسلطان العثماني الا بعض من اصدقائها . والسبب الوحيـد لكونها لم توثق عرى « الصداقة » مع امبراطور الصين هو انه لا يمثل اية قوة . فكان من مصلحتها ان تنهب أملاكه عوضاً عن ان تحتفظ به في خدمتها ، مثلما تحتفظ بشرطتها التي تدفع لها من خزينتها الخاصة . وهكذا نجد ان البرجوازية العالمية قد جعلت استقرار حكمها يعتمدالى أقصى حد على عدم استقرار الجيوب الرجعية الموروثة عن عهد ما قبل البرجوازية .

ان هذا يضفي على الأحداث التي نشاهدها طابعاً دولياً ويفتح امامنا آفاقاً واسعة . ان تحرّر روسيا السياسي بقيادة الطبقة العاملة سيرفع هذه الطبقة الى مستوى لم يعرفه التاريخ من قبل ويضع في متناول ايديها قوى وموارد جبـارة ويجعلها رائدة تصفية الرأسمالية العـالمية التي وفـّر التاريخ لها جميع الظروف الموضوعية » .

وإذا لم تبادر البروليتاريا الروسية ، بعد سيطرتها الآنيـة على الحكم ، إلى نقل الثورة الى الأرض الأوروبية ، فإن قوى الاقطاعية – البرجوازية الرجعية في أوروبا سوف **تجبرها** على ذلك . ومن العبث طبعاً أن نحدد في هـذا الوقت الوسائل التي يجب على الثورة الروسية ان تتبعها للانقضاض على اوروبا الرأسمالية القديمة . فقد تكشف هذه الوسائل عن نفسها بشكل مفاجىء . فلنأخذ مثال بولونيا لكونها حلقة وصل بين الشرق الثوري والغرب الثوري . اننـا نأخذ

هذا المثال لتوضيح فكرتنا الا اننا لا نعتبره توقعاً فعلياً لما قد يحدث في ذلك البلد .

ان انتصار الثورة في روسيا سوف يؤدي إلى الانتصار الحتمي للثورة في بولونيا . وليس من الصعب ان نتصوّر ان وجود نظام ثوري في المقاطعات البولونية العشر التي تسيطر عليها روسيا سوف يكون حافزاً لاندلاع الثورة في غاليسيا وبوزنان . وسوف تجيب حكومة سلالة الهوهنزولرن وحكومة سلالة الهابسبرغ على هذا بارسال الوحدات العسكرية الى الحدود البولونية بغية اجتيازها وسحق العدو في مركزه : وارسو . ومن الواضح ان الثورة الروسية لا تستطيع ترك جبهتها الغربية بين أيدي جنود بروسيا والنمسا . ستكون الحرب ضد حكومتي وليام الثاني وفرانز جوزيف ، في مثل هذه الظروف ، عملية دفاع عن النفس تلجأ اليها الحكومة الثورية في روسيا . فماذا يجب ان يكون موقف البروليتاريا في النمسا والمانيا آنذاك ؟ من البديهي انه لا يجوز ان تلتزم جانب الصمت بينما تخوض جيوش بلديها حرباً صليبية ضد الثورة . إن الحرب بين المانيا الاقطاعية – البرجوازية وبين روسيا الثورية سوف تؤدي بالضرورة الى اندلاع الثورة في المانيا . اننا نقول للذين يبدو لهم هذا القول مطلقاً للغاية ان يحاولوا التفكير باي حدث تاريخي آخر يكون اكثر ملاءمة لإجبار العمال الالمان على خوض معركة علنية لكشف قوتهم ضد الرجعيين الألمان .

عندما أعلنت حكومة تشرين في روسيا الاحكام العرفية في بولونيا فجأة ، سرت اشاعات تقول ان هذا قد تم تلبية لتعليمات مباشرة من برلين . وعشية حل مجلس الدوما ، هددت صحف الدولة بنشر اخبار عن الاتصالات التي جرت للتفاوض بين حكومتي برلين وفيينا غايتها التدخل المسلح في شؤون روسيا الداخلية لقمع محاولة قلب الحكومة . ولم يفلح التكذيب الوزاري في محو تأثير الصدمة التي احدثتها انباء هذه الاتصالات . فقد اتضح ان خطة للثأر من الثورة بشكل دموي تعدّ في قصور الدول الثلاث المجاورة . وهل يمكن للأمور ان تكون غير ذلك ؟ هل تستطيع الملكيات شبه – الاقطاعية المجاورة ان تقف

مكتوفة الأيدي بينما تقترب نيران الثورة من حدود سلطانها ؟

ان الثورة الروسية، عندما كانت ما تزال بعيدة كل البعد عن احراز النصر، قد فعلت فعلها في التأثير على غاليسيا من خلال بولونيا . لقد صاح داسزنسكي في مؤتمر الحزب الاشتراكي – الديمقراطي البولوني في « لفوف » في شهر أيار من هذا العام : « من كان يستطيع ان يتكهن منذ عام بما يجري الآن في بولونيا ؟ لقد زرعت هذه الحركة الفلاحية الدهشة في كل انحاء النمسا . مقاطعة زباراز تنتخب اشتراكياً ديمقراطياً لمنصب نائب حاكم مجلس المقاطعة . والفلاحون يصدرون صحيفة اشتراكية ثورية موجهة لاخوانهم الفلاحين اسمها « الراية الحمراء » ، الاجتماعات الجماهيرية الضخمة تعقد بحضور ٣٠،٠٠٠ فلاح ، والمواكب التي تحمل الاعلام الحمراء وتنشد الأغاني الثورية تخترق شوارع قرى غاليسيا التي كانت هادئة لامبالية ... ماذا يحصل عندما تنطلق من روسيا صرخة تأميم الأرض وتصل الى مسامع هؤلاء الفلاحين المدقعين؟» منذ اكثر من عامين أشار كاوتسكي، في معرض حواره مع الاشتراكي البولوني « لوسنيا » الى أنه يجب ألا ننظر بعد الآن الى روسيا على انها كرة ثقيلة على اقدام بولونيا ، أو أن ننظر إلى بولونيا على انها قطاع شرقي من اوروبا الثورية يخترق كالرمح مجاهل البربرية الموسكوية . ويعتبر كاوتسكي انه في حال اندلاع الثورة الروسية وتحقيق انتصارها ، فان القضية البولونية «سوف تزداد حدّة مرة أخرى ولكن ليس بالمعنى الذي يريده لوسنيا . فهي لن تكون موجهة ضد روسيا هذه المرّة وانما ضد النمسا والمانيا ، والى مدى ما تخدم بولونيا قضية الثورة لن تظل مهمتها محصورة في الدفاع عن الثورة ضد روسيا وانما ان تنقل الثورة الى المانيا والنمسا » . إن هذا التنبوء أقرب الى التحقيق مما ظنه كاوتسكي .

بيد أن بولونيا الثورية ليست ، في أي حال من الأحوال ، المنطلق الوحيد للثورة في اوروبا . لقد اشرنا سابقاً الى ان البرجوازية قد امتنعت في جميع المناسبات عن حلّ العديد من القضايا الخطرة المعقدة التي تؤثر على السياسة الداخلية والخارجية . ولكونها وضعت اعداداً هائلة من الناس تحت السلاح لم تتمكن

الحكومات البرجوازية من ان تشق طريقها بالسيف وسط ادغال السياسة الدولية. ان حكومة تحظى بتأييد الأمة التي جرى المساس بمصالحها الحيوية او حكومة على شفير الهاوية تدفعها شجاعة اليأس تستطيع أن ترسل المئات والآلاف من البشر الى ساحات الحرب . ان الثقة الكبيرة بالنفس او المغامرة الجنونية قد ترمي بامتين في حلبة الصراع في ظل الظروف الحديثة للثقافة السياسية والعلم العسكري حيث يحق للجميع الانتخاب وحيث تطبق الخدمة العسكرية على الجميع . ففي الحرب الفرنسية – البروسية عام ١٨٧٠ كان بيسمارك يقاتل من أجل فرض سيطرة بروسيا على المانيا مما يؤدي الى تحقيق الوحدة القومية ، هذه الضرورة الأولية التي يؤمن بها كل الماني ؛ هذا في الجهة وفي الجهة الأخرى كانت هناك حكومة نابليون الثالث الصلفة والضعيفة التي تكرهها الأمة والمستعدة لأية مغارة تبقيها سنة أخرى في الحكم . وقد حصل توزيع الأدوار نفسه في الحرب الروسية – اليابانية . ففي جهة ، كانت حكومة الميكادو ، التي لم تعارضها بعد بروليتاريا ثورية ، تقاتل من أجل سيطرة رأس المال الياباني على الشرق الأقصى، وفي الجهة الأخرى كانت هناك حكومة فردية فات أوانها تسعى الى تغطية هزائمها الداخلية بتحقيق الانتصارات في الخارج .

في البلدان الرأسمالية القديمة لا يوجد مطالب « قومية »، أي مطالب **المجتمع البرجوازي ككل** تستطيع البرجوازية الحاكمة ان تدّعي انها حاميتها . ان حكومات فرنسا وبريطانيا والمانيا والنمسا عاجزة عن شن حروب قومية . إن مصالح الجماهير الحيوية ومصالح القوميات المضطهَدة والسياسة الداخلية البربرية التي تنتهجها دولة مجاورة كلها عاجزة عن دفع حكومة برجوازية واحدة الى الحرب ذات طابع تحريري وبالتالي قومي. ومن الناحية الثانية ، فان مصالح الجشع الرأسمالي التي تدفع ، بين الحين والآخر ، هذه الحكومة او تلك الى أن تقرقع بمهمازها وتلوح بسيفها في وجه العالم بأسره لا يمكن ان تلقى أي تجاوب بين الجماهير . لهذا السبب لا تستطيع البرجوازية ان تخوض حروباً قومية ولا أن تعلنها أو تقودها . فقد اتضح من تجربتين اثنتين في جنوب افريقيا والشرق

الأقصى المآل الذي آلت اليه الحروب المعادية للقومية .

ان الهزيمة الشنيعة التي منيت بها الرجعية الاستعمارية في بريطانيا لا تعود ، في التحليل الأخـــير ، الى الدرس الذي لقنتها إياه حرب « البوير » ، ان حق التقرير الذاتي السياسي الذي اكتسبته البروليتاريا البريطانيـــة هو نتيجة اكثر أهمية للسياسة الاستعمارية وأكثر تهديداً لمصالح البرجوازية ، وما إن يبدأ هذا التقرير الذاتي فلسوف يتقدم بخطوات سريعة. اما بالنسبة لتأثير الحرب الروسية ـ اليابانية على حكومة بتروغراد ، فـــانها جد معروفة بحيث لا حاجة للتوقف عندها . ولكن حتى اذا طرحنا هاتين التجربتين جانباً، نجد انه من اللحظة التي بدأت فيها البروليتاريا بالوقوف على رجليها امتلك الحكومات الاوروبية رعب دائم من ان تخيرها هذه بين الحرب والثورة . إن هذا الخوف من تمرد البروليتاريا بالذات هو الذي يفرض على البرجوازية ، حتى وهي تصوّت الى جانب صرف مبالغ طائلة من المال للحرب ، ان تصرِّح بخشوع بانها الى جانب السلم . وان تحلم « بلجان تحكيم دولية » وحتى بمنظمة الولايات المتحدة الاوروبية. انهذه التصريحات التعسة لا تستطيع ، طبعاً ، ان تلغي التناقضات الطبقية بين الدول ولا أن تؤجل الاصطدامات المسلحة .

إن السلم المسلح الذي كان قائمـــاً في أوروبا بعد الحرب البروسية ـ الفرنسية يعتمد على ميزان القوى في اوروبا الذي يفترض مناعة تركيا وتجزئة بولونيا والحفاظ على النمسا ، أي على وجود نوع من الفسيفساء الاثنية (فسيفساء الشعوب) ، كما يعتمد أيضاً على المحافظة على الحكم المطلق في روسيا مدججاً بالسلاح لكي يلعب دور شرطة الرجعية الأوروبية . إلا أن الحرب الروسية ـ اليابانية قد وجهت ضربة قاسية لهذا النظام الذي تجري المحافظة عليه بتصنع والذي يمثل الحــكم الفردي المــكانة الاولى فيه . فانفصلت روسيا عما يسمّى « القوى الاوروبية المتناغمة » (Concert of Powers) فانهار توازن القوى . ومن جهـــة أخرى ، أثارت انتصارات اليابان الغرائز العدوانية الكامنة في البرجوازية الرأسمالية وخاصة القطاع المصرفي منها الذي يلعب دوراً هاماً في السياسة المعاصرة . وتفاقم خطر

نشوب حرب في المنطقة الاوروبية . الصراعات تختمر في كل مكان ، وإذا قد تم حلها حتى الآن بالوسائل الدبلوماسيةفليس هناك من ضمانة ان تظل هذه الوسائل ناجحة الى زمن طويل . غير ان نشوب حرب أوروبية يعني حتماً اندلاع الثورة الاوروبية .

لقد اعلن الحزب الاشتراكي في فرنسا ، ابان الحرب الروسية – اليابانية ، انه إذا تدخلت الحكومة الفرنسية الى جانب الحكم الفردي في روسيا ، فانه سوف يدعو البروليتاريا الى اتخاذ اجراءات حاسمة قد تؤدي حتى الى العصيان . وفي آذار عام ١٩٠٦ ، عندما تجلّى الصراع بين فرنسا والمانيا حول مراكش ، اتخذ « المكتب الاشتراكي الدولي » قراراً بأنه في حال تفاقم خطر الحرب « سوف يضع افضل وسائل العمل تحت تصرف جميع الأحزاب الاشتراكية الدولية والطبقية العاملة المنظمة لمنع نشوب الحرب او لإنهائها » . وطبعاً بقي هذا القرار حبراً على ورق . فقد كان يحتاج الى نشوب حرب لامتحان صحته ، الا ان البرجوازية كان لها أسبابها التي تبرّر تهربها من مواجهة هذا الامتحان . ولكن ، من سوء حظ البرجوازية ان منطق العلاقات الدولية هو اقوى من منطق الدبلوماسية .

ان افلاس الدولة في روسيا ، أكان نتيجة لاستمرار البرقراطية في تسيير الأمور ام نتيجة لوجود حكومة ثورة ترفض ان تدفع ثمن شرور النظام القديم ، سيكون له تأثير بالغ على فرنسا.ان الراديكاليين ، الذين يسيطرون على مقدرات فرنسا السياسية الآن ، قد تعهدوا عند استلامهم الحكم باتخاذ جميع التدابير اللازمة لحماية مصالح رأس المال . لهذا السبب ، هناك أساس متين للافتراض ان الأزمة المالية المتأتية من افلاس روسيا سوف تنعكس بشكل مباشر على فرنسا على شكل أزمة سياسية حادة لا تنتهي الا بانتقال الحكم الى الاشتراكية . وبطريقة أو باخرى سوف تدخل الثورة حدود اوروبا الرأسمالية القديمة أكان ذلك من خلال اندلاع ثورة في بولونيا ام من خلال نتائج حرب اوروبية ام نتيجة لإفلاس الدولة في روسيا .

وحتى من دون ضغط الأحداث الخارجية ، كالحرب او الافلاس ، قد تندلع الثورة في المستقبل القريب في احد البلدان الأوروبية نتيجة لتفاقم الصراع الطبقي . لن نحاول الآن التكهن عن أي بلد من البلدان الأوروبية سوف يكون الأول في سلوك طريق الثورة ، ثمة أمر واحد لا شك فيه وهو أن التناقضات الطبقية في جميع البلدان الأوروبية قد بلغت درجة مرتفعة من الحدّة في الأزمنة الحديثة .

ان النمو المتضخم للحركة الاشتراكية – الديمقراطية في المانيا ، ضمن إطار دستور شبه مطلق ، سوف يؤدي بالبروليتاريا حتماً الى الدخول في صراع مكشوف ضد الملكية الاقطاعية – البرجوازية . ان موضوع مقاومة الانقلاب السياسي بواسطة الاضراب العام قد أصبح أحد الموضوعات الرئيسية في حياة البروليتاريا الألمانية السياسية منذ العام الماضي . وفي فرنسا ، ادى انتقال الحكم الى الراديكاليين الى تحطيم القيد عن أيدي البروليتاريا التي كانت مجبرة ، خلال مدة طويلة ، على التعاون مع الأحزاب البرجوازية في الصراع ضد القومية وضد سيطرة الكنيسة . إن الحزب الاشتراكي ، الذي أغناه التراث الحيّ للثورات الفرنسية الأربع ، يقف وجهاً لوجه امام البرجوازية المحافظة التي تتستر ببراقع الراديكالية . وفي بريطانيا ، حيث يتناوب الحزبان البرجوازيان على تحريك الأرجوحة البرلمانية منذ قرن ، اعتمدت البروليتاريا مؤخراً تحت تأثير سلسلة كاملة من العوامل على السير في طريق الانفصال السياسي . وبينما استغرقت هذه العملية أربعة عقود من الزمن في المانيا ، تستطيع الطبقة العاملة البريطانية ، التي تملك نقابات قوية تستند الى خبرتها في النضال الاقتصادي ، ان تصل إلى مقدمة جيش الاشتراكية الاوروبية بواسطة بضعة قفزات .

إن تأثير الثورة الروسية على البروليتاريا الأوروبية لهو تأثير بالغ الأهمية . فبالإضافة الى تحطيم الحكم المطلق في روسيا ، عماد الرجعية الأوروبية ، سوف توفّر هذه الثورة الشروط الأولية الضرورية لانبثاق الوعي الثوري في وعي الطبقة العاملة الأوروبية ومزاجها .

إن وظيفة الأحزاب الاشتراكية كانت وستبقى تنمية الوعي الثوري عند الطبقة العاملة ، تماماً مثلما يخلق التطور الرأسمالي ثورة في العلاقات الاجتماعية . ولكن عملية التحريك والتنظيم في صفوف البروليتاريا تملك قوتها الدافعة المتميّزة. لقد طغى طابع المحافظة على الاحزاب الاشتراكية الأوروبية ، وبخاصة الحزب الاشتراكي – الديمقراطي الألماني، اكبر هذه الأحزاب، بنسبة موازية لاعتناق الجماهير الواسعة للاشتراكية ولتنظيم هذه الجماهير ونمو انضباطها . وكنتيجة لذلك اصبحت الحركة الاشتراكية - الديمقراطية ، بوصفها المنظمة التي تجسّد تجربة البروليتاريا السياسية ، عقبة مباشرة أمام انفجار الصراع العلني بين العمال والرجعية البرجوازية . وبكلمات أخرى ، فان الطابع المحافظ الطاغي على الدعاية الاشتراكية للاحزاب البروليتارية قد يصبح ، في وقت معّين ، كابحاً أمام نضال البروليتاريا المباشر لاستلام الحكم . ويؤكد التأثير البالغ للثورة الروسية انه سوف يحطّم الروتين الحزبي وذهنية المحافظة ويضع قضية المبارزة بين البروليتاريا والرجعية الرأسمالية في حيّز التنفيذ . ان النضال من أجل حق الاقتراع للجميع في النمسا وساكسونيا وبروسيا قد تفاقم تحت التأثير المباشر لاضرابات تشرين الثاني في روسيا . ان الثورة في الشرق سوف تنقل عدوى المثالية الثورية الى البروليتاريا الغربية وتثير فيها الرغبة في التكلم « باللهجة الروسية » مع أعدائها. وإذا وجدت البروليتاريا الروسية نفسها في الحكم ، حتى ولو كان ذلك نتيجة للقاء آني للظروف في ثورتنا البرجوازية ، فهي سوف تواجه حملة عداء منظمة تشنها الرجعية العالمية من جهة ، وتجد من جهة ثانية استعداد البروليتاريا العالمية لمدّها بالمساعدة المنظمة .

وإذا تُركت الطبقة العاملة الروسية للاعتماد على قواها فقط ، فإن الثورة المضادة سوف تسحقها حتماً حالما يتخلى عنها الفلاحون ، فلن يكون امامها من بديل سوى ان تربط مصير حكمها السياسي ، وبالتالي مصير الثورة الروسية كلها ، بمصير الثورة الاشتراكية في اوروبا . وسوف يثقل السلطة الحكومية السياسية التي وفّرها لها التقاء آني للظروف في الثورة البرجوازية الروسية ، في

كفة الصراع الطبقي في جميع أنحاء العالم الرأسمالي . ان البروليتاريا الروسية الحاكمة إزاء وجود الثورة المضادة وراءها ، والرجعية امامها ، سوف ترسل الى رفاقها في جميع انحاء الأرض صيحة الحرب القديمة التي تكون هذه المرّة صيحة الهجوم الأخير : يا عمال العالم إتحدوا ! .

١٠ - النضال من أجل استلام الحكم [١]

امامي منشور حول برنامجنا وخططنا التكتيكية بعنوان « المهام التي تواجه البروليتاريا الروسية - رسالة الى الرفاق في روسيا » . وقد وقّع على هذه الوثيقة : ب . اكسلرود ، استروف ، ا . مارتينوف ، ل . مارتوف ، س . سيمكوفسكي .

تعالج هذه الرسالة موضوع الثورة بشكل عام للغاية ، ويزول الوضوح والدقة بانتقال المؤلفين من وصف الحالة التي اوجدتها الحرب الى التوقعات السياسية والاستنتاجات التكتيكية ، فتغدو المصطلحات نفسها مائعة والتعريفات الاجتماعية مبهمة .

يبدو للمراقب من الخارج ان روسيا يتنازعها اتجاهان : اتجاه حريص على الدفاع الوطني ، ويضم اناساً ابتداء من سلالة رومانوف وانتهاء ببليخانوف ؛ واتجاه آخر يعبّر الاستياء العام فيه عن نفسه باشكال عدة من نشوء « منظمة الفرند » البرقراطية المعارضة الى نشوب الاضطرابات في الشارع . ويخلق هذان الاتجاهان السائدان أيضاً أوهاماً عن حرية شعبية ستنبثق في المستقبل عن قضية الدفاع الوطني . وهذان الاتجاهان مسؤولان الى حد بعيد عن الغموض الذي يكتنف مسألة « الثورة الشعبية » حتى عندما توضع هذه المسألة مقابل مسألة « الدفاع الوطني » .

---

١ - نشرت في مجلة « ناشيه سلوفو » (باريس) ١٧ تشرين الثاني ١٩١٥ . (ل.ت.)

إن انتكاسات الحرب نفسها لم تخلق ازمة ثورية ولم تولّد أي قوى ثورية على هذه الازمة . إن التاريخ ، بالنسبة لنا ، لا يبدأ مع تسليم وراسو الى امير بافاريا . فالتناقضات الطبقية والقوى الاجتماعية ما تزال هي نفسها التي واجهناها عام ١٩٠٥ وقد طرأت عليها بعض التعديلات الهامة خلال السنوات العشر المنصرمة . إن كل ما فعلته الحرب هو انها كشفت بشكل آلي خطي النقاب عن الافلاس الموضوعي للنظام . ولكنها في الوقت نفسه زرعت الفوضى في الوعي الاجتماعي ، فبدا وكأن « الجميع » قد اصيب بعدوى مقاومة هيندنبرغ وبعدوى الحقد على نظام حكم الثالث من حزيران . ولكن ، مثلما اصطدمت منظمة « الحرب الشعبية » بالشرطة القيصرية منذ اللحظات الأولى مؤكدة بذلك ان روسيا الثالث من حزيران هي واقع وان « الحرب الشعبية » ما هي الا اسطورة ، كذلك فان اقتراب « الثورة الشعبية » يصطدم بشرطة بليخانوف السياسية هذا الرجل الذي يمكن اعتباره ، هو وزمرته ، مجرد اسطورة لو لم يكن يقف وراءه كرنسكي ومليوكوف وغوسكوف والوطنيون–الديمقراطيون والوطنيون الليبراليون المجردون من أي حسّ ثوري والمعادون للثورة .

لم يكن بامكان « الرسالة » طبعاً ان تتجاهل إنقسام الأمة الى طبقات ، ولا ان تتجاهل انه يجب على الامة ان تنقذ نفسها من عواقب الحرب ومن النظام الحالي بواسطة الثورة . « إن الوطنيين والتشرينيين[1] والتقدميين والكاديت والصناعيين وحتى قسم من الانتلتجنسيا الراديكالية يجب ان يعلنوا بصوت واحد عجز البرقراطية عن الدفاع عن الوطن ، وان يطالبوا بتعبئة القوى الاجتماعية لقضية الدفاع ... » وتصل الرسالة الى الاستنتاج الصحيح فيما يتعلق بالطبيعة

---

١ – التشرينيون حزب مضاد للثورة انشيء في روسيا بعد اعلان « بيان ١٧ تشرين الاول » عام ١٩٠٥ الذي وعد فيه القيصر بان يرسي قواعد الحريات المدنية . كان هذا الحزب يمثل الصناعيين الكبار ومالكي الارض الذين يسيّرون مزارعهم على اساس رأسمالي . وقد ايد التشرينيون السياسة القيصرية الداخلية والخارجية. واصبحوا حزب الحكومة بعد عام ١٩٠٦.
(المترجم)

المعادية للثورة للموقف الذي يدعو الى « التعاون مع حكام روسيا الحاليين ومع البرقراطيين والنبلاء والعقداء في سبيل الدفـــاع عن الدولة » . وتبيّن الرسالة بشكل صحيح أيضاً الموقف المعادي للثورة الذي يتخذه«الوطنيون البرجوازيون بكافة اتجاهاتهم » ، ونضيف الى هذا الوطنيين ــ الاجتماعيين الذين لم يرد ذكرهم في الرسالة .

يجب ان نخلص من هــذا الى القول ان الاشتراكيين ــ الديمقراطيين ليسوا الحزب الثوري المعقول فحسب ، ولكنه الحزب الثوري الوحيد الموجود في البلد أيضاً ؛ وليست المجموعات الأخرى أقل منــه تصميماً على تطبيق الوسائــل الثورية فحسب ، ولكنها احزاب غير ثورية أيضاً . وبكلمات أخرى، فالحزب الاشتراكي ــ الديمقراطي ، بنهجه الثوري في طرح القضايا ، معزول تماماً عــن **دخول الحلبة السياسية العلنية** رغم وجود « الاستياء العام » . هــذا الاستنتاج الأول جدير بأن يؤخذ بعين الاعتبار ولكن بحرص شديد .

إن الاحزاب ليست طبقات طبعاً ، فقد يكون موقف الحزب غير منسجم مع مصالح الفئة الاجتماعية التي يعتمد عليها ، وقد يتحول ذلك الى تناقض حاد فيما بعد . ان سلوك الحزب قد يتبدل تحت تأثير المناخ الجماهيري . هــذا امر لا يرقى اليه شك . هذا سبب جديد إذن لكي نقلع عن الاعتماد ، في حساباتنا ، على عوامل اقــل استقراراً وغير جــديرة بالثقة كشعارات الحزب وخططـه التكتيكية ، وان نلتفت الى عوامل تاريخية أكثر رسوخاً : الى بنيان الأمـــة الاجتماعي والى العلاقة بين القوى الطبقية والى الاتجاهات التي يسير فيها التطور .

غير ان مؤلفي « الرسالة » يتجاهلون هذه القضايا تجاهلاً تامــاً . مـــا هي « الثورة الشعبية» في روسيا عام ١٩١٥ ؟ يجيب المؤلفون ببساطة ان البروليتاريا والعناصر الديمقراطية هي التي يجب أن «تصنعها» . إننا نعلم ما هي البروليتاريا، ولكن من هي « العناصر الديمقراطية » ؟ هل هي حزب سياسي ؟ يتضح ممـا ورد اعلاه انها ليست كذلك . هل هي الجماهـير إذن ؟ وأي جماهير ؟ طبعاً ، انها البرجوازية الصناعية والتجارية الصغيرة والمثقفون والفلاحون ، فلا يمكن

ان يكونوا قد عنوا بعبارتهم أي فئة غير هذه .

في سلسلة من المقالات بعنوان « ازمة الحرب والتوقعات السياسية » قدّمنا تقديراً عاماً لما قد يكون المدلول الثوري لهذه القوى . وباستنادنا الى تجربة الثورة الأخيرة ، تفحصنا التغيرات التي طرأت خلال السنوات العشر الأخيرة على العلاقة بين القوى كما كانت عليه عام ١٩٠٥ : هل كانت هذه التغيرات **لصالح** الديمقراطية (البرجوازية) أم **ضدها** ؟ ذلك هو السؤال الرئيسي الذي يجب طرحه للحكم على توقعات الثورة وعلى خطط البروليتاريا التكتيكية. هل قويت الديمقراطية البرجوازية في روسيا منذ عام ١٩٠٥ ، أم تراها ما تزال في حالة تقهقر ؟ لقد كانت جميع نقاشاتنا السابقة تدور حول مصير الديمقراطية البرجوازية ، والذين ما زالوا لا يستطيعون الاجابة على هذا السؤال يتخبطون في الظلام. اننا نجيب على هذا السؤال كما يلي : **ان الثورة البرجوازية الوطنية مستحيلة في روسيا لأن هذا البلد يفتقر الى ديمقراطية برجوازية ثورية أصيلة .** لقد انقضى زمن الثورات الوطنية ، على الأقل بالنسبة لاوروبا ، مثلما انقضى زمن الحروب الوطنية . فبين الاولى والثانية ارتباط وثيق . اننا نعيش في المرحلة الاستعمارية وهي بالاضافة لكونها نظاماً من الفتوحات الاستعمارية تفرض قيام نظام معين في داخل البلد المستعمِر . ان الاستعمار يموّه العداء بين الامة البرجوازية والنظام القديم ولكنه ينمي العداء بين البروليتاريا والأمة البرجوازية .

لقد سبق لحرفيي البرجوازية الصغيرة وتجارها الصغار أن لعبوا دوراً تافهاً في ثورة عام ١٩٠٥ . ولا شك في أن الأهمية الاجتماعية لهذه الطبقة قد تقلصت كثيراً خلال السنوات العشر الأخيرة . فالرأسمالية في روسيا تعامل الطبقات الوسطى بقسوة وصرامة أكثر مما تفعله شقيقاتها في البلدان العريقة في التقدم الاقتصادي . ولا شك ايضاً في أن الانتلتجنسيا قد تضاعفت عددياً وان دورها الاقتصادي قد تعاظم. ولكنها فقدت ، في الوقت نفسه، حتى ذلك «الاستقلال» الوهمي الذي كانت تتمتع به في السابق . إن مكانة الانتلتجنسيا الاجتماعية

مرهونة بمجملها بالدور الذي تلعبه في تنظيم الصناعة الرأسمالية وفي تعبئة الرأي العام البرجوازي . وكما أشرنا سابقاً فقد ورد في « الرسالة » ما يلي : « ... حتى قسم من الانتلتجنسيا الراديكاليـة ... يطالب بتعبئة القوى الاجتماعية من أجل قضية الدفاع . » ان هذا القول باطل من أساسه ، إن الانتلتجنسيا الراديكاليـة **كلها** تطالب بتعبئة القوى الاجتماعية من اجل قضية الدفاع وليس **قسماً** منها فقط؛ ويؤيدها في هذا الموقف قطاع هـام من الانتلتجنسيا الاشتراكية إن لم نقـل غالبيتها . إننا لا نكون قـد ضاعفنا اعداد « الديمقراطية » إذا زوّرنا طبيعة الانتلتجنسيا .

وهكذا ، فقد تقهقرت البرجوازية الصناعية والتجارية بسرعة، بينما أخذت الانتلتجنسيا تتخلى عن مواقعها الثورية . أمـا بالنسبة للعناصر الديمقراطية في المدن فانها ليست جديرة بالذكر كعنصر ثوري . فلا يبقى إلا الفلاحون، ولكننا نعلم ان اكسلرود ومارتوف لا يعلقان أهميـة كبيرة على دور الفلاحين الثوري المستقل . فهل خلصوا الى الاستنتاج ان التمايز الطبقي المتزايد في صفوف الفلاحين خلال السنوات العشر الأخيرة قد زاد من أهمية دورهم ؟ ان مثل هذا الافتراض يعاكس جميع الاستنتاجات النظرية والتجارب التاريخية .

ولكن عن أي نوع من « الديمقراطية » تتحدث الرسالة في هـذا الصدد ؟ وماذا يعنون عندما يتكلمون عن « الثورة الشعبية » ؟

إن طرح شعار الدعوة الى عقد جمعية تأسيسية يفترض وجود وضع ثوري ، فهل هـذا الوضع موجود ؟ أجل انه موجود ، ولكنه لا يعبر عن نفسه بولادة ديمقراطية برجوازية يفترض فيها أن تكون قد أصبحت مستعدة ومؤهلة الآن لتصفية النظام القيصري . وانما على العكس تماماً ، فإذا كانت هذه الحرب قـد أفصحت عن شيء فعن عدم وجود ديمقراطية ثورية في هذا البلد .

إن محاولة روسيا الثالث من حزيران حلّ مشكلاتها الثورية الداخلية بالسير في طريق الاستعمار قد انتهت بالفشل الذريع . غير ان هذا لا يعني انالاحزاب التي شاركتبشكل مباشر أو غير مباشر في نظام حكم الثالثمن حزيران سوف

تسلك طريق الثورة ، ولكنه يعني ان المشكلة الثورية التي كشفت عنها الكارثة العسكرية والتي ستدفع الطبقات الحاكمة الى قطع أشواط طويلة في طريق الاستعمار ، قد ضاعفت من أهمية الطبقة الثورية الوحيدة في البلد .

إن جبهة الثالث من حزيران جبهة مزعزعة، يمزّقها الصراع الداخلي.غير أن هذا لا يعني ان « التشرينيين » والكاديت يفهمون مشكلة السلطة الثورية ويتحضرون لاجتياح مواقع البرجوازية والنبلاء المتحالفين . انما يعني ان قوة الحكومة على مقاومة الضغط الثوري قد خارت ولا شك انها لن تستعيدها بسرعة .

الملكية والبرقراطية يغمرهما العار إلا أن هذا لا يعني انهما سوف تتخليان عن الحكم بدون صراع . ان حل مجلس الدوما والتعديلات الوزارية الأخيرة قد اثبتت،للذين لم يقتنعوا بعد، مدى ابتعاد هذا الافتراض عن الواقع.الا ان السياسة الرجراجة التي تنتهجها البرقراطية ، والتي ستستمر في انتهاجها في المستقبل ، سوف تساعد الاشتراكيين – الديمقراطيين على تعبئة البروليتاريا بشكل ثوري .

وسوف يزداد تعب الطبقات الدنيا في المدن والقرى وانخداعها وسخطها وغضبها . ولكن هذا لا يعني ان الديمقراطية الثورية سوف تعمل كقوة مستقلة الى جانب البروليتاريا . فالمادة الاجتماعية وعناصر القيادة ليست متوفرة لتكوين مثل هذه القوة ؛ وانما يعني ، ولا شك في ذلك ، ان السخط العميق في أوساط الطبقات الدنيا سوف يساعد الطبقة العاملة على ممارسة ضغطها الثوري .

وإذا لم تنتظر البروليتاريا ظهور ديمقراطية برجوازية وإذا رفضت استكانة البرجوازية الصغيرة والفلاحين ومحدوديتهم يغدو نضالها أكثر تصميماً وعناداً ويتجلى استعدادها للذهاب « الى نهاية المطاف» اي الى استلام الحكم ، وتتزايد الفرص أمامها لكي تجرّ الجماهير غير البروليتارية وراءها عندما تحين اللحظة الحاسمة . ان مجرد طرح شعارات مثل « مصادرة الأراضي » وما شابه ليس له اي مردود البتة . وهذا ينطبق على الجيش أكثر مما ينطبق على أي قطاع آخر ، هذا الجيش الذي يتوقف عليه بقاء الحكومة او زوالها. ان غالبية الجيش سوف

تميل الى جهة الطبقة الثورية فقط عندما تقتنع ان هذه الطبقة لا تتذمر وتتظاهر فحسب وانما تناضل من اجل استلام الحكم ايضاً وان لديها بعض الحظ في ذلك. ثمة مشكلة ثورية موضوعية في وطننا هي مشكلة السلطة السياسية التي كشفت عنها النقاب الحروب والانتكاسات. وثمة تفكك مستمر في أوساط الطبقات الحاكمة. وثمة استياء متزايد في صفوف الجماهير في المدن والقرى. ولكن البروليتاريا هي العنصر الثوري الوحيد الذي يستطيع الاستفادة من هذا الوضع، والفرص المتوفرة الآن هي أفضل بكثير من الفرص التي كانت متوفرة عام ١٩٠٥.

يبدو وكأن احدى عبارات هذه « الرسالة » تقترب من هذه النقطة الرئيسية. إذ تقول انه يتوجب على العمال الاشتراكيين – الديمقراطيين الروس ان « يقودوا هذا النضال الوطني للاطاحة بحكم ملكية الثالث من حزيران ». لقد أشرنا لتوه الى ما قد تعنيه عبارة « النضال الوطني ». ولكن إذا كانت عبارة « ان يقودوا » لا تعني فقط ان يهدر العمال المتقدمون دمهم بشهامة دون ان يتساءلوا لماذا يفعلون ذلك، وانما تعني انه يتوجب على العمال ان يتسلموا « القيادة السياسية » للنضال بأسره، هذا النضال الذي سيكون نضالاً بروليتارياً الى حد بعيد، إذن فمن الواضح ان **إنتصار هذا النضال يجب ان يؤدي الى وضع السلطة بين ايدي الطبقة التي قادت هذا النضال اي البروليتاريا الاشتراكية – الديمقراطية**.

ان المسألة، إذن، ليست مجرد مسألة « حكومة ثورية مؤقتة »، هذه العبارة التي لا بد للعملية التاريخية من ان تملأها بضمون ما، وانما هي مسألة **حكومة عمالية ثورية**، مسألة استيلاء البروليتاريا الروسية على الحكم. ان المطالبة بعقد جمعية تأسيسية وطنية، وبثماني ساعات عمل في اليوم، وبمصادرة الأراضي من مالكيها، بالاضافة الى المطالبة بانهاء الحرب حالاً وبالاعتراف بحق الأمم في تقرير مصيرها وانشاء الولايات المتحدة الأوروبية، كل هذه سوف تلعب دوراً بارزاً في العمل التحريكي الذي يقوم به الاشتراكيون – الديمقراطيون. غير ان

الثورة هي قضية حكم اولاً وآخراً ، ولا يهمها شكل الدولة (جمعية تأسيسية ، جمهورية ، ولايات متحدة) بقدر ما يهمها مضمون الحكم الاجتماعي . ان المطالبة بعقد جمعية تأسيسية وبمصادرة الأراضي تفقد كل معناها الثوري المباشر ، في الظروف الحالية ، اذا لم تكن البروليتاريا مستعدة للاستيلاء على الحكم ، وإذا لم تنتزع البروليتاريا السلطة من بين ايدي الحكم الملكي فما من فئة أخرى ستقوم بهذا العمل .

اما سرعة العملية الثورية فهي قضية أخرى تعتمد على عدد من العوامل العسكرية والسياسية والوطنية والدولية . وهذه العوامل قد تعيق التطورات الثورية أو تعجل بها ، وهي قد تمهد لانتصار الثورة او تؤدي الى هزيمة أخرى . ولكن مهما تكن الظروف ، يتوجب على البروليتاريا أن ترى طريقها بوضوح وتسلكه . ويتوجب عليها قبل كل شيء ان تتحرر من الأوهام . وأسوأ وهم عانت منه البروليتاريا خلال تاريخها وما زالت تعانيه منه حتى الآن هو اتكالها على الآخرين .

الثّورة الدّائمة

(١٩٢٨)

مقدّمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب مكرّس لبحث موضوع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الثورات الروسية الثلاث ؛ غير انه لا يقتصر على هذا فحسب . خلال السنوات الأخيرة، لعب هذا الموضوع دوراً هاماً في الصراع داخل الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، ومنه انتقل الى الاممية الشيوعية، ولعب دوراً حاسماً في تطور الثورة الصينية وحدد سلسلة كاملة من القرارات البالغة الأهمية المتعلقة بالنضال الثوري في بلدان الشرق . هذا الموضوع يتعلق بنظرية الثورة الدائمة التي تمثل بالنسبة « للصف الثاني » من اللينينيين (زينوفييف[1] وستالين وبوخارين[2] وغيرهم)

١ – غريغوار زينوفييف (١٨٨٣ – ١٩٣٦) عضو في الحزب البلشفي منذ تأسيسه . كان اقرب البلاشفة الى لينين خلال فترة الهجرة وساهم معه في اصدار صحيفة « ضد التيار » بين عام ١٩١٤ و ١٩١٧ . كان عضواً في المكتب السياسي للحزب من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٧ . ترأس سوفييت بتروغراد بعد ثورة اكتوبر . وترأس « الاممية الشيوعية » بين عام ١٩١٩ و ١٩٢٦ . اشترك مع كامنييف وستالين في توجيه الحزب بعد موت لينين . انضم الى المعارضة عام ١٩٢٥ . قاد مع تروتسكي « المعارضة اليسارية الموحدة » فصل من الحزب بعد المؤتمر الخامس عشر عام ١٩٢٧ . نفي الى سيبيريا ثم ما لبث ان استسلم لستالين عام ١٩٢٨ ، فعاد الى الحزب . اعيد فصله عام ١٩٣٢ واعيد قبوله عام ١٩٣٣ ثم فصل مجدداً وسجن بعد مقتل كيروف واعدم عام ١٩٣٦ بعد محاكمات موسكو . (المترجم) .

٢ – نقولا بوخارين (١٨٨٨ – ١٩٣٨) بلشفي قديم وعضو في اللجنة المركزية والمكتب السياسي . كان رئيس المجموعة البلشفية في مجلس الدوما عام ١٩٠٨ . ترأس تحرير « البرافدا » بين عام ١٩١٨ و ١٩٢٩ ، ترأس « الاممية الشيوعية » بين عام ١٩٢٦ و ١٩٢٩ ، قاد الاتجاه اليميني الذي سحقه ستالين عام ١٩٢٩ . استسلم لستالين فاصبح رئيس تحرير «ازفستيا» بين عام ١٩٣٣ و ١٩٣٧ . كان المتهم الرئيسي في محاكمة موسكو الثالثة . اعدم رمياً بالرصاص عام ١٩٣٨ . (المترجم) .

خطيئة « التروتسكية » الاصلية .

اثير موضوع الثورة الدائمة مجدداً عام ١٩٢٤ بعد استراحة طويلة بحيث بدا مفاجئاً للوهلة الأولى . فلم يكن ثمة من تبرير سياسي لاستمرار النقاش حوله : كان الأمر يتعلق بخلافات في الرأي ترجع الى الماضي البعيد . ولكن كانت هنالك دوافع نفسية عديدة لإثارته . فالمجموعة التي تدعو نفسها « البلاشفة القدامى » التي فتحت المعركة ضدي قد تصدت لي بوصفها « التيارات البلشفية الأصلية » إلا ان عام ١٩١٧ كان يشكل عقبة كبرى امامها . فمهما بلغت أهمية تاريخ الصراعات الايديولوجية السابقة والتهيئة الثورية ، فقد واجهت هذه الحقبة الأولى بمجموعاتها وافرادها امتحانها الكبير الفاصل في ثورة اكتوبر . **ولم يتمكن أي من افراد « الصف الثاني »[1] من الصمود في وجه هذا الامتحان .** فقد تبنّوا جميعاً ، وبدون استثناء ، مواقف اليسار الديمقراطي المبتذلة ابان ثورة شباط عام ١٩١٧ . ولم يرفع أي منهم شعار العمال من أجل استلام الحكم . واعتبروا الاتجاه نحو الثورة الاشتراكية ضرباً من العبث ، بل اسوأ من ذلك : نعتوه « بالتروتسكية » . بهذه النفسية قاد هؤلاء الحزب الى حين وصول لينين من الخارج ونشره « أطروحات نيسان » الشهيرة . فحاول كامنييف[2] الذي كان يخوض معركة مباشرة ضد لينين ان ينظم بشكل علني الجناح الديمقراطي داخل الحزب البلشفي . فانضم اليه زينوفييف الذي كان قد وصل مع لينين . بينما تنحى ستالين جانباً بسبب الورطة التي اوقعته فيها مواقفه الوطنية —

---

١ – يطلق تروتسكي لقب « رجال الصف الثاني » على ستالين ومجموعته كرد على تسمية انفسهم «البلاشفة القدماء » وللإشارة الى الدور الثانوي الذي لعبوه في ثورة اكتوبر عام ١٩١٧. (المترجم) .

٢ – ليون كامنييف (١٨٨٣ – ١٩٣٦) قائد بلشفي قديم . عضو اللجنة المركزية . قاد المجموعة البلشفية في مجلس الدوما وترأس تحرير « البرافدا » عام ١٩٠٤ . نفي الى سيبيريا خلال الحرب . عارض ثورة اكتوبر ثم ما لبث ان تراجع . انضم الى « المعارضة اليسارية الموحدة » . فصل من الحزب في المؤتمر الخامس عشر . استسلم لستالين عام ١٩٢٨ فعاد الى الحزب . اعيد فصله عام ١٩٣٢ . كان احد المتهمين الرئيسيين في محاكمة موسكو الأولى واعدم عام ١٩٣٦ . (المترجم) .

الاجتماعية . وانتظر حتى ينسى الحزب مقالاته وخطبه البائسة في اسابيع آذار الحاسمة ، ثم شرع في الانحياز تدريجياً الى موقف لينين . ان كل هذا يدعونا الى طرح السؤال التالي : مــاذا تعلم قادة « البلاشفة – القدامى » هؤلاء من اللينينية اذا لم يستطع أي منهم أن يستفيد من تجارب الحزب النظرية والعملية في أحرج لحظة تاريخية وأكثرها امتلاء بالأعباء ؟ كان من الضروري صرف النظر عن هــذا السؤال باي ثمن والاستعاضة عنه بسؤال آخر . لهذا تقرر فتح النار على نظريــة الثورة الدائمة. إلا أن خصومي لم يتوقعوا انهم، بخلقهم محوراً اصطناعياً للصراع، سوف يضطرون شاؤوا أم أبوا ، ان يدوروا حول هذا المحور وان يخلقوا بذلك مفهوماً جديداً لهم .

لقد وضعتُ نظرية الثورة الدائمة ، بمعالمها الأساسية ، قبل أحداث عــام ١٩٠٥ الحاسمة . كانت روسيا في ذلــك الحين على عتبة ثورة برجوازية . وكنا نسمي أنفسنا في ذلــك الوقت الاشتراكيين – الديمقراطيين . ولم يشك أي من أفراد قاعدة الحركة الاشتراكيين الديمقراطيين في أننا على ابواب ثورة **برجوازية**، ثورة تنتج عن التناقض بين قوى الانتاج في المجتمع الرأسمالي وبين العلاقات الطبقية والادارية المتهرئة ، الموروثة عن عهود الرق والقرون الوسطى . وقد اضطررت في معرض صراعي ضد الشعبيين والفوضويين ان أكرس عدداً لا بأس بــه من الخطب والمقالات لتحليل الطابع البرجوازي للثورة القادمة على اسس ماركسية.

ومهما يكن من أمر ، فتأكيد الطابــع البرجوازي للثورة لا يجيب سلفاً على السؤال : أي الطبقات ستنجز مهام الثورة الديمقراطية ، وماذا ستكون العلاقة المتبادلة بين هذه الطبقات ؟ وقــد بدأت المشكلات الستراتيجية الأساسية ، انطلاقاً من هذه النقطة .

لقد انطلق بليخانوف واكسلرود وزاسوليتش ومارتوف وجميــع المنشفيك الروس من بعدهم من الفكرة القائلة بان البرجوازية الليبراليــة هي التي ستلعب الدور القيادي في الثورة البرجوازية لكونها المطالبة الشرعية بالحكم . ووفق هذا المنهج ، اعتبروا ان دور حزب البروليتاريا هو دور الجنــاح اليساري في داخل

الجبهة الديمقراطية . كان على الاشتراكيين الديمقراطيين – ان يدعموا البرجوازية الليبراليــة ضد الرجعية وان يدافعوا عن مصالح البروليتاريا ضد البرجوازية الليبراليــة في آن واحد . وبكلمات اخرى ، فقد اعتبر المنشفيك ان الثورة البرجوازية هي في الأساس عملية اصلاح ليبرالي – دستوري .

أما لينين ، فقــد طرح المسألة على نحو مختلف . إن تحرير قوى الانتاج من حواجز نظام الرق كان يعني بالنسبة اليه الحل الجذري للقضية الزراعية بالتصفية الكاملة للطبقة المالكة للأرض وباعادة توزيـع الأرض على اسس ثورية . فقد كان تحطيم الملكية مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهذه القضية. أما بالنسبة للقضية الزراعية، التي تمس المصالح الحيوية لغالبية السكان الساحقة وتشكل القضية الأساسية بـين قضايا السوق العالمية ، فقد تصدى لينين لهــا بشجاعة ثورية حقة . فما دامت البرجوازية الليبرالية ، التي تناصب العامل العداء ، ترتبط بالملكيات الزراعيـة الكبيرة بوشائج عديدة ، يبقى تحرر الفلاحين الديمقراطي الحقيقي رهناً بتحقيق التعاون الثوري بين العمال والفلاحين . وكان لينين يعتبر أن انتصار ثورة هاتين الطبقتين ضد المجتمع القديم سوف يؤدي الى قيــام « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » .

إن هذه الصيغة ترد الآن في « الاممية الشيوعية » على شكل صيغة جامــدة مفصولة عن التاريخ ، دون أي محاولة لتحليل التجارب التاريخيــة الحيّة خلال ربع القرن الأخير . فكأننا لم نشهد ثورات عام ١٩٠٥ وشباط ١٩١٧ واكتوبر ١٩١٧ وكأننا لم نشترك فيها . ان هذا التحليل التاريخي يكتسي أهمية متزايدة لأن التاريخ لم يعرف نظاماً تحققت فيه «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية».

ففي عام ١٩٠٥ كانت هــذه الصيغة مـا تزال بالنسبة للينين مجرد فرضية استراتيجية بحاجة الى أن تؤكد صحتها مسيرة الصراع الطبقي ذاته. لذا اكتست صيغة « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » عـن قصد ، والى حد بعيد ، طابع المعادلة الرياضية الجبرية . ولم يجب لينين سلفاً على السؤال : ماذا سيكون نوع العلاقات السياسية بين طرفي الدكتاتورية الديمقراطية، اي العمال والفلاحون؟

فهو لم يستبعد ان يمثل الفلاحين في الثورة حزب مستقل بالمعنى المزدوج للكلمة ، اي أنه مستقل عن البرجوازية وعن البروليتاريا معاً ، وقادر في الوقت ذاته على تحقيق الثورة الديمقراطية بالتحالف مع حزب البروليتاريا الذي يناضل ضد البرجوازية الليبرالية . وقد ترك لينين المجال مفتوحاً حتى لاحتمال ان يكون حزب الفلاحين هو الأغلبية في حكومة الدكتاتورية الديمقراطية كما سنرى عما قريب .

منذ خريف عام ١٩٠٢ ، اي منذ هربي الأول الى الخارج ، كنت تلميذاً للينين في التأكيد على الأهمية الحاسمة للثورة الزراعية. فالقول بان الثورة الزراعية وبالتالي الثورة الديمقراطية عامة لا يمكن ان تتحقق إلا بتوحيد قوى العمال والفلاحين في نضالها المشترك ضد البرجوازية الليبرالية ، ان هذا القول كان فوق اي شك عندي ، على عكس ما تقوله الأساطير التافهة التي ترددت في السنوات الأخيرة . إلا اني عارضت صيغة « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » . لماذا ؟ لأني تبينت نواقصها في كونها لم تجب على السؤال : أي طبقة ستمارس الدكتاتورية الفعلية ؟ وحاولت أن ابرهن على ان الفلاحين ، بالرغم من اهميتهم الاجتماعية والثورية البالغة ، لن يستطيعوا تكوين حزب مستقل بالفعل ولن يستطيعوا حصر السلطة الثورية بهذا الحزب . فمثلما ساعد الفلاحون، في الثورات الماضية منذ « الاصلاح الالماني » في القرن السادس العشر وحتى قبل ذلك، فصائل من برجوازية المدن وامنوا انتصارها في حالات عديدة ، كذلك يستطيع الفلاحون في ذروة نضالهم ان يقدموا مساعدة مشابهة للبروليتاريا للوصول الى الحكم في ثورتنا البرجوازية المتأخرة . من هنا، خلصت الى أن ثورتنا البرجوازية لن تنجز مهامها بشكل جذري إلا اذا استطاعت البروليتاريا ، بدعم من ملايين الفلاحين ، ان تحصر الدكتاتورية الثورية بين يديها .

ماذا سيكون المضمون الاجتماعي لهذه الدكتاتورية ؟ يتوجب عليها في المكانة الأولى ان تحقق الثورة الزراعية الى ابعد مداها وان تعيد بناء الدولة على أسس ديمقرطية . وبكلمات أخرى ، تصبح دكتاتورية البروليتاريا اداة لانجاز مهام

الثورة البرجوازية المتأخرة تاريخياً . غير ان المسألة لا تقف عند هذا الحد . فالبروليتاريا عند استلامها الحكم ستجد نفسها مجبرة على ان تصطدم اصطداماً عنيفاً بعلاقات الملكية الفردية عامة ، اي انها ستجد نفسها مجبرة على السير في طريق الاجراءات الاشتراكية .

وقد تساءل ستالين وريكوف[1] ومولوتوف[2] وامثالهم عشرات المرات بين عام ١٩٠٥ وعام ١٩١٧ : « ولكن ، هل تعتقد حقاً ان روسيا ناضجة لقيام ثورة اشتراكية فيها ؟ » وكنت أجيب دائماً : كلا . اني لا اعتقد ذلك . ولكن الاقتصاد العالمي بجمله والاقتصاد الأوروبي بالدرجة الأولى ناضجان النضج الكافي لقيام الثورة الاشتراكية . هل ان دكتاتورية البروليتاريا في روسيا ستؤدي الى بناء الاشتراكية ام لا ؟ وباية سرعة سيتم هذا البناء ؟ باية مراحل سوف يمر ؟ كلها اسئلة تتوقف على المصير الذي تنتهي اليه الرأسمالية في أوروبا والعالم .

كانت تلك السمات الرئيسية لنظرية الثورة الدائمة عند ظهورها في الأشهر الأولى من عام ١٩٠٥ . منذ ذلك التاريخ قامت ثلاث ثورات . واعتلت البروليتاريا

---

١ - الكسي ريكوف (١٨٨١ - ١٩٣٨) بلشفي قديم . عضو اللجنة المركزية منذ أول لجنة للحزب . احد مساعدي لينين . ترأس المجلس الاقتصادي الأعلى بعد ثورة اكتوبر . عضو المكتب السياسي من عام ١٩٢٣ الى ١٩٢٩ . رئيس مجلس مفوضي الشعب بين عام ١٩٢٤ - ١٩٢٩ . قاد مع بوخارين وتومسكي الاتجاه اليميني الذي سحقه ستالين عام ١٩٢٩ . كان حتى عام ١٩٣٦ مفوض الشعب لشؤون البرق والبريد . اتهم بانه « ارهابي » في اول محاكمات موسكو عام ١٩٣٦ ، ثم أعيد له الاعتبار . اعتقل مرة أخرى وقدم لمحاكمة موسكو الثالثة ثم اعدم عام ١٩٣٨ . (المترجم) .

٢ - مولوتوف (ولد عام ١٨٩٠) بلشفي قديم . كان يقود منظمة الحزب في بتروغراد عام ١٩١٧ . وكان يرأس تحرير « البرافدا » ، فازاحه عنها ستالين وكامنييف اللذان اعطيا الصحيفة خطاً توفيقياً الى حين عودة لينين في نيسان من العام ذاته . انتخب عضواً في اللجنة المركزية عام ١٩٢٠ . ترأس الأممية الشيوعية . ثم خلف « لتفينوف » في منصب مفوض الشعب للشؤون الخارجية ، عام ١٩٣٩ . عارض « تصفية الستالينية » بعد موت ستالين . طرد من اللجنة المركزية في حزيران عام ١٩٥٧ واتهم بانه عضو في « المجموعة المعادية للحزب » وعين سفيراً في منغوليا . (المترجم) .

الروسية سدة الحكم على رأس انتفاضة فلاحية عارمة . واصبحت دكتاتورية البروليتاريا واقعاً ملموساً في روسيا قبل ان تتحقق في اي من الدول الأكثر تقدماً في العالم . وفي عام ١٩٢٤ ، اي بعد ما لا يزيد عن سبع سنوات من ثبوت التوقع التاريخي الذي تضمنته نظرية الثورة الدائمة بقوة ليس لها مثيل ، يشن « رجال الصف الثاني » هجوماً مسعوراً على هذه النظرية ، مجتزئين جملاً مبتورة وهجومات سجالية Polemic من كتاباتي القديمة كنت قد نسيتها تماماً .

لا بد من ان نتذكر هنا ان الثورة الروسية قامت بعد اكثر من نصف قرن من موجة الثورات البرجوزية التي اجتاحت أوروبا ، وبعد خمسة وثلاثين عاماً من ثورة «عامية باريس » التي لم تدم طويلاً. كانت اوروباقد نسيت طعم الثورات. اما روسيا فلم تكن قد شهدت ثورة قط . فجرى طرح قضايا الثورة على نحو جديد . فليس من الصعب ان نفهم كم من المجهولات والتخمينات الضخمة كانت الثورة القادمة تخفي علينا في ذلك الحين . فكانت الصيغ التي تبنتها المجموعات السياسية كلها ، كل واحدة على طريقتها الخاصة ، مجرد فرضيات عملية . ويجب ان يكون المرء خالياً من اي حس للاستجلاء التاريخي ومن أي تفهم لاساليبه لكي ينظر الآن ، وبعد مرور الحدث ، الى تحليلات عام ١٩٠٥ وتقديراته وكأنها كتبت البارحة . لقد قلت مراراً لنفسي ولاصدقائي : لست أشك مطلقاً في ان توقعاتي عام ١٩٠٥ كانت تحوي عدةنواقص ليس من الصعب ابرازها الآن بعد انقضاء الحدث . ولكن هل كانت توقعات نقادي افضل من توقعاتي واكثر نفاذاً منها ؟ كنت مستعداً سلفاً ، لكوني لم اعد قراءة مؤلفاتي القديمة منذ زمن طويل ، للاعتراف بوجود نواقص أكثر خطورة وأهمية مما هو فيها بالفعل . ولقد اقتنعت بهذا عام ١٩٢٨ عندما سمحت لي الراحة السياسية التي فرضها علي منفاي في « ألما – آتا » ان أعيد قراءة كتاباتي القديمة حول قضايا الثورة الدائمة . وآمل أن القارىء سيقتنع بهذا اقتناعاً كاملاً عندما يقرأ الصفحات اللاحقة .

ولكن من الضروري ، في نطاق هذه المقدمة ، ان نقدم بالقدر الممكن من

الدقة وصفاً لمقومات نظرية الثورة الدائمة ولاهم الاعتراضات عليها . فقد اتسع الخلاف وعمق بحيث اصبح يشمل اليوم في جوهره جميع القضايا الهامة في الحركة الثورية العالمية .

إن الثورة الدائمة عند ماركس هي ثورة لا تساوم مع أي شكل من اشكال الحكم الطبقي ولا تقف عند المرحلة الديمقراطية بل تتجاوزها الى الاجراءات الاشتراكية والى الحرب ضد الرجعية في الخارج ، أي انها ثورة تكون لكل مرحلة لاحقة منها جذورها في المرحلة التي سبقتها فلا تنتهي الا بعد تصفية المجتمع الطبقي تصفية تامة .

ولا بد كي نزيل الالتباس الذي وجد حول نظرية الثورة الدائمة ، من تمييز المقوّمات الفكرية الثلاث التي تتكون منها هذه النظرية .

أولاً : تشمل نظرية الثورة الدائمة قضية الانتقال من الثورة الديمقراطية الى الثورة الاشتراكية . وهذا في جوهره هو أساسها التاريخي .

لقد تصدى الشيوعيون الكبار في منتصف القرن التاسع عشر ، ماركس ورفاقه ، بمفهوم الثورة الدائمة للايديولوجية الديمقراطية التي تدّعي – كما نعلم – انه بانشاء دولة « عقلانية » أو ديمقراطية يصبح بالامكان حل جميع القضايا سلمياً بواسطة اجراءات اصلاحية أو تطورية . لقد اعتبر ماركس ثورة ١٨٤٨ البرجوازية تمهيداً للثورة البروليتارية. وقد « أخطأ » ماركس في ذلك . إلا ان خطأه يتعلق بالوقائع وليس بالمنهج . إن ثورة١٨٤٨ لم تتحول الىثورة اشتراكية. ولكنها لهذا السبب ذاته لم تستطع ان تحقق الديمقراطية . اما بالنسبة للثورة الالمانية عام ١٩١٨ ، فانها لم تكن تكملة ديمقراطية للثورة البرجوازية ، بل ثورة بروليتارية اجهضها الاشتراكيون – الديمقراطيون ، أو بالاحرى **ثورة برجوازية مضادة** أجبرت على المحافظة على مظاهر ديمقراطية زائفة بعد انتصارها على البروليتاريا .

إن « الماركسية » المبتذلة قد ابتكرت منهجاً للتطور التاريخي يعتبر أن كل مجتمع برجوازي سيحقق نظامه الديمقراطي عاجلاً أو آجلاً ؛ حينئذ ، تنظم

البروليتاريا نفسها وتستكمل ثقافتها الاشتراكية ، في ظل الظروف الديمقراطية الملائمة . لقد جرى تبيان الانتقال الفعلي للاشتراكية بطرق مختلفة : فصوّر الاصلاحيون الصريحون هذا الانتقال على انه عملية ملء الديمقراطية بمضمون اشتراكي بواسطة الاصلاحات (جوريس)،بينما اعترف الثوريون الرسميون بحتمية استعمال العنف الثوري في الانتقال الى الاشتراكية (غسد).غير ان كلا الاتجاهين كان يعتبر أن الديمقراطية والاشتراكية ، بالنسبة لجميع الشعوب والبلدان ، مرحلتان في تطور المجتمع ليستا متمايزتين التمايز الكافي ولكنهما مفصولتان عن بعضهما البعض بحقبات زمنية طويلة . وكان هذا الرأي غالباً على الماركسيين الروس الذين كانوا ينتمون عام ١٩٠٥ الى الجناح اليساري من « الاممية الثانية » . وكان بليخانوف ، رائد الماركسية الروسية اللامع ، يعتبر فكرة دكتاتورية البروليتاريا في روسيا المعاصرة ضرباً من الجنون . وقد اشترك في الدفاع عن هذا الموقف ليس المنشفيك فحسب ، ولكن الاغلبية الساحقة من قادة البلاشفة أيضاً،وخاصة قادة الحزب الحاليين بدون استثناء الذين كانوا في ايامهم ديمقراطيين ثوريين صلبين ولكن قضايا الثورة الاشتراكية ظلت بالنسبة اليهم ليس فقط عام ١٩٠٥ ولكن عشية ثورة ١٩١٧ أيضاً مجرد اصداء مستقبل بعيد .

إن نظرية الثورة الدائمة التي ولدت عام ١٩٠٥ اعلنت حرباً شعواء على هذه الافكار والامزجة . وبيّنت ان المهام الديمقراطية في الامم البرجوازية المتأخرة تقتضي في عصرنا هذا ، قيام دكتاتورية البروليتاريا رأساً. وإن هذه الدكتاتورية تضع المهام الاشتراكية في حيّز التنفيذ . هنا تكمن الفكرة الرئيسية في هذه النظرية . فبينما كان الرأي التقليدي يقول ان الطريق الى دكتاتورية البروليتاريا يمرّ خلال مرحلة ديمقراطية طويلة ، اكدت نظرية الثورة الدائمة على ان الطريق الى الاشتراكية يمرّ بدكتاتورية البروليتاريا في الدول المتخلفة . وهكذا نرى ان الديمقراطية ليست نظاماً يكفي نفسه بنفسه خلال عقود من الزمن ، وانما هو تمهيد مباشر للثورة الاشتراكية . وترتبط الواحدة بالاخرى بسلسلة متصلة من الاحداث . وهكذا ينشأ وضع من التطور الثوري الدائم بين الثورة الديمقراطية

وبين بناء المجتمع الاشتراكي .

المقومة الثانية لنظرية « الثورة الدائمة » تتعلق بالثورة الاشتراكية بحد ذاتها . خلال مدة طويلة ، تتحول جميع العلاقات الاجتماعية خلال صراع داخلي مستمر . المجتمع هنا يخلع جلده العتيق ويستبدله بجلد جديد . وتنبثق كل مرحلة من مراحل التحول من المرحلة التي تسبقها مباشرة. وتتخذ هذه العملية بالضرورة طابعاً سياسياً ، أي انها تتطور من خلال الاصطدامات بين مختلف الفئات في المجتمع الذي يمر بهذا التحول . إن الثورات في الاقتصاد والتقنية والعلم والعائلة والاخلاق والحياة اليومية تسير بشكل معقد متشابك فلا تسمح للمجتمع بأن يستعيد توازنه . هنا تكمن ديمومة الثورة الاشتراكية كثورة اشتراكية .

إن الطابع الاممي للثورة الاشتراكية ، المقومة الثالثة من مقومات الثورة الدائمة ، ينبثق من الوضع الراهن للاقتصاد ومن البنيان الاجتماعي في العالم. ليست الامية مبدأ مجرداً وانما هي انعكاس نظري وسياسي لطبيعة الاقتصاد العالمي ولتطور قوى الانتاج وللصراع الطبقي على الصعيد العالمي. تبدأ الثورة الاشتراكية على اسس وطنية ، ولكن لا يمكن انجازها ضمن هذا الإطار . لأن حصر ثورة البروليتاريا ضمن الاطار الوطني لا يمكن إلا ان يكون خطوة مرحلية ، بالرغم من ان هذه الخطوة قد تستغرق زمناً طويلاً كما تؤكد تجربة الاتحاد السوفيتي . ففي دكتاتورية البروليتاريا المنعزلة لا بد من أن تنمو التناقضات الداخلية والخارجية الى جانب الانتصارات التي يجري تحقيقها . واذا بقيت الدولة البروليتارية معزولة فانها ستقع في النهاية ضحيّة لهذه التناقضات . لذا كان خلاصها رهناً بانتصار البروليتاريا في البلدان المتقدمة . واذا نظرنا الى الثورة الوطنية من هذه الزاوية نجد انها ليست كلاً متكاملاً وانما هي مجرد حلقة في سلسلة الثورات الامية . إن الثورة الامية عملية دائمة بالرغم من الانتكاسات والانحسارات الآنية .

إن هجوم «رجال الصف الثاني» موجه ، وإن كان ليس دائماً بنفس الوضوح، ضد المقوّمات الثلاث التي تتكون منها نظرية الثورة الدائمة . كيف لا والأجزاء

الثلاثة اجزاء مترابطة .. ان « رجال الصف الثاني » يفصلون بشكل آلي بين الدكتاتورية **الديمقراطية** والدكتاتورية **الاشتراكية** ، وبين الثورة الاشتراكية **الوطنية** والثورة الاممية . وهم يعتبرون ان الاستيلاء على الحكم ضمن الاطار الوطني ليس في جوهره الشرط الاولي للثورة وانما هو نهاية المطاف تليه حقبة من الاصلاحات تؤدي الى بناء المجتمع الاشتراكي الوطني . وفي عام ١٩٠٥ لم يكن هؤلاء يقبلون حتى بالفكرة القائلة ان البروليتاريا في روسيا سوف تستلم الحكم قبل اوروبا الغربية . وفي عام ١٩١٧ ، كانوا يبشرون بثورة ديمقراطية في روسيا تكفي نفسها بنفسها ، ويرفضون دكتاتورية البروليتاريا رفضاً قاطعاً . وفي الفترة بين عام ١٩٢٥ و ١٩٢٧ ، اتجهوا في طريق الثورة الوطنية في الصين بقيادة البرجوازية الوطنية . وفي بعد ذلك ، رفعوا شعار « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » في الصين مقابل شعار « دكتاتورية البروليتاريا » . وأعلنوا عن إمكانية بناء مجتمع اشتراكي منعزل في الاتحاد السوفييتي يكفي نفسه بنفسه . وعوضاً عن ان تكون الثورة العالمية ، بالنسبة اليهم ، شرطاً لا غنى عنه لاحراز النصر اصبحت مجرد ظرف مساعد . لقد انتهى « رجال الصف الثاني » الى هذا الانفصال الكامل عن الماركسية خلال صراعهم الدؤوب ضد نظرية الثورة الدائمة .

هذا الصراع ، الذي بدأ ببعث مصطنع لذكريات تاريخية وبتشويه الماضي البعيد قد أدى الى التحول الكامل في النظرة الشاملة عند الفئة العليا من قيادة الثورة . لقد سبق وأكدنا ان إعادة النظر في القيم هذه انما جرت تحت تأثير الحاجات الاجتماعية للبرقراطية السوفييتية التي غدت محافظة اكثر من أي وقت مضى ، تطمح الى استتباب الأمن على الصعيد الوطني وتدعو الى اعتبار ما تحقق حتى الآن من الثورة ، والذي يضمن مراكز مميزة للبرقراطية ، كافياً للشروع في البناء السلمي للاشتراكية . لسنا نريد العودة الى هذا الموضوع الآن . انما نكتفي بالقول ان البرقراطية واعية كل الوعي للارتباط بين مواقعها الايديولوجية والمادية وبين نظرية الاشتراكية الوطنية . وأوضح تعبير عن ذلك الآن هو أن ضغط

التناقضات ، التي لم تتحسب لها آلة الحكم الستالينية والتي تضغط بالرغم عنها أو بالأحرى بسببها، يجبرها على الاتجاه نحو اليسار بكل قوتها وعلى تسديد الضربات القاسية للجناح اليميني الذي كان ملهمها بالأمس. إن عداء البرقراطيين «للمعارضة الماركسية » ، بعد استعارتهم لشعاراتها وحججها على عجل ، لم يضعف كما هو معلوم عند الجميع . إن شجب نظرية الثورة الدائمة والاعتراف، وإن كان بشكل غير مباشر ، بنظرية « الاشتراكية في بلد واحد » هو الشرط الأولي والأخير المفروض على أفراد المعارضة الذين يثيرون موضوع عودتهم الى الحزب لتأييد الاتجاه نحو التصنيع ، الى آخره . بهذا تفصح البرقراطية الستالينية عن الطابع **التكتيكي** المحض لاتجاهها نحو اليسار الذي يلازمه احتفاظ بالمبادىء **الستراتيجية** المبنية على المنطق الوطني – الاصلاحي . ومن غير المجدي ان نفسر معنى هذا ، ففي السياسة كما في الحرب يكون التكتيك مسخراً في المدى البعيد لخدمة الأهداف الستراتيجية .

لقد تعدّت المسألة ، منذ زمن طويل ، نطاق الصراع ضد « التروتسكية ». ففي اتساعها التدريجي أصبحت تشمل الآن جميع قضايا النظرة الثورية العالمية . فإما الثورة الدائمة **وإما** الاشتراكية في بلد واحد . ان هذا البديل يضم في الوقت ذاته مشاكل الاتحاد السوفييتي الداخلية وتوقعات الثورة في الشرق وأخيراً مصير « الأممية الشيوعية » كلها .

هذا الكتاب لا يعالج المسألة من **جميع** هذه الجوانب ، فليس من الضروري تكرار ما سبق وقلناه في مؤلفات أخرى . ففي « نقد مشروع برنامج الأممية الشيوعية » حاولت ان اثبت بشكل نظري تهافت الاشتراكية الوطنية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي . فلم يتفوه مفكرو الكومنترن بكلمة واحدة حول هذا الموضوع . فهذا هو الدور الوحيد الذي بقي لهم . في هذا الكتاب ساستعيد نظرية الثورة الدائمة كما صيغت عام ١٩٠٥ بصدد قضايا الثورة الروسية الداخلية . وسوف اظهر أين كان موقفي يختلف فعلياً عن موقف لينين ، ولماذا وكيف كنت انسجم مع مواقف لينين في كل وضع حاسم . واخيراً ، سأحاول

ان اظهر مغزى هـذه القضية بالنسبة للبروليتاريا في البلدان المتخلفة وبالتـالي بالنسبة للأممية الشيوعية بشكل عام .

ما هي التهم التي يوجهها « رجال الصف الثاني » ضد نظرية الثورة الدائمة ؟ اذا ما صرفنا النظر عن التناقضات العديدة التي يقع فيهـا نقادي يمكن تلخيص هذه المجموعة الضخمة من الكتابات بما يلي :

١ – يتجاهل تروتسكي الفرق بين الثورة البرجوازية والثورة الاشتراكية . وحتى في عام ١٩٠٥ كان يعتقد ان البروليتاريا الروسية مواجهة بمهام الثـورة الاشتراكية .

٢ – ان تروتسكي قد نسي القضية الزراعية نسياناً تاماً . فالفلاحون غـير موجودين بالنسبة له . وهو يصور الثورة وكأنها معركة وحيدة بين البروليتاريا والقيصرية .

٣ – يعتقد تروتسكي ان البرجوازية العـالمية لن تحتمل وجود دكتاتورية البروليتـاريا الروسية واعتبر ان انهيـار هذه الدكتاتورية امر محتم الا إذا استولت البروليتاريا في الغرب على الحكم خـلال فترة وجيزة وهبت لنجدتها . بهذا يقلل تروتسكي من أهمية الضغط الذي مارسته البروليتاريا في اوروبا الغربية على حكوماتها البرجوازية.

٤ – ان تروتسكي لا يؤمن بشكل عام بقوة البروليتاريا الروسية وبمقدرتهـا على بناء الاشتراكية بشكل مستقل ، لهذا السبب وضع ، وما زال يضع ، كل آماله في الثورة العالمية .

ان هذه اللازمات تتكرر في جميع كتابات زينوفييف وستالين وبوخـارين وغيرهم وفي خطبهم العديدة وقد ادرجت في أهم القرارات الـتي اتخذها الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والأممية الشيوعية . وبالرغم من ذلـك فلا بد من القول انها مبنية على مزيج من الجهل والكذب .

ان الاتهامين الأولين اللذين يتقدم بهما نقـادي عاريين من الصحة كما سيثبت للقارىء بعد قليـل . لقد انطلقت ، بالتحديد ، من الطابع الديمقراطي –

البرجوازي للثورة وخلصت الى ان عمق الأزمة الزراعية سيرفع البروليتاريا في روسيا الى سدة الحكم . أجل ، كانت تلك هي الفكرة التي دافعت عنها عشية ثورة ١٩٠٥ . وتلك هي الفكرة التي اعبر عنها عندما اصف الثورة بانها ثورة « دائمة » ، اي غير متقطعة ، ثورة تنتقل مباشرة من المرحلة البرجوازية الى المرحلة الاشتراكية . وللتعبير عن الفكرة نفسها ، استعمل لينين فيما بعد التعبير الرائع الذي يقول **بنضج** الثورة البرجوازية الى ثورة اشتراكية . اما ستالين ، فقد تصدى عام ١٩٢٤ بمفهوم « نضج الثورة » لنظرية الثورة الدائمة التي صورها وكأنها قفزة مباشرة من القيصرية الى الاشتراكية . ان هذا « المفكر » السيىء الطالع لم يقف برهة ليتساءل : اي معنى يبقى **لديمومة** الثورة ، اي تطورها **غير المتقطع** اذا كان كل ما تشمله هو مجرد قفزة ؟

اما الاتهام الثالث ، فقد كان مرده ايمان « رجال الصف الثاني » الذي لم يدم طويلاً بامكانية « ازالة مفعول » البرجوازية **الامبريالية** لامد طويل بمساعدة ضغط البروليتاريا المنظمة « بمهارة » . كانت تلك هي فكرة ستالين الاساسية بين عام ١٩٢٤ و ١٩٢٧ . وكانت اللجنة الروسية – الانكليزية ثمرة هذه الفكرة . ولكن خيبة الأمل بامكان ازالة مفعول البرجوازية بمساعدة بورسيل وراديه ولافوليت [١] وتشانغ كاي تشك ادت إلى عارض مفاجىء من الخوف من خطر حرب مداهم . وما زال الكومنترن يمر بهذه المرحلة .

واما الاعتراض الرابع على نظرية الثورة الدائمة فانه يتلخص في القول اني لم ادافع عام ١٩٠٥ عن نظرية الاشتراكية في بلد واحد التي اخترعها ستالين للبرقراطية السوفييتية عام ١٩٢٤ . ان هذا الاتهام لطرفة تاريخية ليس إلا . فكأني بخصومي يريدوننا ان نقتنع بانهم كانوا يؤمنون عام ١٩٠٥ بان روسيا ناضجة لقيام ثورة اشتراكية مستقلة . وفي الواقع انهم كانوا ، خلال الفترة ما بين

---

١ – بورسيل هو أحد القادة النقابيين البريطانيين ، ورئيس المؤتمر العمالي العام ومندوبه في لجنة النقابات الانكليزية – الروسية المشتركة عام ١٩٢٦ . لافوليت سياسي اميركي أيده الحزب الشيوعي الاميركي عام ١٩٢٤ . (المترجم)

١٩٠٥ و ١٩٠٧ يكيلون لي التهم باني طوباوي لاني توقعت ان تأتي البروليتاريا الروسية الى الحكم قبل بروليتاريا اوروبا الغربية. ولقد اتهم كامنييف وريكوف لينين بالطوباوية في نيسان عام ١٩١٧ وحاولوا اقناعه انه على الثورة الاشتراكية ان تتحقق اولاً في بريطانيا والبلدان المتقدمة الأخرى ومن ثم يأتي دور روسيا. وكان ستالين يتبنى الموقف ذاته حتى ٤ نيسان ١٩١٧ . وهولم يقتنع بشعار لينين « دكتاتورية البروليتاريا » الذي حل مكان شعار « الدكتاتورية الديمقراطية » الا تدريجياً وبصعوبة بالغة [١] وفي ربيع عام ١٩٢٤ كان ستالين ما يزال يردد ما قاله آخرون قبله : ان روسيا ، بمفردها، ليست ناضجة النضج الكافي لبناء مجتمع اشتراكي . وفي خريف العام ذاته اكتشف ستالين لاول مرة ، في صراعه ضد نظرية الثورة الدائمة ، امكانية بناء نظام اشتراكي منعزل في روسيا . وفي ذلك الوقت فقط ، بدأ « الاساتذة الحمر » يجمعون القرائن التي تدين تروتسكي بانه اعتقد عام ١٩٠٥ – ويا للهول – بأن روسيا لا تستطيع ان تصل الى الاشتراكية الا بمساعدة بروليتاريا الغرب .

اذا قدّر لنا أن نأخذ تاريخ الصراع الايديولوجي طوال ربع قرن ونمزقه نتفاً صغيرة ثم نمزج هذه النتف في جرن ونطلب من رجل اعمى أن يعيد تركيبها، لما خرجنا بفوضى نظرية او تاريخية من التفاهات كالتي يغذي بها « رجال الصف الثاني » قراءهم ومستمعيهم .

ولكي نلقي ضوءاً على علاقة مشاكل الأمس بمشاكل اليوم لا بد لنا من أن نعود ، ولو بشكل عام للغاية ، الى ما قامت به قيادة الكومنترن ، ستالين وبوخارين ، من اعمال في الصين .

بحجة أن الصين تواجه ثورة تحرر وطنية اعطي الدور القيادي في عام ١٩٢٤ للبرجوازية الصينية. واعترف رسمياً بحزب البرجوازية الوطنية، الكيومنتانغ، حزباً قائداً . حتى المنشفيك لم يصلوا الى هذا الحد عام ١٩٠٥ في علاقتهم مع « الكاديت » (حزب البرجوازية الليبرالية) .

---

١ – راجع : لينين – « اطروحات نيسان » . (المترجم) .

ولكن قيادة الكومنترن لم تتوقف عند هـذا الحد . فقـد اجبرت الحزب الشيوعي الصيني على الدخول في الكيومنتانغ والانصياع لأوامره . وفي برقيات خاصة ، طلب ستالين من الشيوعيين الصينيين أن ينسفوا الحركة الفلاحية . فمنع العمال والفلاحون من تكوين مجالس سوفييت خاصة بهم حتى لا ينفر تشانغ كاي – تشيك الذي دافع عنه ستالين بحرارة أمام « المعارضين » ووصفه بانه « حليف يوثق به » ذلك في اجتماع حزبي بموسكو في أوائل نيسان عام ١٩٢٧ ، أي قبل بضعة أيام من انقلاب شانغهاي المضاد – للثورة .

إن اخضاع الحزب الشيوعي للقيادة البرجوازية رسمياً ومنع تكوين مجالس السوفييت (كان ستالين وبوخارين يدّعيان ان الكيومنتانغ « قد حل مكان السوفييت») يشكلان خيانة أكبر وأشنع للماركسية من جميع أفعال المنشفيك بين الأعوام ١٩٠٥ و ١٩١٧ .

بعد أن قام تشانغ كاي – تشيك بانقلابه في نيسان عام ١٩٢٧، انشق الجناح اليساري بشكل آني عن الكيومنتانغ بقيادة وانـــغ شينغ – وي . وحيّت جريدة « البرافدا » وانغ شينغ – وي رأساً على أنه حليف يعتمد عليه . كانت علاقة وانغ شينغ – وي بتشانغ كاي – تشك في جوهرهـــا كعلاقة كرنسكي بمليوكوف[1]، مع وجود فارق واحد وهو ان شخصيّتي مليوكوف وكورنيلوف كانتا متحدتين في الصين بشخص تشانغ كاي – تشيك .

بعد نيسان ١٩٢٧ صدرت أوامر للحزب الصيني بالدخول في الكيومنتانغ « اليساري » والانصياع لأوامر « كرنسكي » الصين ، عوضاً عن التحضير لمعركة علنية ضده . فسحق وانغ تشينغ – وي « الموثوق به » الحزب الشيوعي ومعـه الحركة العمالية والفلاحية بوحشية لا تقل عن وحشية تشانغ كاي – تشيك الذي اعلن ستالين انه حليف « موثوق به » .

---

١ – كرنسكي هو أحد قادة الاشتراكيين – الثوريين (الحزب الفلاحي في روسيا) ورئيس لحكومة البرجوازية المؤقتة التي أطاحت بها ثورة اكتوبر ١٩١٧ . مليوكوف هو رئيس حزب « الكاديت » . وكورنيلوف هو أحد القـــادة العسكريين أيام ثورة شباط ١٩١٧ الذي قـــاد العصيان القيصري للاطاحة بالحكومة المؤقتة . (المترجم)

رغم ان المنشفيك ايدوا مليوكوف في عام ١٩٠٥ وبعد ذلـك ، الا انهم لم ينضموا الى الحزب الليبرالي . ورغم ان المنشفيك تحالفوا مع كرنسكي عام ١٩١٧ الا انهم حافظوا على تنظيمهم . فكانت سياسة ستالين في الصين مسخاً حقـــيراً للمنشفية . هكذا كان الفصل الأول والأكثر أهمية من القصة .

وبعد ان برزت نتائجه الحتمية – انتكاسة كاملة في صفوف الحركة العماليـة والفلاحـــين ، تحطيم معنويات الحزب الشيوعي وتفتيته – أصدرت قيـــادة الكومنترن أمرها : « الى اليسار ، درْ ! » وطالبت بالتحضير الفوري لانتفاضة مسلحة يقوم بها العمال والفلاحون . حتى الامس ، كان الحزب الشيوعي الفتي المسحوق والمفتت يلعب دور العجلة الخامسة في عربـــة تشانغ كاي – تشيك ووانغ تشينغ – وي ويفتقر بالتالي الى أي نوع من التجربـة السياسية المستقلة ، أما الآن فتصدر الأوامر فجأة لهذا الحزب بأن يقود العمال والفلاحين، الذين كان الكومنترن يؤخر مسيرتهم باخضاعهم للواء الكيومنتانغ ، في ثورة مسلحة ضد هذا الكيومنتانغ ذاته الذي كان قـد وجـــد الوقت الكافي ليسيطر على الحكم والجيش معاً . وخـلال أربع وعشرين ساعـــة تم اختراع سوفييت وهمي في « كانتون » . وجـــاءت الانتفاضة المسلحة ، التي جرى توقيتها سلفاً لتصادف موعد افتتاح المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، تعبر عــن بطولة العمال الصينيين المتقدمين وعن اجرام قادة الكومنترن في آن واحد. وقد جاءت انتفاضة « كانتون » في وسط فترة من المغامرات الثانوية . هكذا كان الفصل الثاني من قصة استراتيجية الكومنترن في الصين . ويمكن اعتبارها احقر عملية فسخ للبلشفية .

إن فصول الليبرالية – الانتهازية وفصول المغامرات قد وجهت الى الحزب الشيوعي الصيني ضربات لن يستطيع الشفاء منها الا بعد عدة سنوات حتى ولو انتهج سياسة سليمة .

عقد المؤتمر السادس للكومنترن لمحاسبة قيادته على هـــذه الاعمال . فاعلن موافقته غير المشروطة عليها . ولا عجب، فالمؤتمر قد دعي للانعقاد لهذا الغرض

بالذات . بالنسبة للمستقبل طرح المؤتمر شعار « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » . ولكن كيف تختلف هذه الدكتاتورية الديمقراطية عن اليمين أو اليسار في الكيومنتانغ ؟ بماذا تتميز عن دكتاتورية البروليتاريا ؟ ان مثل هذه الأسئلة لم تفسّر للشيوعيين الصينيين . ولا كان بالامكان الإجابة عليها .

بعد طرحه لشعار الدكتاتورية الديمقراطية ، شجب المؤتمر الشعارات الديمقراطية (المطالبة بعقد الجمعية التأسيسية ، وبحق الانتخاب للجميع ، وبحرية الرأي والصحافة ، الى آخره) . فجرّد بذلك الحزب الشيوعي الصيني من جميع أسلحته في وجه دكتاتورية الزمرة العسكرية . خلال عدة سنوات كان البلاشفة الروس يكتلون العمال والفلاحين حول شعارات ديمقراطية . وقد لعبت هذه الشعارات دوراً بارزاً في عام ١٩١٧ . وفقط بعد ان ترسخت السلطة السوفييتية واصطدمت سياسياً بالجمعيةالتأسيسية بشكل عنيف وعلى مرأى من الشعب كله، بدأ حزبنا بتصفية المؤسسات الديمقراطية التقليدية ، أي مؤسسات الديمقراطية البرجوازية ، والغى شعاراتها واستعاض عنها بالديمقراطية السوفييتية الحقيقية ، أي بالديمقراطية البروليتارية .

إن المؤتمر السادس الكومنترن ، بقيادة ستالين وبوخارين ، قلب كل هذا رأساً على عقب . فبينما اختارت هذه القيادة للحزب شعار « الدكتاتورية الديمقراطية » عوضاً عن « الدكتاتورية البروليتارية » منعته في الوقت ذاته من استعمال الشعارات الديمقراطية للتحضير لهذه الدكتاتورية . فهي لم تجرّد الحزب الشيوعي الصيني من أسلحته فحسب ولكنها جردته من ثيابه أيضاً . وللتعويض عن ذلك،سمحت أخيراً باستعمال شعار مجالس السوفييت في المرحلة التي سيطرت فيها الثورة — المضادة ، هذا الشعار الذي كان ممنوعاً منذ اندلاع الثورة . إن أحد الشخصيات المحبوبة جداً في الفولكلور الروسي ينشد أغاني الأعراس في المآتم وأغاني المآتم في الأعراس . وفي كلا الحالتين يجهز عليه الناس بالضرب . فلو كان الأمر يقتصر على الاجهاز بالضرب على المخططين في قيادة الكومنترن الحالية ، لما كان الأمر بهذه الخطورة . إن اموراً أكثر خطورة يجري التلاعب

فيها ومنها مصير البروليتاريا . كانت خطط الكومنترن تشكل ، عن غير وعي منها ، عملية تخريب منظمة للثورة الصينية . ولقد جرى تنفيذ هذا التخريب مع وجود ثقة كاملة بانه سينجح ، لأن الكومنترن غطى السياسة المنشفية ـ اليمينية بين الأعوام ١٩٢٤ و ١٩٢٧ بهيبة البلشفية ، وحمتها السلطة السوفييتية من انتقادات « المعارضة اليسارية » بآلة الارهاب الضخمة الموضوعة تحت تصرفها .

وكنتيجة لذلك ، وجدنا امامنا تجربة ناجزة للستراتيجية الستالينية ، قامت من أولها لآخرها تحت راية الصراع ضد الثورة الدائمة . لذا كان من الطبيعي ان يكون مارتينوف هو المفكر الستاليني الرئيسي الذي قام بتبرير اخضاع الحزب الشيوعي الصيني للكيومنتانغ البرجوازي الوطني . فقد كان مارتينوف[1] الناقد المنشفيكي الرئيسي لنظرية الثورة الدائمة منذ عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٢٤ أي العام الذي بدأ فيه بتأدية رسالته التاريخية في صفوف الحزب البلشفي .

لقد عالجتُ الوقائع الاساسية المتعلقة باصل هذا الكتاب في الفصل الأول . في « آلما ـ آتا » كنت اكتب رداً نظرياً على « رجال الصف الثاني » . وكانت نظرية الثورة الدائمة ستحتل حيزاً هاماً من ذلك الكتاب. حتى وصلتني مخطوطة لراديك[2] مكرسة لتبيان تعارض نظرية الثورة الدائمة مع خط لينين الستراتيجي.

---

١ ـ مارتينوف قائد اشتراكي ـ ديمقراطي روسي ولد عام ١٨٦٥ وكان احد الد اعداء صحيفة « ايسكرا » (الشرارة) . قائد المنشفيك عام ١٩٠٥ . ثم انضم الى الجناح الاممي في المنشفيك بقيادة مارتوف خلال أعوام الحرب وخلال ثورة اكتوبر . إنضم الى الحزب البلشفي عام ١٩١٩ . تحالف مع ستالين وبوخارين وقاد الاممية الشيوعية بين عام ١٩٢٥ و ١٩٢٩ . وأصبح فيما بعد موظفاً فيها . (المترجم)

٢ ـ كارل راديك (١٨٨٥ ـ ١٩٤٢) قائد بلشفي من أصل بولوني . كان منذ عام ١٩١٠ في الجناح اليساري للحركة الاشتراكية ـ الايديمقراطية وأحد أنصار مؤتمر «زيمروالد». كان أحد قادة الاممية الشيوعية بين الأعوام ١٩١٩ و ١٩٢٣ حيث تسلم مسؤولية الشؤون الالمانية . انضم الى المعارضة اليسارية بين الأعوام ١٩٢٣ و ١٩٢٨ . فصل من الحزب في المؤتمر الخامس عشر عام ١٩٢٧ . نفي الى سيبيريا ثم ما لبث ان استسلم لستالين . ترأس تحرير « البرافدا » . قدم الى « محاكمة موسكو الثانية » التي حكمت عليه بعشر سنوات سجن مع الأشغال الشاقة عام ١٩٣٧ . توفي في المنفى عام ١٩٤٢ . (المترجم)

كان راديك مضطراً الى الانحراف في هذه الطريق فجأة لأنه كان غارقاً حتى اذنيه في سياسة ستالين الصينية : فقد دافع (مع زينوفييف) عن اخضاع الحزب الشيوعي للكيومنتانغ قبل انقلاب تشانغ كاي - تشيك وبعده .

ولكي يجد مبرراً لوضع البروليتاريا في قيود البرجوازية ، كان طبيعياً ان يتكلم راديك عن ضرورة التحالف مع الفلاحين وعن « سوء تقديري » لأهمية هذا التحالف. فحذا حذو ستالين في الدفاع عن سياسة منشفية بلفظية بلشفية. وكذلك طرح صيغة « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » ليغطي ، كما فعل ستالين من قبله ، حرمان البروليتاريا الصينية من النضال المستقل من أجل الحكم على رأس الجماهير الفلاحية . وعندما فضحتُ هذه المهزلة الايديولوجية ، تولدت عند راديك حاجة ملحة لكي يثبت ان نضالي ضد الانتهازية التي تستر فضائحها بالاستشهاد بمقتطفات من لينين نابع في الواقع من التعارض بين نظرية الثورة الدائمة وبين اللينينية . فتحول راديك من مدافع عن اخطائه الى مهاجم للثورة الدائمة . وما كان هذا سوى جسر يعبر عليه الى الاستسلام . ومما شجعني على هذا الاعتقاد هو ان راديك كان ينوي ، منذ بضعة سنوات ، ان يكتب منشوراً يدافع فيه عن الثورة الدائمة . وبالرغم من هذا كله ، لم اتسرع في الرد على راديك . فقد حاولت الاجابة على مقاله بصراحة ووضوح دون ان اقطع عليه خط الرجعة . اني انشر ردي على راديك مثلما كتب مكتفياً باضافة بعض الملاحظات الايضاحية وباجراء تصحيحات في الاسلوب .

إن مقالة راديك لم تنشر في الصحف، واظن انها لن تنشر ابداً، لأنها لن تمرّ في مصفاة الرقابة الستالينية بالشكل الذي كتب فيه عام ١٩٢٨ . وحتى بالنسبة لراديك نفسه سيكون لهذه المقالة اثر فاجع عليه اليوم ، لأنها تعطي فكرة واضحة عن تطوره الايديولوجي الذي يذكرنا « بتطور » رجل يرمي بنفسه من نافذة في الطابق السادس .

إن الدافع الى تأليف هذا الكتاب يفسر بوضوح لماذا يشغل راديك فيه حيزاً أوسع مما يحقّ له . فهو لم يتقدم بحجة جديدة واحدة ضد نظرية الثورة

الدائمة . فقد برز كذيل « لرجال الصف الثاني » . لذلك ، فالمرجو من القارىء الاّ يرى في راديك مجرد راديك نفسه ولكن ان يرى فيــه ممثلاً لشركة اشترى فيها راديك عضويته بثمن تخليه عن الماركسية . وإذا شعر راديك انه قــد نال منا أكثر من نصيبه ما عليه الا ان يوزع ما يفيض عنــه على الاعضاء الآخرين . إن هذا من الشؤون الخاصة بالشركة . ولست ابدي من جهتي أي اعتراض .

برينبيكو – ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٩

ل . تروتسكي

١ - هدف هذا الكتاب وطبعته القسرية

لقد لبّت الجبهة اليمينية – الوسطية الحاجة الى نظرية في الحزب بشنها حملة على التروتسكية خلال ست سنوات متتالية ، لكون هذه الحملة البضاعة الوحيدة المتوفـرة بكميات هائلة للتوزيع المجاني. ولقد خاض ستالين غمار الفكر النظري لأول مرّة عام ١٩٢٤ بمقـالاته الخالدة ضد الثورة الدائمـة . وحتى مولوتوف جرى تعميده قائداً في هذه الجـوقة . فبلغ التزوير ذروته . منـذ بضعة ايام صادفتُ اعلاناً عن نشر كتابات لينين عام ١٩١٧ باللغة الألمانية . ان هذه هدية ثمينة للطبقة العاملة المتقدمة في المانيا . ولكن بامكاننا ان نتخيّل سلفاً مقـدار الاكاذيب التي ستحشر في النص وبخاصة في الحواشي. يكفي ان نشير الى أن رسائل لينين الى كولانتاي [١] في نيويورك تشغل الحيّز الأكبر من فهرس هذا الكتاب . لماذا ؟ لمجرد ان هذه الرسائل تحوي ملاحظات قاسية ضدي تعتمد على معلومات **مغلوطة تماماً** من كولانتاي التي كانت قد حقنت اتجاهها المنشفي الخالص بمصل من الهستيريا اليسارية المغالية . لقد أجبر « رجال الصف الثاني » على ان يشيروا في الطبعة الروسية ، وإن يكن بشكل مبهم ، الى ان لينين قد اعتمد على اخبار مغلوطة . غير اننا نستطيع ان نسلـّم بان الطبعة الالمانية ستخلو حتى من هـذا التحفـّظ الهروبي . وبالاضافة الى ذلك ، فان رسائل لينين الى كولانتاي تحتوي

---

١ – كولانتاي مناضلة اشتراكية – ديمقراطية مـا لبثت ان انضمت الى الحزب البلشفي . كانت من قادة « المعارضة العمالية » بين ١٩١٧ و ١٩٢٣ مطالبة بزوال سلطة الدولة وسيطرة النقابات على الاقتصاد وتسييرهم شؤون الوطن بمجمله . (المترجم)

على هجوم قاس على بوخارين الذي كان متضامناً مع كولانتاي . لقد اخفي هذا القسم من الرسائل على الأقل للوقت الحاضر . وسوف ينشر على الرأي العام عندما تبدأ الحملة العلنية على بوخارين. وسوف لن نضطر الى الانتظار طويلاً حتى يتم ذلك [1] . ومن جهة أخرى، فان عدداً من الوثائق البالغة الأهمية والمقالات والخطب والمحاضر والرسائل الى آخره المتعلقة بلينين ما تزال طيّ الكتمان لمجرّد انها موجهة ضدستالين وشركاه ، لأنها تنسف اسطورة « التروتسكية » من اساسها . فلم يبق سطر واحد من تاريخ الثورات الروسية الثلاث ومن تاريخ الحزب الا وجرى التلاعب به ، فجرى التضحية بالنظرية والوقائع والتقاليد وبتراث لينين في سبيل الحملة على « التروتسكية » ، هذه الحملة التي ابتكرت ونظّمت ، بعد موت لينين، كصراع شخصي ضد تروتسكي ثم ما لبثت ان تطورت الى حملة على الماركسية ذاتها .

ولقد تأكد مرّة ان ما قد يبدو نبشاً لا مبرّر له لخلافات انتهت منذ زمن طويل يلبّي عادة حاجة اجتماعية غير واعية في الحاضر ، حاجة لا علاقة لها بخط الخلافات القديمة . إن الحملة ضد « التروتسكية القديمة » هي ، في الحقيقة ، حملة ضد تقاليد اكتوبر التي غدت مع الزمن عقبة لا تطاق في طريق البرقراطية الجديدة . فأخذت توجّه تهمة « التروتسكية » الى كل ما تريد التخلص منه . وهكذا اصبح الصراع ضد التروتسكية ، تدريجياً ، التعبير عن الرّدة النظرية والسياسية في أوساط واسعة من العناصر غير البروليتارية وفي بعض الأوساط البروليتارية كذلك ، والتعبير عن انعكاس هذه الردة على الحزب من الداخل . وخاصة في الطريقة المضحكة والممسوخة تاريخياً التي جرى التصدي بها لنظرية الثورة الدائمة بموضوعة لينين عن « التحالف مع الموجيك [2] » التي ولدت فجأة عام ١٩٢٣ . فنشأت مع مرحلة الردة الاجتماعية والسياسية والحزبية ، وكانت التعبير الخطي عنها ، والتعبير عن التناقض العضوي بين البرقراطي والمالك وبين

---

١ — لقد تحققت هذه النبوءة . (ل.ت.)

٢ — الموجيك هو الفلاح الروسي الفقير . (المترجم)

الثورة العالمية بازعاجاتها « الدائمة » ، وعن حنين الموظفين والبرجوازية الصغيرة الى الأمن والنظام . ولقد أدّى التجريح السافل بالثورة الدائمة بدوره الى تمهيد الطريق امام نظرية الاشتراكية في بلد واحد ، اي الى آخر زي ترتديه الاشتراكية – الوطنية . طبعاً ، فان هذه الجذور الاجتماعية الجديدة للصراع ضد التروتسكية بحد ذاتها ، لا تثبت شيئاً عن صحة نظرية الثورة الدائمة او عن تهافتها . ومع ذلك ، واذا نحن لم نفهم هذه الجذور الخفية لا بد للخلاف من أن يتخذ طابعاً أكاديمياً عقيماً .

لم استطع في السنوات الأخيرة ان انسلخ عن المشكلات الجديدة لأعود الى مشكلات قديمه تتعلق بثورة عام ١٩٠٥ ما دامت هذه المشكلات تتعلق بماضيّ وتستخدم الآن بشكل زائف ضد هذا الماضي. وسوف احتاج الى كتابة مجلد خاص اذا ما اردت تحليل الخلافات القديمة في الرأي عامة واخطائي القديمة خاصة في ضوء الظرف الذي نشأت فيه ، ليكون هذا التحليل من التفصيل بحيث يفهمه الجيل الصاعد وبعض العناصر من الجيل القديم التي سقطت في طفولة سياسية ثانية . وقد بدا لي انه من السخف أن أهدر وقتي ووقت غيري على عمل كهذا ، في حين تطرح على بساط البحث قضايا بالغة الاهمية كمهام الثورة الالمانية ، والعلاقة بين اوروبا واميركا ، والقضايا التي طرحتها اضرابات البروليتاريا البريطانية ومهام الثورة الصينية واخيراً وبشكل خاص تناقضاتنا ومهامنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الداخلية ؛ ان هذا كله يبرّر برأيي استمراري في تأجيل كتابي التأريخي – السجالي عن الثورة الدائمة . الا ان الوعي الاجتماعي يرفض اي نوع من انواع الفراغ . وفي السنوات الأخيرة ، تمّ ملء هذا الفراغ النظري ، كما قلت سابقاً ، بحثالات الهجوم على التروتسكية. إن رجال الصف الثاني وفلاسفة الردّة في الحزب وسماسرتها قد انحدروا الى الدرك ، وتتلمذوا على يد المنشفيكي التافه مارتينوف ، وداسوا لينين تحت أقدامهم ، وتخبّطوا في المستنقعات ثم اطلقوا على كل ذلك اسم الصراع ضد التروتسكية . وخلال هذه السنوات الأخيرة ، عجزوا عن انتاج أثر جدّي او هام نستطيع ان نتكلم عنه بصوت

مرتفع دون ان يعترينا الخجل ؛ وفشلوا في ايجاد تقييم سياسي واحد ما زال يحتفظ بقيمته ، ولا بشعار مستقل واحد جعلنا نتقدم خطوة إلى الأمام في الحقل الايديولوجي . لا شيء سوى التفاهة والآثار المملّة في كل مكان .

وما كتاب ستالين « قضايا اللينينية » الا تتويجاً لهذه الحثالة الايديولوجية ، انه سجل رسمي في ضيق الأفق ، وقاموس للتفاهات (اني ابذل جهدي لانتقاء اكثر الاوصاف اعتدالاً) . اما كتاب زينوفييف « اللينينية » فهو ... لينينية زينوفييفية لا أكثر ولا أقل . فزينوفييف يسير على مبدأ لوثر تقريباً . ولكن ، بينما يقول لوثر « هنا اقف ؛ ولا استطيع الوقوف في أي مكان آخر » . يقول زينوفييف : « هنا اقف ... ولكني استطيع الوقوف في مكان آخر ايضاً » . ان انشغال المرء بهذه البضائع النظرية التي يصدرها رجال الصف الثاني امر لا يطاق في كلا الحالين ، مع وجود هذا الفارق : خلال قراءة كتاب زينوفييف ، « اللينينية » يشعر المرء بانه يختنق بنتف من القطن ، اما كتاب ستالين فهو يثير الشعور بالاختناق بشظايا حديدية مسنّنة . وهذان الكتابان هما ، كل على طريقته ، صورة لحقبة الردة الايديولوجية وتتويج لها .

ان رجال الصف الثاني ، بادخالهم جميع القضايا في نطاق التروتسكية وربطها بها ، إن على اليمين او على اليسار ، وإن من فوق او من تحت ، إن من الأمام او من الوراء ، قد تمكنوا أخيراً من أن يجعلوا كل حدث عالمي مرتبطاً بشكل مباشر أو غير مباشر بكيف بدت الثورة الدائمة لتروتسكي عام ١٩٠٥ . إن اسطورة التروتسكية ، التي تفيض بالأكاذيب ، غدت الى حد ما عاملاً من عوامل التاريخ المعاصر . وبينما الخط اليميني – الوسطي خلال السنوات الأخيرة يورّط نفسه بافلاسات ذات مستوى تاريخي في كل قارة ، يغدو النضال ضد ايديولوجية الكومنترن امراً مستحيلاً في الوقت الحاضر ، او يغدو في غاية الصعوبة ، دون تقييم الخلافات والتكهنات القديمة كما برزت في بداية عام ١٩٠٥.

إن انبعاث الفكر الماركسي واللينيني في الحزب لا يمكن ان يتمّ بدون مساجلة مباشرة ضد خربشات رجال الصف الثاني وبدون اصدار حكم الاعدام

الفكري على حجّاب الآلة الحزبية . ليس من الصعب كتابة مثل هذا الكتاب . فجميع عناصره في متناول اليد . ولكن الصعوبة تكمن في انه على المرء ان يهبط الى مستوى تفاهات مكتوبة بدقة بالغة وان يمكث مدة طويلة في جو اقل ما يقال فيه انه آسن . ومهما يكن من أمر ، فلم يعد بالامكان تأجيل مثل هذا الكتاب لأن الصراع ضد الثورة الدائمة هو الدعامة الاولى لتبرير الخط الانتهازي في حلّ قضايا الشرق ، أي النصف الأكبر من البشرية .

كنت على وشك الشروع في مساجلة نظرية ضد زينوفييف وستالين ، أي في عمل هو أبعد ما يكون عن التسلية ، مؤجلاً روائعنا الأدبية الروسية لساعات الفراغ (حتى الغواصون يصعدون إلى سطح الماء لتنشق الهواء النقي بين الحين والآخر) عندما ظهرت مقالة راديك بشكل مفاجيء وبدأ تداولها ، وكانت غاية هذه المقالة التصدي ، « بشكل أعمق » ، لنظرية الثورة الدائمة بواسطة آراء لينين حول الموضوع . في البدء ، أردت ان أطرح مؤلف راديك جانباً خوفاً من أن يصرفني هذا المزيج الذي اختاره لي القدر من نتف القطن والشظايا المسننة عن متابعة عملي . ولكن وصلني عدد من الرسائل من أصدقاء يحثونني على قراءة مقالة راديك بتأنٍ أكثر ، فتوصلت الى النتيجة التالية : إن مقالة راديك أشد خطورة من الكتابات الرسمية على حلقة صغيرة من الأشخاص يدرسون الماركسية بشكل واعٍ وليس بامر من أحد ؛ مثلما تكون الانتهازية في السياسة أشدّ خطورة كلما كانت مقنعة بمهارة اكثر وكلما عظمت الشهرة الشخصية التي تتستر وراءها . إن راديك من أقرب أصدقائي السياسيين . ولقد تأكد هذا بشكل جلي خلال أحداث الحقبة الأخيرة . غير أن عدداً من الرفاق كان يتابع تطور راديك بقلق خلال الأشهر الماضية، إذ انتقل من الجناح اليساري المتطرف في المعارضة الى جناحها اليميني . إن جميع أصدقاء راديك الحميمين يعرفون انه يتمتع بامكانات سياسية وأدبية رائعة تمتزج بالهوائية والانفعالية البالغتين ؛ وهذه الميزات تشكل مصدراً غنياً للمبادرة والنقد في ظروف العمل الجماعي ، غير أنها تؤدي الى نتائج جد مختلفة في ظروف العزلة . إن مقال راديك الأخير، وعلاقته

بعدد من أعماله السابقة ، يدعونا الى الاعتقاد بان راديك قد انحرف عن اتجاهه او ان بوصلته هي تحت تأثير خلل مغناطيسي مستمر . ولا يمكن اعتبـــار مقالة راديك ، في أي حال من الأحوال ، رحلة آنية في الماضي . كلا ، انها مساهمة لم تختمر ما فيه الكفاية في ذهن كاتبها ، ولكنها تبقى مساهمة هدّامــة للدفاع عن الخط الرسمي بكل ترهاته النظرية .

إن النتيجة السياسية التي عرضناهــا منذ قليل والتي يؤدي اليها الصراع ضد التروتسكية لا يعني باي حـــال من الأحوال ان النقد الداخلي ممنوع في صفوف المعارضة وبخاصة نقد الخلافات القديمة بيني وبين لينين ، فهذه المعارضة قد نشأت لتكون الدعامة الماركسية ضد الردة الايديولوجية والسياسية . بل على العكس فان عملاً كهذا يضطلع بمهمة التوضيح الذاتي سيكون بالتأكيد عملاً مثمراً . ومهما تكن الأحوال ، يجب على عمل كهذا ان يحافظ على الافق التاريخي بامانة ، وأن يتحرى بجديــة المصادر الأصلية وأن يوضح الخلافات القديمـــة في ضوء الصراع الحالي ، هذا كله في غاية الأهمية . ولكن لا يوجد اي أثر لذلـك عند راديك . فقد انضم ببساطة وبدون وعي منه الى قافلة الصراع ضد « التروتسكية » . فهو لا يستعين باقوال متحيزة فحسب، وإنما يتبنى التفسير الرسمي الكاذب لها أيضاً. وعندما يبدو وكأنه ينفصل عن الحملة الرسمية ، يفعل ذلـك بشكل مبهم بحيث يزوّد هذه الحملة نفسها بتأييد مزدوج من شاهد « هام » . وكما يحدث دائمـــاً في حالات الانحراف الايديولوجي ، نجد ان مقالة راديك خالية من أي أثر لنباهته السياسية ولبراعته الأدبية. انها مقالة بدون افق ولا عمق، مقالة تعتمد على سرد للأقوال ليس إلا ؛ وهي باهتة لهذا السبب بالذات .

ما هي الحاجات السياسية التي ولدت هذه المقالة ؟ لقد ولدت من الخلافات في الرأي التي نشأت بين راديك وبــين الغالبية الساحقة من أفراد المعارضة حول قضايا الثورة الصينية. صحيح ان بعض الاعتراضات تقول ان الخلافات في الرأي حول الصين « ليست هامة الآن » (بريوبراجنسكي) . غير أن هذه الاعتراضات لا تستأهل ان نتوقف عندها بجدية . إن البلشفية قد نمت واتخذت شكلها الحـالي

من خلال نقد وتجميع تجارب عام ١٩٠٥ وهي بعد حديثة العهد ، وبينما ما تزال التجارب **تجارب مباشرة** خاضها الجيل الأول من البلاشفة . وكيف يمكن للأمر أن يكون غير ذلك؟ ومن أي تجربة أخرى يتعلم الجيل الجديد من البروليتاريين الثوريين اليوم إن لم يتعلموا من تجارب الثورة الصينية التي هي حديثة العهد والتي لا تزال ترشح بالدم ؟ ان المتحذلقين الجامدين هم وحدهم الذين يطالبون « بتأجيل » بحث قضايا الثورة الصينية لكي يدرسوها فيما بعد براحة و « هدوء » . هذه ليست من شيم البلاشفة – اللينينيين ، فثورات بلدان الشرق لم تمح من سجل الأحداث اليومية وما زال الجميع يعلم وقائعها .

إن راديك بتبنيه موقفاً زائفاً فيما يتعلق بقضايا الثورة الصينية يحاول تبرير هذا الموقف بواسطة عرض متحيز ومشوّه لخلافاتي القديمة مع لينين. وهنا يضطر راديك الى استعارة اسلحة من مخزن غيره والى الابحار بدون بوصلة في بحر ليس بحره .

إن راديك صديقي ، غير ان الحقيقة اعزّ عليّ منه . وها انا مضطر مرّة أخرى لأن اطرح جانباً مؤلفي الأكثر تفصيلاً حول قضايا الثورة لكي اردّ على راديك . لقد اثيرت اسئلة اهم من ان نتجاهلها خاصة وانها اثيرت بهذا الشكل المفاجىء . وها انا أمام صعوبة ذات ثلاثة جوانب : تعدّد الاخطاء في مؤلف راديك وتنوعها؛ وكون الكتابات والوقائع التاريخية التي تدحض راديك موّزعة على ثلاثة وعشرين عاماً (١٩٠٥ – ١٩٢٨) ؛ وأخيراً الوقت القصير الذي أستطيع ان اخصصه لهذا الكتاب لأن المشكلات الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي أخذت تبرز الى المقدمة .

إن جميع هذه الظروف تحدّد طبيعة كتابي هذا الذي لن يفي الموضوع حقه . فالكثير مما يجب ان يقال لم يقل بعد . ويعود هذا جزئياً ، بالمناسبة ، الى كون هذا الكتاب قد جاء بعد عدة كتب اخصّ منها بالذكر « نقد مشروع برنامج الاممية الشيوعية » . لذا سيبقى العدد الكبير من الأدلة التي جمعتها بدون استعمال بانتظار ان اشرع في كتابة مؤلفي الجديد الموّجه ضد رجال الصف

الثاني ، أي ضد الايديولوجية الرسمية لحقبة الرّدة .

ترتكز مقالة راديك عن الثورة الدائمة على هذا الاستنتاج :

« إن القطاع الجديد من الحزب (أي المعارضة) مهدد بخطر نشوء تيارات سوف تؤدي إلى إنفصال تطور الثورة البروليتارية عن حلفائها الفلاحين . »

ويستغرب المرء ، باديء بدء ، لكون هذا الاستنتاج المتعلق بالقطاع « الجديد » من الحزب يعرض في النصف الثاني من عام ١٩٢٨ على انه استنتاج **جديد** . لقد سمعناه يتردد باستمرار منذ خريف عام ١٩٢٣ . ولكن كيف يبرّر راديك تبنّيه للحجة الرسمية الاساسية ؟ انه لا يفعل ذلك بشكل جديد: انه يعود الى نظرية الثورة الدائمة. في عام ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ابدى راديك رغبته أكثر من مرّة في ان يكتب منشوراً مكرّساً لاثبات الفكرة القائلة ان نظرية الثورة الدائمة وشعار لينين عن دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية ، اذا ما نظرنا اليهما على الصعيد التاريخي أي في ضوء تجربة الثورات الثلاث ، لا يمكن مواجهة الواحد منهما بالآخر وانما ، على العكس من ذلك ، يطابق الواحد منهما الآخر في الجوهر . الآن ، وبعد ان تمحّص راديك في المسألة « مجدداً » ، كما قال لأحد اصدقائه ، فقد توّصل الى الاستنتاج ان نظرية الثورة الدائمة القديمة تهدّد القطاع « الجديد » من الحزب بخطر الانفصال عن الفلاحين لا أكثر ولا أقل .

ولكن كيف « محص » راديك في هذه المسألة؟ إنه يزوّدنا ببعض المعلومات حول هذه النقطة .

« إن الصيغ التي عرضها تروتسكي عام ١٩٠٤ في مقدمته لكتاب ماركس « الحرب الأهلية في فرنسا » وفي عام ١٩٠٥ في كتاب « ثورتنا » ليست في متناول ايدينا » .

ليست الأعوام مذكورة بشكل صحيح هنا ، ولكن لا ضرورة للتوقف عند هذه النقطة . إن الموضوع كله يتلخص في أن الاثر الوحيد الذي عرضت فيه آرائي بشكل منظّم الى حدٍ ما حول تطور الثورة هو مقالة مفصلة بعنوان

« نتائج وتوقعات » (في كتاب « ثورتنــا » ، سان بطرسبرغ ، ١٩٠٦ ، ص ٢٢٤ – ٢٨٦ ») . امـا المقالة المنشورة في مجلة روزا لوكسمبرغ وتسيزكو في بولونيا عام ١٩٠٩ التي يشير اليها راديك فانها غير كاملة ولا شاملة . وتعتمد هذه المقالة نظرياً على كتاب « ثورتنا » الآنف الذكر . ليس على احد ان يقرأ هـذا الكتاب الآن . فمنذ ذلك الزمن ، جرت أحداث هامة وتعلمنا الكثير من هذه الأحداث بحيث تولّد عندي نفور من طريقة رجال الصف الثـاني الحالية في معالجة القضايا التاريخية الجـديدة ليس في ضوء التجربة الحيّة للثـورات التي حققناها ، وانما في ضوء كتابات تتعلق فقط بتكهناتنا المتعلقة بما كانت في ذلك الحين ثورات **قادمة** . طبعاً ، لست أريد بهذا ان أحرم راديك من حق معـالجة للقضية من الزاوية التـاريخية – الكتابية أيضاً . ولكن ، في هذا الحال ، يجب معالجة الأمر بشكل سليم . لقد تعهّد راديك بان يلقي ضوءاً على مصير نظريـة الثورة الدائمة خلال ما يقارب ربع قرن ، الا انه يشير بشكل عابر الى انه ليس « في متناول يده » الوثائق ذاتها التي عرضت فيها هذه النظرية .

اريد ان أشير رأساً هنا إلى ان لينين لم يقرأ مؤلفي الرئيسي الآنف الذكر ، وقد تجلّى لي هـذا الأمر الآن بعد قراءة مقالاته القديمة . وربما يعود ذلك الى ان كتاب « ثورتنا » صودر بعد مدّة وجـيزة من صدوره عام ١٩٠٦ ، وبأني سرعان ما هاجرت بعـد ذلك ، وربما ايضاً لأن ثلثي هذا الكتاب كان من المقـالات القديمة التي أعيد طبعها . وقد سمعت فيما بعـد من عدة رفاق انهم لم يقرأوا هذا الكتاب لانهم ظنوا انه يحتوي فقط على مؤلفات قديمة أعيد طبعها . وعلى كل ، فان الملاحظات السجالية القليلة المبعثرة التي وجهها لينين ضد الثـورة الدائمة مبنية كلها تقريباً على مقدمة بارفوس لمنشور لي بعنوان « قبل التاسع من كانون الأول » ، وعلى نداء بارفوس « لا قيـصرية بعد الآن ! » الذي كنت اجهله ؛ وعلى خلافات داخلية بين لينين وبين بوخارين وغيره . ولم يحصل ان حلل لينين أو استشهد ، ولو بشكل خاطف ، بمقالة « نتـائج وتوقعات » ، وتؤكد بعض اعتراضات لينين على الثورة الدائمـة ، التي لا تتعلق بي من بعيد أو

قريب ، انه لم يقرأ هذه المقالة[1] .

---

١ – الواقع أن لينين قد استشهد فعلاً ، عام ١٩٠٩ ، بمقالة « نتائج وتوقعات » في مقالة له يرد فيها على مارتوف . وليس من الصعب ان نثبت ان لينين قد أخـذ الاستشهادات عن مصدر ثان ، أي عن مـارتوف نفسه . وهذه هي الطريقـة الوحيدة التي يمكن ان نفسر فيها بعض الاعتراضات الموجهة ضدي والمبنية على سوء تفاهم واضح .

في عام ١٩١٩ ، نشرت « الدار الحكومية للنشر » مقالة « نتـائج وتوقعات » على شكل منشور . اما الملاحظة التي أضافها لينين الى الطبعة الكاملة لمؤلفاته الكاملة ، التي تقول ان نظرية الثورة الدائمة جديرة بالاهتمام « الآن » بشكل خاص ، بعد ثورة اكتوبر ، ان هذه الملاحظةتعود الى التاريخ نفسه تقريباً . هل قرأ لينين مقالتي « نتائج وتوقعات » عام ١٩١٩ أم انـه القى نظرة عليه فقط ؟ لا أستطيع ان اعطي حكماً قاطعاً حول هذا الموضوع. فقد كنت في ذلـك الحين مسافراً معظم الوقت ، ولا أمكث في موسكو إلا فترات قصيرة؛ وخلال اجتماعاتي معلينين في تلك الحقبة – ذروة الحرب الاهلية – لم تكن تخطر ببالنا ذكرياتالخلافات النظرية القديمة. إلا أن « ادولف يوف » قد تحادث مع لينين حول نظرية الثورة الدائمة في الوقت ذاتـه تقريباً . ولقد نقل « يوف » مـا جرى في هذا الحديث في الرسالة الوداعية التي كتبها لي قبـل موته . (راجع كتاب تروتسكي « حياتي » نيويورك – ص ٥٣٥ و ٥٣٧) هل يمكن ان نفهم ممـا يؤكده « يوف » ان لينـين قرأ « نتائج وتوقعات » لاول مرة عام ١٩١٩ وتعرف الى صحة التوقع التاريخي الذي تحتويه ؟ لا استطيع ان أقدم حول هـذا الموضوع الا تكهنات نفسية. إن مقدرة هذه التكهنات على الاقناع تتوقف على تقييم جوهر الموضوع المختلف عليه نفسه . وقد تبدو كلمات « ادولف يوف » ان لينين قد أكد صحة توقعي ، غير مفهومـة بالنسبة لانسان نشأ على الزبدة النظرية في الحقبة التي عقبت موت لينين . (يقول تروتسكي في كتابـه « حياتي » – ص ٥٣٥ – إن لينين قال لأدولف يوف بالحرف الواحد : « اجل ، لقد كان تروتسكي على حق ») (المترجم) . ومن جهة اخرى ، فـان كل من يتأمل تطور افكار لينين فيما يتعلق بتطور الثورة ذاتها سوف يفهم ان لينين كان مضطراً ، عـام ١٩١٩ ، الى أن يقدم تقييماً جديداً لنظريـة الثورة الدائمة يختلف عن التقييمات السابقة المستعجلة والعابرة ، والتي غالباً مـا كانت تتناقض فيما بينها قبل ثورة اكتوبر اعتماداً على استشهادات مقبورة ، دون ان يتفحص موقفي العام .

ولكي يؤكد لينين صحة توقعي عام ١٩١٩ لم يكن بحاجة الى التصدي بموقفـه لموقفي . كان يكفي ان يعالج كلا الموقفين في تطورهما التاريخي. ولا حاجة لي ان اكرر هنا ان المحتوى المحدد الذي اعطاه لينين دائماً لصيغة « الدكتاتورية الديمقراطيـة » والذي كان ينبثق من تحليل التغيرات الحقيقية في العلاقات الطبقية اكثر ممـا انبثق من صيغة فرضية – وان هـذا المحتوى التكتيكي والتنظيمي قد دخل التاريخ كانموذج كلاسيكي على الواقعية الثورية . في جميع الحالات تقريبـاً ، وبالأحرى في جميع الحالات الهامة، عندما عارضت لينين إن على الصعيد التكتيكي أو على الصعيد=

ومهما يكن من امر ، فمن العبث ان نعتبر ان هـــذا كل فحوى « لينينية » لينين . ولكن يبدو ان هذا هو رأي راديك : على كل ، فإن مقالة راديك التي سأعالجها هنا لا تثبت فقط ان مؤلفاتي الأساسية لم تكن « في متناول يـــده » فحسب ، وانما انه لم يقرأها أيضاً . وإذا كان قد قرأها فيكون ذلك منذ مدّة طويلة قبل ثورة اكتوبر . وعلى كل فإنـــه لا يحتفظ بالشيء الكثير منهـــا في ذاكرته .

غير ان الأمر لا ينتهي عند هذا الحدّ . في عام ١٩٠٥ أو في عـام ١٩٠٩ ، كان من المشروع وحتى من المحتم ان ندخل في مساجلات فيا بيننا حول مقالات فردية كانت هامة آنذاك او حتى حول جمل في مقالات معزولة ، خـــاصة في ظروف الانشقاق . اما اليوم فمن غير المسموح به بالنسبة لماركسي ثوري ، يريد ان يعود الى مراجعة هذه الحقبة التاريخية الضخمة ، الاّ يطرح على نفسه هـــذا السؤال: كيف جرى تطبيق الصيغ التي هي موضع نقاش؟ كيف جرى تفسيرها وترجمتها عملياً ؟ وأي خطط تكتيكية اتبعت لذلك ؟ فلو أخذ راديك عنـاء القاء نظرة على كتابيّ حول «ثورتنا الأولى» فقط (المجلد ٢ من مؤلفاتي الكاملة) ، لما كان غامر بكتابة مقالته هذه ؛ أو لكان ، على كل حال ، حذف منها سلسلة كاملة من محاوراته المغلوطة . على الاقل ، هذا ما كنت اوّده ان يفعل .

لو قرأ راديك هاذين الكتابين لكان علم ، في الدرجة الأولى ، ان الثـــورة الدائمة بالنسبة لعمـلي السياسي لم تكن تعني مطلقاً القفز عن المرحلة الديمقراطية من الثورة او عن اي من خطواتها المحددة . ولكان اقتنع أنه رغم اني كنت أعيش بشكل غير شرعي عام ١٩٠٥ في روسيا دون أي علاقة مع المهاجرين ، فقد صغت مهام الاطوار المتتالية من الثورة بنفس الطريقة التي صاغها بها لينين ؛

=التنظيمي كان الحق الى جانبه . لهذا السبب بالذات،لم اكن مهتماً بان أتقدم للدفاع عن توقعي التاريخي القديم ، ما دام الامر يبدو انه مجرد ذكريات تاريخيـة . الا اني وجدت نفسي مضطراً الى ان أعود الى هذه المسألة فقط عندما بدأ نقد رجال الصف الثاني لنظرية الثورة الدائمة بتغذية الردة النظرية في « الاممية » كلها، وعندما غدا أداة لنسف الثورة الصينية . (ل. ت.)

ولكان علم اني قد كتبت النداءات الاساسية التي نشرت في لسان الحال المركزي للبلاشفة عام ١٩٠٥ ؛ وان صحيفة « نوفايا جيزن » (الحياة الجديدة) التي كان يحرّرها لينين قد دافعت بحرارة في احدى افتتاحياتها عن مقالتي حول الثورة الدائمة التي نشرت في صحيفة « ناشالو » (البداية) ؛ وان صحيفة لينين « نوفايا جيزن » ، واحياناً لينين نفسه ، كانت دوماً تدعم وتدافع عن القرارات السياسية لمجالس السوفييت التي كنتُ اكتبها والتي كنت اعرضها بنفسي على السوفييت في معظم الأحيان ؛ ولكان علم اني ، بعد هزيمة كانون الأول ، كتبت في السجن منشوراً اشرت فيه الى ان المزيج من الاقتحامية البروليتارية ومن ثورة الفلاحين الزراعية هو القضية الستراتيجية الاساسية ؛ وان لينين طلب نشر هذا الكتاب في دار النشر البلشفية « بوفايا فولنا » (الموجة الجديدة) وابلغني بموافقته القلبية بواسطة كنونيانتس ؛ وان لينين قد تكلم في مؤتمر لندن عام ١٩٠٧ عن « تضامني » مع البلاشفة في آرائي حول الفلاحين والبرجوازية الليبرالية . إن اياً من هذا كله ليس موجوداً بالنسبة لراديك ، والواضح ان هذا ايضاً لم يكن « في متناول يديه » .

ما هو موقف راديك من مؤلفات لينين ؟ ليس أفضل من موقفه من مؤلفاتي ، او ليس أفضل بكثير . لقد اقتصر راديك على الاستشهاد بتلك الكتابات التي وجهها لينين ضدي ولكنه كان غالباً ما يعني بهاأناساً آخرين (بوخارين وراديك مثلاً ؛ ان راديك نفسه يشير إلى هذا الموضوع بوضوح) . ولم يتمكن راديك من أن يجد مقطعا جديداً واحداً موجهاً ضدي ، لقد اكتفى باستعمال المواد الجاهزة التي يجدها كل مواطن في الاتحاد السوفييتي « في متناول يديه » في ايامنا هذه . وقد أضاف راديك بعض المقاطع التي يوضّح فيها لينين بعض الحقائق الأولية للفوضويين والاشتراكيين - الثوريين حول الفرق بين الجمهورية البرجوازية والاشتراكية ، ويصور راديك الأمور بحيث تبدو هذه المقاطع وكأنها موجهة ضدي . انه امر لا يصدّق ، ولكن هذا ما حصل !

ويتحاشى راديك ذكر تلك التصريحات التي اعترف فيها لينين بتضامني مع

البلاشفة حول قضايا الثورة الأساسية بحــذر بالغ وبحرص شديد ولكن بوضوح تام . ولا يجب ان يغيب عن الاذهان هنا ان لينين قال ذلك في زمن كنت فيه خارج الجناح البلشفي، وكان لينين يهاجمني بدون رحمة (وقد كان على حق في ذلك) بسبب موقفي التوفيقي ، ليس بسبب الثورة الدائمة التي اقتصر كلامه عنها على بعض الاعتراضات العابرة ، وانما بسبب موقفي التوفيقي ، أي سبب استعدادي للتفاؤل بامكان تطور المنشفيك نحــو اليسار . لقد كان لينين مهتماً بالصراع ضد التوفيقية اكثر بكثير من اهتمامه « بعـــدالة » الضربات السجالية المبتورة الموجهة لتروتسكي « التوفيقي » .

في عام ١٩٢٤ ، كتب ستالين مدافعاً عن سلوك زينوفييف في اكتوبر عام ١٩١٧ ضد تهجماتي عليه :

« إن الرفيق تروتسكي قد فشل في فهم رسائــل لينين (حول زينوفييف) ومعناها وهدفها. احيــاناً كان لينين يستبق الأمور عن قصد فيبرز الى المقدمة اخطاء يرجّح انها سترتكب ، وينقدها سلفاً لغاية تحذير الحزب منها وحمايته من هذه الأخطاء . وفي بعض الأحيان ، يلجأ إلى تضخيم « أمر تافه » و « يجعل من الحبّة قبّة » للسبب التعليمي نفسه ... ولكن ان نحـاول ان نستخلص من مثل هذه الرسائل للينين (وقد كتب العديد منها) وجود خلافات فاجعــة . وان نبالغ في التكلم عنها يعني اننا لا نفهم رسائل لينين واننا لا نعرف لينين . » (ج . ستالين « تروتسكية ام لينينية » ١٩٢٤) .

الفكرة معروضة هنا بشكل فظ ، لا عجب « كما يكون الاسلوب كذلــك يكون الانسان » ، الا ان جوهر الفكرة صحيح رغم كونها تنطبق اقل مــا تنطبق على الخلافات خلال فترة اكتوبر ، التي لا تشابه « القبة » بشيء . ولكن إذا كان لينين يلجأ إلى المبالغات « التعليمية » والمساجلات الوقائية فــيما يتعلق باقرب النــاس اليه في جناحه ، إذن كان يفعل نفس الشيء فيما يتعلق باناس كانوا خارج الجناح البلشفي في ذلك الحين وكانوا يبشّرون بموقف توفيقي . ولم يخطر ببال راديك مطلقاً ان يدخل الى النصوص القديمة هذه التعديلات اللازمة .

في عام ١٩٢٢ ، كتبت في مقدمتي لكتاب «العام ١٩٠٥ » ان توقعي بامكان وترجيح قيام دكتاتورية البروليتاريا في روسيا قبل قيامها في البلدان المتقدمة قد أكد الواقع صحته بعد اثني عشر عاماً . ويقتدي راديك بامثلة ليست جذابة فيعرض الامور بحيث يبدو إني قد اعتبرت توقعي **بديلاً** لخط لينين الستراتيجي. إلا أن المقدمة تظهر بوضوح اني عالجت توقع الثورة الدائمة على أساس سمتين أساسيتين **تلتقيان** بخط البلاشفة الستراتيجي . وعندما اتكلم في إحدى الحواشي عن « اعادة تسليح » الحزب في بداية عام ١٩١٧ ، فاني لا اعني بذلك ان لينين قد اعترف بان الطريق السابق الذي كان يسلكه الحزب كان « خاطئاً » وانما اعني ان لينين قد وصل الى روسيا ، ومع انه تأخر فقد وصل في الوقت المناسب لانجاح الثورة ، ليعلّم الحزب ان **يتخلى عن شعار « الدكتاتورية الديمقراطية »** الذي تخطاه الزمن الذي كان أمثال ستالين وكامينيف وريكوف ومولوتوف وغيرهم ما زالوا متمسكين به . ولا عجب إذا امتلك الغيظ أمثال كامينيف عند ذكر « إعادة تسليح الحزب » ، فقد كان هذا موجهاً ضدهم . ولكن ماذا بشأن راديك ؟ كانت أول مرة ينزعج فيها عام ١٩٢٤ ، أي بعد أن بدأ هو نفسه بالصراع ضد ضرورة « اعادة تسليح » الحزب الشيوعي الصيني .

فليتذكر راديك ان كتابي « العام ١٩٠٥ » (بمقدمته المجرمة) و « ثورة اكتوبر » كانا ، عندما كان لينين ما يزال على قيد الحياة ، بين الكتب التاريخية الأساسية عن كلا الثورتين . وفي ذلك الحين ، صدر الكتابان بعدة طبعات باللغة الروسية وباللغات الأجنبية ايضاً . ولم يقل لي أحد إن كتابيّ يحتويان على خطين متضادين ؛ لأنه في ذلك الحين ، أي قبل الحملة التحريفية ، لم يكن هناك حزبي واحد يسخر تجربة اكتوبر للنصوص القديمة وانما ينظر الى النصوص القديمة في ضوء ثورة اكتوبر .

وفيما يتعلق ذلك ، ثمة موضوع آخر يسيء راديك استعماله بشكل لا يطاق، إذ يقول إن تروتسكي قد اعترف ان لينين كان على حق وليس هو . طبعاً قلت ذلك . ولم يكن هذا الاعتراف يحوي ولو قيراطاً واحداً من الدبلوماسية . فقد

كان في ذهني طريق لينين التاريخي، وموقفه النظري كله ، واستراتيجيته وبناؤه للحزب . إلا أن هـــذا الاعتراف لا ينطبق طبعـاً على كل واحد من النصوص السجالية ، التي يساء استعمالها بالاضافة لذلك لاغراض معادية لليلينية . في عام ١٩٢٦ خلال التحالف مع زينوفييف ، حذرني راديـك من ان زينوفييف يحتاج الى تصريحي بان لينين كان على حق وليس انا ليستر بها كونه ، اي زينوفييف ، كان مخطئاً تجاهي . وطبعاً فهمت هذا الأمر فهماً تامـاً . ولهذا قلت في الاجتماع السابع للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية اني اعني صوابية لينين وحزبه التاريخية، ولكني لا اعني ، باي حال من الأحوال ، صوابية نقادي الحاليين الذين يحاولون تستير أنفسهم بنصوص منتقاة من لينين . يؤسفني الآن ان اضطر الى جعل هــذه هذه الكلمات تشمل راديك كذلك .

اما فيما يتعلق بالثورة الدائمة ، فقد تكلمت فقط عن **مساوىء** النظريـة التي هي حتمية بحكم كون القضية قضية **تكهن**. لقد اكد بوخارين عن حق في الاجتماع السابع للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ان تروتسكي لم يتخلَّ عن المفهوم كلّه . سوف اتكلم عن « المساوىء » في كتاب آخر أكثر شمولاً وسوف اسعى فيه الى عرض تجارب الثورات الثلاث وتطبيقها على المسيرة القادمـــة للكومنترن وفي الشرق بخاصة. ولكن حتى لا افسح المجال امام سوء الفهم اودّ ان اقول باختصار ما يلي : بالرغم من مساوىء نظرية الثورة الدائمة ، حتى كما كانت عليـه عندما عرضتها في مؤلفاتي الأولى وخاصة في « نتائج وتوقعات » (١٩٠٦) ، فانهـــا أكثر انسجاماً معروح الماركسية وبالتالي اقرب من خط لينين والحزب البلشفي من حكمة ستالين وبوخارين التأملية ومن مؤلف راديك الأخير كذلك .

ولست اعني بهذا القول ان مفهومي للثورة يسلك ، في جميع كتاباتي ، خطاً واحداً لا ينحرف . لم اكن انشغل بتجميع النصوص القديمة ، اني مجبر الآن على ذلك فقط بسبب حقبة الردة في الحزب وبسبب طغيان رجال الصف الثـاني ؛ وانما كنت احاول ، عن حق أو عن خطأ ، ان احلـّل عمليات الحياة الحقيقية . ويوجد في الاثنتي عشرة سنة من نشاطي الثوري والصحفي (١٩٠٥ — ١٩١٧)

مقالات كانت الظروف الآنية وحتى المبالغة السجالية العابرة التي لا غنى عنها في الصراع تبرز الى المقدمة بشكل مغاير للخط الستراتيجي . وهكذا ، نجد مثلاً مقالات عبّرت فيها عن شكوكي فيما يتعلق بـدور الفلاحين الثوري في المستقبل **ككل وكطائفة** ؛ ورفضت في هذا الصدد ، خــلال الحرب الاستعمارية بشكل خاص ، ان اصف الثورة الروسية القادمة بانها ثورة « وطنية » لاني كنت اشعر ان هذه الصفة مبهمة. ولكن لا يجب ان ننسى ان العمليات التاريخية التي تهمنا، بما فيها عمليات الفلاحين ، هي أكثر وضوحاً الآن بعد ان تحققت مما كانت عليه ابان نموّها . ولنلاحظ في هذا المضمار ان لينين ، الذي لم تغب عن باله قط القضية الفلاحية بكل ضخامتها التاريخية – هذا الدرس الذي تعلمناه منه جميعاً ، كان يظن حتى بعد قيام ثورة شباط انه من غير المؤكد اننا سننجح في ابعاد الفلاحين عن البرجوازية واستمالتهم الى جانب البروليتــاريا . اني اقول : لنناد القساة انه لأسهل ان ننبش خلال ساعة التناقضات الرسمية الموجودة في مقــالات الآخرين الصحفية خلال ربع قرن ، من ان نحافظ ، ولو لعام واحد ، على وحدة الاتجاه الرئيسي .

ولم يبق لي في هذه المقدمة سوى ان اتعرّض لاعتبار محض اسطوري، يقول راديك : لو كانت نظرية الثورة الدائمة غير صحيحة لتمكن تروتسكي من تأليف جناح كبير على أساسها . ولكن هذا لم يحصل . لذلك فإن النظرية ... خاطئة.

اذا ما نظرنا الى موضوعة راديك هذه بشكل عام يتبيّن لنا انها لا تحوي على أي أثر للديالكتيك . وبالامكان ان نستنتج منهــا ان موقف المعارضة من الثورة الصينية أو موقف ماركس من الشؤون البريطانية كان خاطئاً ، وان موقف الكومنترن من الاصلاحيين في امــيركا وفي النمسا وإن شئنا في جميع البلدان ، هو خاطىء أيضاً .

ولكن اذا لم نأخذ حجة راديك في شكلها « التاريخي ، الفلسفي » العــام وانما كما تنطبق فقط على القضية التي نعالجها ، إذن لارتدت على راديك نفسه . لو كنت من الرأي القائل ان اتجاه الثورة الدائمة **يناقض** الخط الستراتيجي البلشفي

أو يدخل في **تضاد** معه أو **يختلف** عنه شيئاً فشيئاً ؛ ولو اثبتت الاحداث ذلك وهذا ما هو اهمّ ، إذن لكان لحجة راديك بعض المعنى . وفي مثل هـذه الحالة يكون ثمة مبرر لقيام جناحين . ولكن هذا هو بالتحديد ما يريـــد ان يثبته راديك . الا اني اريد ان ابيّن ، على عكس ذلـــك ، ان الخط الستراتيجي الاساسي كان واحداً بالرغم من المبالغات السجالية بـــين الاجنحة والمزايدات الحوارية حول الموضوع . من اين ، إذن ، سيأتي الجناح الآخر ؟ لقـد اتضح في الواقع اني تعاونت مع البلاشفة في الثورة الأولى ودافعت فيما بعد عن هذا العمل المشترك في الصحافة العالمية ضد نقد المنشفيك المرتدين . وفي عام ١٩١٧ ناضلت جنباً الى جنب مع لينين ضد الخط الانتهازي الديمقراطي الذي كان يسلكه اولئك « البلاشفة القدامى » الذين صعدوا على رأس الموجة الرجعية الآن والذين لا يملكون من السلاح سوى التجريح بالثورة الدائمة .

وأخيراً ، اني لم احاول مطلقاً ان انشىء مجموعـــة على أساس افكار الثورة الدائمة . كان موقفي داخل الحزب هو موقف **توفيقي** ، وعندما حاولت تكوين مجموعات فقد كانت تقوم على اساس هذا الموقف . وكان موقفي التوفيقي نابعـاً من نوع من القدريـــة الاشتراكية – الديمقراطية . كانت الدلالة التاريخية العظيمة لسياسة لينين ما تزال غير واضحة بالنسبة لي في ذلك الحين ، وكذلـك سياسته في الانطلاق الايديولوجي غير المهادن ، واللجوء الى الانشقاق عند الضرورة لغاية لحم وتمتين لبّ الحزب الثوري الحق . وقد كتب لينين عام ١٩١١ حول هـذا الموضوع ما يلي :

« إن الاتجاه التوفيقي هو المجموع العام لأمزجـــة ومحاولات وآراء تلتحم بجوهر المهمة التاريخية التي يواجههـــا الحزب الاشتراكي – الديمقراطي الروسي خلال فترة الثورة المضادة خلال الاعوام ١٩٠٨ – ١٩١١ . لهذا السبب ، انزلق عدد من الاشتراكيين – الديمقراطيين ، الذين انطلقوا من منطلقات مختلفـــة الى الاتجاه التوفيقي في تلك الفترة . وكان تروتسكي يعبّر عن الاتجاه التوفيقي بثبات أكثر من الآخرين . ولعله كان الوحيد الذي حاول ان يبني هـــذا الاتجاه على

أسس نظرية » . (لينين : المؤلفات الكاملة – المجلد ١١ – الجزء الثاني – ص ٣٣١ – الطبعة الروسية) .

إني بسعيي الى الوحدة باي ثمن قد عملت ، بشكل غير إرادي محتم، على رفع اتجاهات المنشفيك الوسطية الى الصعيد المثالي . ورغم محاولاتي الآنية الثلاث لم أصل الى الاتفاق مع المنشفيك ولا كان ذلك ممكناً . ومن جهة أخرى ، فان اتجاهي التوفيقي اضطرني الى خوض معركة مع البلاشفة لأن لينين كان ، على عكس المنشفيك ، يرفض التوفيق رفضاً قاطعاً ، ولم يكن بامكانه أن يفعل غير ذلك . ومن البدهي انه لا يمكن إنشاء جناح على أساس الموقف التوفيقي .

من هنا كانت هذه العبرة : انه من غير المسموح به ومما يؤدي الى عواقب وخيمة تحطيم خط سياسي معين او اضعافه لغايات توفيقية مبتذلة ؛ ومن غير المسموح به ان نطلي الاتجاه الوسطي بالوان زاهية عندما ينعرج الى اليسار وان نعمد، في السعي وراء الأوهام الوسطية، ان نضخم ونبالغ في الخلافات في الرأي مع رفاق ثوريين اصيلين . تلك هي العبر الحقيقية التي تعلمنا إياها اخطاء تروتسكي الحقيقية . وهذه العبر جد مهمة . وهي ما تزال تحتفظ باهميتها الى يومنا هذا ، ويتوجب على راديك بالذات ان يفكر فيها .

لقد قال ستالين ذات مرة بتلك اللهجة النظرية الحقيرة التي هي احدى خصائصه « لا يمكن لتروتسكي الا ان يكون على علم بان لينين قد حارب نظرية الثورة الدائمة الى نهاية حياته . الا ان تروتسكي لا يهتم بهذا الأمر ». (« برافدا »– العدد ٢٦٢ – ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٦) .

ان هذا القول فظ وكاذب ، اي انه مسخ ستاليني كامل للواقع . في احد تصريحاته للشيوعيين الاجانب ، فسّر لينين ان الخلافات في الرأي بين الشيوعيين تختلف الى حد ما عن الخلافات في الرأي مع الاشتراكيين – الديمقراطيين . وكتب ان البلشفية قد عانت في الماضي من مثل هذه الخلافات في الرأي . ولكن « ... عندما استلم البلاشفة الحكم وشيّدوا الجمهورية ، اثبتوا انهم متحدون فاستمالوا اليهم افضل تيارات الفكر الاشتراكي التي كانت لصيقة بهم ... »

(لينين : المؤلفات الكاملة – المجلد ١٦ – الصفحة ٣٣٣) .

ما هي تيارات الفكر الاشتراكي التي كان يفكر فيها لينين عندما كتب هذه الاسطر ؟ مارتينوف ام كيبوسينين ؟ ام كاشين وثالمان وسميرال ؟ هل بدا هؤلاء بالنسبة اليه « افضل التيارات اللصيقة بهم » ؟ وأي اتجاه آخر كان اكثر التصاقاً بالبلشفية من الذي كنت امثله في جميع القضايا الأساسية بما فيها قضية الفلاحين ؟ حتى روزا لوكسمبورغ قد نفرت ، في البدء ، من السياسة الزراعية التي انتهجتها الحكومة البلشفية . اما بالنسبة لي فليس من شك حول موقفي : لقد كنت إلى الطاولة بجانب لينين عندما كتب القانون الزراعي. واقتصر عملي على تبادل الآراء فيما بيننا على حوالي عشر ملاحظات قصيرة كانت تدور حول النقطة التالية : الخطوة متناقضة، ولكن لا مفرّ منها على الصعيد التاريخي. سوف تصحّح هذه التناقضات في ظل نظام دكتاتورية البروليتاريا وفي نطاق الثورة العالمية – وكل ما نحتاج اليه هو مزيد من الوقت . إذا كان يوجد تناقض أساسي بين نظرية الثورة الدائمة وبين ديالكتية لينين حول قضية الفلاحين ، كيف يفسّر راديك إذن اني لم اخطىء مطلقاً حول قضية الفلاحين عام ١٩١٧ كما فعل أغلبية القادة البلاشفة آنذاك بالرغم من تمسكي بآرائي الاساسية حول مسيرة التطور الثوري ؟ بعد ثورة شباط تبنّى المفكرون والسياسيون الحاليون يقفون وراء الحملة ضد التروتسكية ، زينوفييف وكامينيف وستالين وريكوف ومولوتوف وغيرهم ، بدون استثناء الموقف الديمقراطي المبتذل ولم يتبنّوا الموقف البروليتاري – كيف يفسّر راديك ذلك ؟ مرّة أخرى : عن ماذا وعن من كان لينين يتكلم عندما اشار ان الاندماج الذي تمّ بين البلاشفة وبين أفضل العناصر في التيارات الماركسية الأكثر التصاقاً بها ؟ أليس هذا التقييم الذي انهى فيه لينين الخلافات السابقة في الرأي دليلاً على انه يعتبر ان ثمة خطين استراتيجيين متناقضين ؟

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المضمار خطاب للينين في جلسة « لجنة بتروغراد[1] » في أول تشرين الاول عام ١٩١٧. في تلك الجلسة تمّ بحث موضوع

١ – كما هو معلوم ، امر ستالين بتمزيق الصفحات العديدة التي تحوي محاضر هذه الجلسة التاريخية من « كتاب اليوبيل » وما تزال حتى يومنا هذا مخفية عن الحزب . (ل . ت .)

التحالف مع المنشفيك والاشتراكيين – الثوريين . ولقد سعى مؤيدو التحالف حتى في ذلك الحين ان يغمزوا بخجل من قناة « التروتسكية » . فماذا كان جواب لينين ؟

« تحالف ؟ اني لا أستطيع أن اتكلم بشكل جدي عن هذا الموضوع . لقد قال تروتسكي منذ زمن طويل ان الوحدة مستحيلة . لقد فهم تروتسكي هـذا – ومنذ ذلك الحين وهو أفضل البلاشفة » .

لم تكن الثورة الدائمة هي التي فرقت بيني وبين البلاشفة ، بالنسبة للينين ، وانما موقفي التوفيقي . ولكي اصبح « افضل البلاشفة » كان عليّ ان أفهم فقط ان التفاهم مع المنشفيك أمر مستحيل كما رأينا .

ولكن كيف يمكن تفسير انعطاف راديك المفاجيء بالنسبة لموضوع الثورة الدائمة؟اني أعتقد أن ثمة تفسيراً واحداً.يخبرنا راديك في مقالته انه كان يتفق مع نظرية « الثورة الدائمة » عام ١٩١٦ ؛ ولكنه كان يتفق مع تفسير بوخارين لهذه النظرية الذي يعتبر أن الثورة البرجوازية قـد تحققت في روسيا ، وليس فقط دور البرجوازية الثوري ولا حتى الدور التاريخي الذي لعبه شعار الدكتاتورية الديمقراطية وانما الثورة البرجوازية بحد ذاتها ، لذا يجب على البروليتاريا انتتقدم للاستيلاء على الحكم تحت راية اشتراكية فحسب . ولقد فسّر راديك موقفي في ذلك الحين علىطريقة بوخارين وأذاع هذا التفسير علناً،ولو لم يكن الأمر كذلك لما أعلن تضامنه مع بوخارين ومعي في آن واحد ، وهذا يفسر ايضاً لماذا كان لينين يوجه هجومه ضد تروتسكي عندما كان يعني بالفعل بوخارين وراديك اللذين كانا يتعاونان معه . (إن راديك يعترف بهـذا الأمر في مقالته) . واني أذكر ايضاً ان المدعو م. ن. بوكروفسكي ، احد زملاء بوخـارين الفكريين الذي يبني بدون ككل المناهج التاريخية ويحاول تصويرها على انها هي الماركسية ، قد أثار شكوكي خلال أحاديث لي معه في باريس بسبب « تضامنه » المشبوه في هـذه المسألة . ففي السياسة كان بوكروفسكي وما يزال معادياً لحزب الكاديت وهو يعتقد بصدق ان هذا الموقف يجعل منه بلشفياً .

ويبدو أن راديك كان ، خلال عام ١٩٢٤ و ١٩٢٥ ، مـــا يزال يقتات من فتات موقف بوخارين عام ١٩١٦ وظلّ يدمج بين هـذا الموقف وبين موقفي . وبعد دراسة سريعة لكتـابات لينين خاب ظنه في هذا الموقف اليـــائس ، كما يحصل في حـــالات كهذه ، ورسم قوساً من ١٨٠ درجة فوق رأسي . هـذا أمر محتمل جداً لأنه احدى شيم راديك . وهكذا ، فـان بوخارين الذي انقلب رأساً على عقب بين عام ١٩٢٣ و ١٩٢٥ ، اي انه تحوّل من يساري متطرف الى انتهـــازي ، يجعلني مسؤولاً عن مـــاضيه الايديولوجي الذي يطلق عليه لقب « التروتسكية » . في الفترة الاولى من الحملة ضدي، عندمـــا كنت أجبر نفسي أحياناً على قراءة مقالات بوخارين ، غالباً ما كنت أتساءل : من أين اتى بهذا ؟ ولكن سرعان ما فطنت الى أنه قد القى نظرة الى كتاباته السابقة. وانيأتساءل الآن مـــا اذا كان تحوّل راديك من أحد دعاة الثورة الدائمة الى احد اعدائهـــا يرتكز على البنيان النفسي ذاته . اني لا أصرّ على هذه الفرضية . غـــير اني لا أستطيع ان أجد تفسيراً آخر .

وعلى كلٍ : لقد غُرفت الخمرة ولا بد من شربها ، على حد تعبير الفرنسيين . وها نحن مجبرون على الشروع في رحلة طويلة الى مجاهل النصوص القديمة . لقـد خفضت من عددها قدر المستطاع . ومع ذلك لا يزال هناك العديد منها. فليكن عزائي اني بتنقيبي الالزامي في هـــذه النصوص القديمة أسعى وراء الخيوط التي ترتبط بالقضايا المعاصرة الملحّة .

٢ - ليست الثورة الدائمة « قفزة » تقوم بها البروليتاريا، وانما هي اعادة بناء الأمة تحت قيادتها

كتب راديك :

« إن السمة الأساسية التي تميز الاتجاه الفكري الذي يسمى نظرية وخطة « الثورة الدائمة » عن نظرية لينين تكمن في خلطها مرحلة الثورة الديمقراطية بمرحلة الثورة الاشتراكية » .

وترتبط بهذا الاتهام الاساسي ، أو بالأحرى تنتج عنه اتهامات ليست أقل خطورة منه ، كأن يقول ان تروتسكي لم يفهم انه « من المستحيل ان تتحقق الثورة الاشتراكية في ظروف روسيا اذا هي لم تنبثق عن الثورة الديمقراطية » ، وينتج عن ذلك أيضاً الاتهام « بالقفز عن مرحلة الدكتاتورية الديمقراطية » . أو ان يقول ان تروتسكي قد « انكر » دور الفلاحين ، وهنا « تلتقي آراء تروتسكي بآراء المنشفيك » . اكرّر ما ورد سابقاً : إن الهدف من جميع هذه الاتهامات هو اثبات خطأ موقفي من قضايا الثورة الصينية الاساسية بالبراهين المستفيضة .

ما دامت القضية تتعلق بالقسم المسموح به رسمياً من كتابات لينين ، فالمسلّم به ان لراديك مطلق الحرية في ان يستشهد به هنا وهناك . وهذا ما يفعله ، لأن هذا القسم من كتابات لينين موجود « في متناول » الجميع . اني سوف ابيّن عمّا قليل ان تهجمات لينين ضدي كانت ذات طابع آني ليس الا ، ولم تكن صحيحة

أي انها لم تكن تصور موقفي الحقيقي كما كان عليه حتى في عـام ١٩٠٥ . ففي كتابات لينين ذاته ، هناك ملاحظات مختلفة كل الاختلاف عن هـذه الكتابات المتداولة ومناقضة لها ، واحـكام أكثر دقـة حول موقفي من قضايا الثورة الاساسية . غير ان راديك لم يبذل أي مجهود لتوحيد ملاحظات لينـين المختلفة والمتباينة . وان يجلي هذه التناقضات الناجمة عـن السجال النظري بمقارنتهـا بآرائي الفعلية[1] .

في عـام ١٩٠٦ ، نشر لينين مقالاً لكاوتسكي حول القوة الدافعـة للثورة الروسية وقدّم له . وبدون ان أعلم بذلك ، قمت انا بدوري بترجمـة مقال كاوتسكي هذا خلال وجودي في السجن وقدّمت له ونشرته في كتابي «دفاعاً عن الحزب » . وقد أبدى كلانا اتفاقاً كاملاً مع تحليل كاوتسكي . كان بليخانوف قد تساءل : « هل إن ثورتنـا ثورة برجوازية ام اشتراكية ؟ » فأجاب كاوتسكي مؤكداً ان الثورة لم تعد برجوازية إلا أنها لم تصبح اشتراكية بعد ، اي انها تمثل مرحلة انتقالية بين الواحدة والأخرى . وبهذا الصدد كتب لينين في مقدمته :

« ثورتنا ، هـل هي برجوازية ام اشتراكية في طابعها العام ؟ يقول كاوتسكي ان هذه الصيغة قديمة. ان السؤال لا يطرح بهذا الشكل ، ليست هـذه الطريقة المـاركسية لطرحه . ان الثورة في روسيا ليست ثورة برجوازية، لأن البرجوازية لم تعد إحدى القوى الدافعة للحركة الثورية الحاليـة في روسيا . ولكن الثورة في روسيا ليست ثورة اشتراكيـة . » (لينين : المؤلفات الكاملة : المجلد ٨ — ص ٨٢ — الطبعة الروسية) .

---

١ — اذكر ان بوخارين قد استشهد بالكتابات نفسها في المؤتمر الثاني للجنة المركزية للاممية الشيوعية ، فقلت له : « ولكن هناك كتابات للينين تتناقض مع ما تقوله » . وبعد برهـة من الارتباك اجاب بوخارين : « اعرف ذلك . اعرف ذلك . ولكني انتقي منها ما احتاجه انا . وليس ما تحتاجه انت » . هوذا مثال رائع عن سرعة خاطر هذا المفكر . (ل.ت.) .

وبالرغم من ذلك ، فمن السهل ان نجد عدداً لا بأس به من النصوص التي كتبها لينين قبل هـذه المقدمة او بعدها والتي يصف فيها الثورة الروسية بانهـا ثورة برجوازية . هل هـذا تناقض ؟ اذا كنا نريد ان نحـدد موقفاً من لينين بنفس الأساليب التي يعتمدهـا نقاد « التروتسكية » الحاليون ، لوجدنا ، بسهولة ، عشرات بل مئات من مثل هذه التناقضات . ولكننا نعلل وجودها ، للقاريء الجدّي النبيه ، بالاختلاف في طرق معالجة الموضوع في أوقات مختلفة ، وهذا لا يسيء باي حال من الاحوال الى الوحدة الأساسية لفكرة لينين .

ومن جهة أخرى ، فاني لم انكر قط الطابـع **البرجوازي** للثورة فيما يتعلق بمهامها التاريخية العاجلة ، ولكني تنكرت لهذا الطابع فيما يتعلق بقواهـا المحركة وتطلعاتها. ان الكتاب الأساسي الذي عالجت فيه موضوع الثورة الدائمة في تلك الفترة (١٩٠٥ – ١٩٠٦) يبدأ بالمقطع التالي :

« ان الثورة في روسيا قد فاجأت الجميع ما عـدا الاشتراكيين ــ الديمقراطيين . فمنذ زمن طويل تنبأت الماركسية بحتمية الثورة الروسية ، التي كان لا بد منها من ان تنفجر نتيجة للصراع القائم بين التطور الرأسمالي من جهة وبين قوى الحكم المطلق المتحجرة من جهـة أخرى ... وعندما اطلقت الماركسية على هذه الثورة صفة الثورة البرجوازية ، كانت تشير الى أن الاهداف الموضوعية العاجلة للثورة تتلخص في توفير « الظروف الطبيعية لتطوير المجتمع البرجوازي كله » . ولقـد كانت الماركسية على حق ، هذا امر لا يحتاج الى نقاش أو اثبات . إن مهمة من نوع جديد تواجه الماركسيين الآن : انهم مطالبـون بان يكتشفوا « الامكانات » الكامنة في الثورة التي تتوالى أمامنا بواسطة تحليـل تركيبها الداخلي ... إن الثورة الروسية تتميز بطابـع

فريد هو حضيلة الاتجاه الخاص الذي سار فيه التطور الاجتماعي والتاريخي عندنا ، والذي يفتح أمامنا آفاقاً تاريخية جديدة » (تروتسكي : « ثورتنا » — ١٩٠٦ — المقالة « نتائج وتوقعات » — ص ٢٢٤ — الطبعة الروسية) .

«إن العبارة السوسيولوجية العامة «ثورة برجوازية» لم تعد قادرة على حل القضايا السياسية والتكتيكية ولا التناقضات التي يطرحها علينا تركيب ثورة برجوازية معينة » . (المرجع ذاته — ص ٢٤٩) .

وهكذا ، فإني لم انكر الطابع البرجوازي للثورة التي كانت على وشك الحدوث في ذلك الحين ، ولم أخلط الديمقراطية بالاشتراكية . ولكني حاولت ان أبين أن الجدلية الطبقية للثورة البرجوازية في بلدنا سوف تأتي بالبروليتاريا الى الحكم، وانه لا يمكن تنفيذ المهام الديمقراطية بدون تحقيق دكتاتورية البروليتاريا. ولقد كتبت في المقالة ذاتها (١٩٠٥ — ١٩٠٦) ما يلي :

« إن البروليتاريا تنمو وتتضاعف قوتها بنمو الرأسمالية . بهذا المعنى يكون تطور الرأسمالية هو تطور البروليتاريا في اتجاه تحقيق دكتاتوريتها . على ان توقيت انتقال الحكم الى الطبقة العاملة لا يعتمد بشكل مباشر على المستوى الذي بلغته قوى الإنتاج ولكن على علاقات الصراع الطبقي وعلى الوضع العالمي وأخيراً على عدد من العوامل الذاتية كتقاليد الطبقة العاملة ومبادرتها واستعدادها للنضال .

من المحتمل ان يصل العمال الى الحكم في بلد متخلف اقتصادياً قبل وصولهم اليه في بلد متقدم ... إن التصوّر ان قيام دكتاتورية البروليتاريا يعتمد بطريقة

ما على التطور التقني وعلى موارده انما هو زعم من مزاعم المادية « الاقتصادية » التافهة . إن وجهة النظر هذه لا تمت للماركسية باية صلة .

إن الثورة الروسية سوف تخلق برأينا ، الظروف التي تمهد لانتقال السلطة الى العمال ، وفي حال انتصار الثورة يتوجب عليها ان تمهد لهذا الانتقال ، قبل ان يتسنى للسياسيين البرجوازيين الليبراليين ان يعرضوا كل براعتهم في تسيير الحكم » . (المرجع ذاته — ص ٢٤٥) .

إن هذه الاسطر تحوي هجوماً على « الماركسية » المبتذلة التي كانت شائعة خلال عام ١٩٠٥ وعام ١٩٠٦ والتي طبعت مؤتمر البلاشفة في آذار عام ١٩١٧ قبل وصول لينين ، وكان خطاب ريكوف في مؤتمر نيسان خير تعبير عن هذا الاتجاه . وفي مؤتمر الكومنترن السادس كانت هذه الماركسية — المزيفة ، أي هذا المنطق الدعيّ المطعم بالذهنية المدرسية المنحرفة يشكل القاعدة « العلمية » لخطب كيوسينين وآخرين ، آخرين غيره . وقد جرى هذا كله بعد عشر سنين من انتصار ثورة اكتوبر !

ما دمت لن استطيع ان اعرض هنا جميع جوانب الخط الفكري الذي تتضمنه مقالة « نتائج وتوقعات » فسوف اكتفي بالاستشهاد بمقطع جامع من مقال لي في صحيفة « ناشالو » (البداية) عام ١٩٠٥ .

« إن البرجوازية الليبرالية عندنا تبرز كقوة معادية للثورة حتى قبل ان تبلغ الثورة ذروتها . عند كل لحظة حاسمة يزيدنا الديمقراطيون المثقفون قناعة بعقمهم . اما الفلاحون كمجموع فإنهم يمثلون قوة أساسية من قوى الانتفاضة . ولكنهم لن يخدموا الثورة الا اذا استولت قوة ثورية على الدولة . إن المكانة

الطليعية للطبقة العاملة في الثورة والارتباط المباشر بينها وبين الريف الثوري وبسط نفوذها على الجيش ، كل هذا يدفعها حتماً الى استلام الحكم . انتصار الثورة الكامل هو انتصار البروليتاريا . وهذا يعني بدوره ديمومة الثوره » .

(تروتسكي : « ثورتنا » – ص ١٧٢ – الطبعة الروسية) .

إن توقّع قيام دكتاتورية البروليتاريا ينبثق من الثورة الديمقراطية البرجوازية على عكس ما يقوله راديك . ولهذا السبب بالذات تسمى الثورة ثورة دائمة (غير متقطعة) . ان دكتاتورية البروليتاريا لن تموت **بعد** انتهاء الثورة الديمقراطية كما يدعي راديك . فلو كان الأمر كذلك لكانت مستحيلة الحدوث في روسيا لأن البروليتاريا الضعيفة عددياً لا تستطيع الوصول الى الحكم في بلد متخلف اذا كان قد تمّ تحقيق اهداف الفلاحين في المرحلة السابقة . لا . إن دكتاتورية البروليتاريا محتملة بل حتمية على أساس الثورة البرجوازية . وبالتحديد لأنه لا يوجد قوة أخرى تستطيع تنفيذ مهام الثورة الزراعية ولا يوجد طريق أخرى اليها. وهذا ما يجعل انضاج الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية أمراً متوقعاً.

« إن مجرد اشتراك ممثلي البروليتاريا في الحكم ليس كاسراء حرب لا حول لهم ولا قوة ولكن كقوة قيادية، يهدم الحد الفاصل بين برنامج الحد الادنى وبرنامج الحد الاقصى، اي أنه **يضع قضية التجميع في حيز التنفيذ.** وإن الحد الذي يتوقف عنده تقدم البروليتاريا في هذا الاتجاه ليتوقف على العلاقة بين القوى وليس على نوايا حزب البروليتاريا الاصلية .

لهذا السبب ، لا معنى للحديث عن شكل خاص من اشكال دكتاتورية البروليتاريا في الثورة البرجوازية

أو عن دكتاتورية بروليتارية **ديمقراطية** (أو عن دكتاتورية العمال والفلاحين) . إن الطبقة العاملة لا تستطيع ان تحتفظ بالطابع الديمقراطي لدكتاتوريتها إلا اذا تخطت حدود برنامجها الديمقراطي ...

إن البروليتاريا بمجرد استيلائها على الحكم سوف تقاتل للاحتفاظ به الى النهاية . وحيث يكون احد اسلحتها في هذا القتال للاحتفاظ بالحكم وتدعيمه هو التحريك والتنظيم في الريف بشكل خاص ، يكون سلاحها الآخر هو انتهاج سياسة تجميعية . ولكن لن يكون التجميع الطريق الحتمية الوحيدة الى الأمام من الموقع الذي يجد الحزب الحاكم نفسه فيه فحسب ، بل أداة الاحتفاظ بهذا الموقع بمساندة البروليتاريا أيضاً » . (« نتائج وتوقعات » – ص ٢٥٨) .

فلنذهب الى أبعد من ذلك . كتبت عام ١٩٠٨ ضد المنشفيكي « شيريفانين » ما يلي :

« إننا نعرف عن مثال تقليدي لثورة مهّد انتصار دكتاتورية البرجوازية الصغيرة الإرهابية فيها لقيام حكم البرجوازية الرأسمالية . كان ذلك في فترة يشكل فيها الحرفيون وأصحاب الحوانيت غالبية البرجوازية الصغيرة . فساروا تحت قيادة اليعاقبة . ان غالبية سكان المدن في روسيا اليوم من البروليتاريا الصناعية . هذه المقارنةوحدها تؤكد وجود وضع تاريخي لا يمكن أن يتم انتصار الثورة « البرجوازية » فيه إلا من خلال استيلاء البروليتاريا على السلطة الثورية . فهل تفقد الثورة بذلك طابعها البرجوازي ؟ نعم ولا . لأن هذا

لا يعتمد على الصفة الرسمية ولكن على الاتجـاه الذي تسير فيه الأحداث اللاحقة. فاذا تمكن تحالف الطبقات البرجوازية، بما فيها الفلاحون الذين حررتهم البروليتاريا، من إسقاط حكم البروليتاريا تحتفظ الثورة بطابعها البرجوازي الضيّق. اما اذا برهنت البروليتاريا من جهة أخرى، على مقدرتها واستطاعت ان تحرك كل قوى حكمها لكي تخترق اطار الثورة الروسية الوطني، يمكن ان تغدو الثورة بداية طوفان اشتراكي عالمي. إن السؤال : أيـة **مرحلة** ستبلغها الثورة الروسية ؟ يسمح طبعاً بجواب مشروط. أمر واحد صحيح تماماً ولا يرقى اليه الشك هو ان مجرد تسمية الثورة الروسية بثورة برجوازية لا يفيدنا باي شيء عن طبيعة تطورها الداخلي ولا يعني، باي حال من الأحوال، انه يتوجب على البروليتاريا ان تكيف خططها مع سلوك الديمقراطية البرجوازية بوصفها المطالبة الشرعية الوحيدة بالحكم ».

(ليون تروتسكي : « العام ١٩٠٥ » — ص ٢٦٣— الطبعة الروسية).

وفي المقالة نفسها ورد ما يلي :

إن ثورتنا، التي هي ثورة برجوازية بالنسبة للمهام المباشرة التي انبثقت عنها، لم تتمخض عن أية طبقة برجوازية مؤهلة لقيادة الجماهير الشعبية بعد ان تدمج وزنها الاجتماعي وخبرتها السياسية بحيوية الجماهير الثورية، ذلك بسبب التمايز الطبقي الحاد في المناطق الصناعية. إن الجماهير المضطهدة من عمال وفلاحين،

بعد أن حرمت من كل شيء إلا من حقها في أن تنهل من مواردها الخاصة ، مطالبة بان توفر الشروط السياسية والتنظيمية الضرورية لاحراز انتصارها ، في مدرسة الصراعات العنيفة والهزائم القاسية . فليس لها من طريق أخرى غير هذه الطريق » .

(المرجع ذاته : ص ٢٦٧ – ٢٦٨) .

مرة أخرى سوف نستشهد من « نتائج وتوقعات » حول النقطة التي يرتكز عليها الهجوم بشكل خاص : قضية الفلاحين . في فصل بعنوان « البروليتاريا في الحكم والفلاحون » ورد ما يلي :

« ولكي ترسّخ البروليتاريا حكمها ، لا تستطيع إلا أن توسع قاعدة الثورة. فتنجذب الى الثورة قطاعات كبيرة من الجماهير الكادحة ، وفي الريف بخاصة ، وان تنتظم سياسياً فقط بعدما تقف طليعة الثورة – بروليتاريا المدن – على دفة الحكم. فيتم القيام بالتحريك والتنظيم الثوريين بمساعدة موارد الدولة . وتغدو السلطة التشريعية أداة فعالة لدفع الجماهير في الاتجاه الثوري ... إن مصير ابسط المصالح الفلاحية الثورية، مصالح الفلاحين **ككل** – كطبقة مرهون بمصير الثورة كلها أي بمصير البروليتاريا .

ان البروليتاريا في الحكم ستقف أمام الفلاحين بوصفها الطبقة التي حررتهم . وحكم البروليتاريا لا يعني المساواة الديمقراطية ، والحكم الذاتي الحر ووضع كل عبء الضرائب على عاتق الطبقات الميسورة ، وتذويب الجيش النظامي في الشعب المسلح والغاء الضرائب الكنسية الالزامية فحسب ، بل الاعتراف

بكل التغييرات الثورية (الاستيلاء على الأرض) التي احدثها الفلاحون في العلاقـــات الزراعية ايضاً . على البروليتاريا أن تجعل من هذه التغييرات نقطة الانطلاق نحو مزيد من الاجراءات تقوم بهـــا الدولة في الحقل الزراعي . في ظروف كهـــذه ، يكون من مصلحة الفلاحين ، في المرحلة الاولى والصعبة من الثورة ان يحافظوا على نظام حكم البروليتاريا (الديمقراطية العمالية) في جميع الأحوال، مثلما كان للفلاحين الفرنسيين مصلحة في المحافظـة على نظام حكم نابليون بونابارت العسكري الذي صان للمالكين الجدد حرمـــة ممتلـــكاتهم بقوة حرابه ...

ولكن اليس من المحتمل ان يزيـــح الفلاحون البروليتاريا ويحتلون مكانها ؟ إن هذا الأمر مستحيل . فكل التجربة السياسية تدحض هـذا الافتراض . إن التجربة التاريخية تبين ان الفلاحين عاجزون تماماً عن القيام بدور سياسي **مستقل** . »

(« نتائج وتوقعات » – ص ٢٥١) .

لقد قيل هذا كله في عام ١٩٠٥ وليس في عام١٩٢٩ ولا حتى في عام١٩٢٤. فهل يبدو اني « أتجاهل الفلاحين » ، ذلك مـا أود معرفته ؟ أين « القفز » عن القضية الزراعية هنا ؟ أمـا آن الأوان ، أيها السادة ، لتكونوا أكثر دقـــة في أقوالكم ؟

والآن ، فلنتبين مدى « دقـة » ستالين حول هذا الموضوع . كتب مفكر الردّة في الحزب ، مشيراً الى مقالاتي التي كتبتها في شباط عام ١٩١٧ فينيويورك والتي تتفق جملة وتفصيلاً مع مقالات لينين في جينيڤا :

« ... ليس هناك أي تشابه بين رسائل تروتسكي

ورسائـــل لينين لا من حيث المحتـوى ولا من حيث الاستنتاجات التي يخلص اليها ، لأنهـــا تعكس شعار تروتسكي المعادي للبلشفية : « لا قيصرية بل حكومة عمالية » . هذا الشعار الذي يعني القيام بالثورة بمعزل عن الفلاحين . »

(ستالين : « المؤلفـات الكاملة »: المجلد ٦ — ص ٣٤٩ — الطبعة الانـكليزية .)

مـا أروع وقع هذه الكلمات التي تحكي عـــن « الشعار المعادي للبلشفية » المنسوب الى تروتسكي : « لا قيصرية بل حكومة عمـــالية » ! فلو ترك الامر لستالين، لفضّل ان يكون الشعار هكذا: « لا حكومة عمالية، بل القيصرية». سنعود بعد قليل الى هـــذا الشعار « المنسوب » الى تروتسكي . فلنستمع الآن الى رجل آخر يطمح الى أن يكون علماً من أعلام الفكر المعاصر ، انه أقل جهلاً من ستالين ولكنه مثله قـــد تخلى عن اي نوع من الامانة الفكرية ــ أعني بـــه لوناتشارسكي :

« في عام ١٩٠٥ ، كان ليف دافيدوفيتش تروتسكي يميـــل الى الرأي القائل **انـه على البروليتاريا ان تبقى معزولة** [!] وان لا تدعم البرجوازية لأن ذلك الموقف هـــو موقف انتهازي ، ولكن يصعب على البروليتاريا ان تحقق الثورة بمفردها لأنها لم تكن في ذلك الحين أكثر من ٧ أو ٨ ٪ من مجموع عدد السكان . لذا ، يقرر ليف دافيدوفيتش انـه على البروليتاريا أن تحتفظ بحالة من الثورة الدائمـة في روسيا ، أي أن تناضل لأجل تحصيل أكبر عدد ممكن من الإنجازات حتى تؤدي شرارات هـــذه الشعلة الى تفجير مستودع البارود العالمي كله . »

(مجلة « سلطة السوفييت » – العدد ٧ – عـــام ١٩٢٧ : « حول طبيعـــة الثورة الروسية » بقلم ا . لوناتشارسكي – ص ١٠) .

يجب على البروليتاريا أن « تبقى معزولة » حتى تؤدي الشرارات الى تفجير مستودعات البارود ... ما أجمل ما يكتبه بعض « مفوضي الشعب »[1] الذين لم « يعزلوا » بعد مع أن رؤوسهم الصغيرة مهددة بالخطر . ولكننا لا نريـد أن نقسو على لوناتشارسكي ، فمن كل حسب طاقته ... وفي التحليل النهائي نجد أن تفاهاته ليست أسوأ من تفاهات الكثيرين غيره .

ولكن كيف يجب على البروليتاريا أن « تبقى معزولة » بالنسبة لتروتسكي ؟ للردّ على هـــذا السؤال سوف استشهد بمقطع من منشورلي ضـــد « ستروف » (عام ١٩٠٦) . وبالمناسبة ، فقد بالغ لوناتشارسكي في كيل المديح لهذا المنشور عند صدوره . في الفصل المتعلق بمجالس المندوبين (السوفييت) ورد أنـه بينما كانت الأحزاب البرجوازية « ما تزال على الهامش » بعيدة عن الجماهير الشعبية المستيقظة :

« ... فارتكزت الحياة السياسية حول السوفييت العمال . وكانت الجمـاهير البرجوازية الصغيرة في المدن تبدي عطفاً واضحاً على السوفييت (عـــام ١٩٠٦) بالرغم من أنها لم تكن على درجـــة عالية من الوعي . فالتجـأ جميع المضطهدين والمعذّبين إليـــه (أي السوفييت) . وتخطت شعبيته حدود المدينة . فكان يتلقى « العرائض » من الفلاحين الذين يعـــانون من المظالم، وانهمرت عليه مقررات الفلاحين وتوافدت إليه الوفود من التجمعات الريفية . هنا ، وهنا فقط كانت أفكار الأمـــة وتأييدها وتأييد الدول الديمقراطيـة

---

١ – كان ليوناتشارسكي مفوضاً للشعب لشؤون الثقافة . (المترجم)

الحقيقية وليس المزيفة منها . »

(تروتسكي : « ثورتنا » — ص ١٩٩) .

في جميع هـــذه المقاطع ، ويمكن مضاعفتها مثنىً وثلثاً وعشراً ، وصفتُ الثورة الدائمة بأنهـا ثورة تكتل الجماهير المضطهدة في المدينـــة والريف حول البروليتاريا المنظمة في السوفييت ، وبأنها ثورة وطنية ترفع البروليتاريا الى سدّة الحكم وتفسح المجال أمام إنضاج الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية .

ليست الثورة الدائمة قفزة معزولة تقوم بها البروليتاريا ، إنهـــا إعادة بناء الأمة تحت قيادتها . على هذا النحو فهمتُ توقع الثورة الدائمة وفسرته ابتداء من عام ١٩٠٥ .

إن راديك يخطىء أيضاً بصدد بارفوس[1] ، الذي كانت آراؤه حول الثورة الروسية عام ١٩٠٥ تشابه آرائي فيها دون أن تكون هي نفسها ، عندما يكرر الصيغة المعدة سلفاً عن « القفزة » التي قال بها بارفوس من حكومة قيصرية إلى حكومة اشتراكية — ديمقراطية . والواقع ان راديك يدحض نفسه بنفسه عندما يشير في قسم آخر من مقاله ، بشكل عابر ولكنه صحيح ، الى الاختلاف بين آرائي في الثورة الروسية وبين آراء بارفوس فيهـــا . لم يكن بارفوس يعترف

---

١ — كان بارفوس اقتصادياً ماركسياً من أصل روسي قضى معظم حياته في المانيا . وكان يساهم في تحرير « الشرارة » . وكان لينين من أشد المعجبين به ينصح الحزبيين دائمـــاً بقراءة مؤلفاته وخاصة كتابه « الاقتصاد العالمي والأزمة الزراعية » . اجتمع به تروتسكي لأول مرة عام ١٩٠٣ عندما كان بارفوس على رأس الجناح اليساري في الحزب الالماني . وكان اسمه آنذاك مرتبطاً بنظرية « الثورة الدائمة » التي يقول البعض ان تروتسكي أخذها عنه . ومما لا شك فيه ان تروتسكي تأثر ببارفوس وقد ارتبط معه بعدة مشاريع صحفية قبل ثورة عـــام ١٩٠٥ . خلال الحرب وضع بارفوس نفسه في خدمة الجيش الالماني وقام لحسابه بعدة صفقات تجاريـــة في البلقان . فأعلن تروتسكي براءته منه في مقالة مؤثرة بعنوان « مرثية صديق حيّ » اعترف فيها بتأثير بارفوس على تطوره الفكري وبأنه علمه « أن يعبّر عن آراء واضحة بجمـــل بسيطة » . وبعد انتصار ثورة أكتوبر ، كتب بارفوس الى تروتسكي عارضاً عليه خدماته للثورة . فلم يجبه تروتسكي على رسائله . وقد انتهى بارفوس مستشاراً لدى رئيس جمهورية « فايمار » في المانيا بعد الحرب . (المترجم)

بالرأي القائل انه بمقدور حكومة عمالية في روسيا أن تسير نحو الثورة الاشتراكية ، أي أنها تنضج الى دكتاتورية اشتراكية من خلال إنجازها للمهام الديمقراطية . كان دور الحكومة العمالية يقتصر ، بالنسبة لبارفوس ، على تنفيذ المهام الديمقراطية فقط ، وهذا ما يؤكده المقطع المكتوب عام ١٩٠٥ الذي يستشهد به راديك . في حالة كهذه ، لا بد لنا من التساؤل : أين هي القفزة الى الاشتراكية ؟ فكل ما كان يدور في خلد بارفوس في ذلك الوقت هو إنشاء نظام حكم عمالي على غرار « الانموذج الاسترالي » بعد نجاح الثورة . لقد وضع بارفوس روسيا واستراليا على مستوى واحد حتى بعد انتصار ثورة اكتوبر ، غير أنه كان في ذلك الحين قد اتخذ موقفاً يصنفه الى أقصى يمين النزعة الاصلاحية — الاجتماعية . وقد ادعى بوخارين ، في هذا الصدد ، ان بارفوس قد « ابتكر » مثال استراليا بعد فوات الأوان ليغطي أهدافه القديمة المتعلقة بالثورة الدائمة . ولكن الامر لم يكن كذلك . ففي عام ١٩٠٥ ، رأى بارفوس في استلام البروليتاريا للحكم الطريق الى الديمقراطية وليس الى الاشتراكية ، أي أنه عيّن للبروليتاريا الدور الذي لعبته بالفعل في الفترة ما بين الشهر الثامن والشهر العاشر بعد ثورة أكتوبر . ولكي ننظر الى أبعد من ذلك ، كان بارفوس حتى في ذلك الحين يتطلع الى الديمقراطية الاسترالية ، أي الى نظام حكم يشترك فيه حزب العمال ولكنه لا يحكم وينفذ أهدافه الاصلاحية فقط كتكملة لبرنامج البرجوازية . إنه لمن سخريات القدر أن يكون الاتجاه الرئيسي للجبهة اليمينية — الوسطية[١] بين عام ١٩٢٣ و ١٩٢٨ داعياً الى دفع دكتاتورية البروليتاريا باتجاه وضع يشابه الانموذج الاسترالي من الديمقراطية العمالية ، اي باتجاه تحقيق توقع بارفوس. ويتضح الامر أكثر فأكثر عندما نتذكر أن « الاشتراكيين » البرجوازيين الصغار في روسيا كانوا ، منذ عقدين أو ثلاثة ، يصورون استراليا باستمرار على انها بلد العمال والفلاحين الذي انغلق عن سائر أجزاء العالم وراء حاجز من الرسوم الجمركية المرتفعة وراح ينفذ المشاريع « الاشتراكية » مشيداً بذلك صرح

---

١ — الجبهة القائمة على تحالف بوخارين وريكوف مع ستالين . (المترجم)

الاشتراكية في بلد واحد . كان الأحرى براديك ، لو انه ابتغى السير في الطريق الصحيح أن يبرز هذا الوجه من القضية عوضاً عن اجترار الخرافات حول قفزتي المروعة عن المرحلة الديمقراطية .

٣ - العناصر الثلاثة للدكتاتورية الديمقراطية : الطبقات ، المهام ، التركيب الطبقي[١]

إن الفرق بين موقف الثورة الدائمة والموقف اللينيني قد عبّر عن نفسه سياسياً في مواجهة شعار دكتاتورية **البروليتاريا** المستندة إلى الفلاحين بشعار دكتاتورية العمال والفلاحين **الديمقراطية** . لم يكن الخلاف يتعلق بما إذا كان يجب القفز عن الطور الديمقراطي البرجوازي ام ما إذا كان التحالف بين العمال الفلاحين ضرورياً ، وانما كان يتعلق بالتركيب السياسي لتعاون البروليتاريا مع الفلاحين في الثورة الديمقراطية .

يقول راديك ان « الذين لم يتعمقوا في الاداة المعقدة للماركسية واللينينية » هم وحدهم الذين يطرحون مسألة التعبير السياسي — الحزبي عن الدكتاتورية الديمقراطية ، في حين يدّعي ان لينين قد لخّص المسألة كلها في تعاون الطبقتين لتنفيذ مهام تاريخية موضوعية — هذا القول يحمل من الإدعاء والطيش الشيء الكثير . لا ، ليس الأمر كذلك .

إذا تغافلنا ، في هذه المسألة، العامل الذاتي في الثورة : الأحزاب وبرامجها — أي الشكل السياسي والتنظيمي لتعاون البروليتاريا مع الفلاحين — تذوب جميع الخلافات في الرأي ليس فقط بيني وبين لينين ، هذه الخلافات التي كانت تشكل اتجاهين في جناح ثوري واحد، بل ما هو أسوأ من ذلك: تذوب الخلافات في الرأي بين البلشفية والمنشفية كذلك ، وأخيراً الخلافات بين الثورة الروسية عام ١٩٠٥ وثورات عام ١٨٤٨ وعام ١٧٨٩ إلى مدى ما نستطيع ان نتكلم عن علاقة

البروليتايا بهذه الثورة الأخيرة . لقد قامت جميع الثورات البرجوازية على تعاون الجماهير المضطهَدة في المدينة والريف . وهـــذا العامل بالذات هو الذي أضفى على هذه الثورات ، إلى حدٍ ما ، طابعها الوطني ، أي شمولها للشعب كله .

ولم يكن الخلاف النظري والسياسي بيننا يدور حول تعاون العمال والفلاحين بحد ذاته ، وإنما كان يدور حول برنامح هذا التعاون وأشكاله الحزبية وأساليبه السياسية . ففي الثورات السابقة « تعاون » العمال والفلاحون تحت قيـــادة البرجـــوازية الليبرالية او تحت قيادة جناحها البرجوازي الصغير الديمقراطي . ولقد كررت « الأممية الشيوعية » تجربة الثورات **القديمة** في وضع تاريخي جديد إذ بذلت كل جهدها لاخضاع العمال والفلاحين الصينيين لقيادة تشانغ كاي تشيك الوطني الليبرالي السياسية وفيما بعد لقيادة « الديمقراطي » وانغ شينغ – وي . لقد طرح لينين مسألة تحالف العمال والفلاحين التي تعارض البرجوازية الليبراليـة بلا هوادة ولم يسبق ان تحقق مثل هذا التحالف في التاريخ من قبل . فكان ، من حيث اسلوبه، تجربة جديدة في تعاون الجماهير المضطهَدة في المدينة والريف . إذ ذاك طرحت مسألة الاشكال السياسية للتعاون مرّة أخرى. ان راديك قـد تغافل هذا بكل بساطة . ولهـذا السبب يقذف بنا بعيداً عن صيغة الثـــورة الدائمة وعن شعار لينـين « الدكتاتورية الديمقراطية » إلى تجريد تاريخي فارغ .

اجل ، لقد رفض لينين خلال عدة سنوات ان يعطي **حكماً مسبقاً** على كيف سيبدو التنظيم الحزبي السياسي والحكومي لدكتاتوريه العمال والفلاحين الديمقراطية ، وابرز إلى المقدمة مسألة تعـاون هاتين الطبقتين مقـــابل مسألة التحالف مع البرجوازية الليبرالية . لقد قال لينين : في طور تاريخي معّين لا بد من أن يولـّد الظرف الموضوعي بمجمله تحالفاً ثورياً بين العمال والفلاحين للاضطلاع بمهام الثورة الديمقراطية . هل سيتمكن الفـلاحون من خلق حزب مستقل وهل سينجحون في ذلك ؟ هل سيشكل هذا الحزب الأغلبية في حكومة الدكتاتورية أم الأقلية؟ ماذا سيكون بالتحديد وزن ممثلي البروليتاريا في الحكومة الثورية ؟ ان أيـاً من هذه الأسئلة لا يمكننا من الإجابة عليه **بشكل مسبق** . « التجربة هي البرهان !»

إلى مدى مـــا أجابت صيغة الدكتاتورية الديمقراطية على نصف مسألة التركيب السياسي لتحالف العمال الفلاحين ، فهي قد بقيت إلى حدٍ ما معادلة رياضيـــة جبرية تفسح المجال أمام تفسيرات سياسية جــد مختلفة في المستقبل ولكن دون ان تتحول إلى تجريد راديك العقيم .

وبالاضافة لذلك ، فإن لينين لم يكن من الرأي القائل بأن الأساس الطبـقي للدكتاتورية وأهدافها التـاريخية الموضوعية تفي المسألة حقّها . لقد كان لينين يفهم بعمق معنى العامل الذاتي ، الأهداف والأداة الواعية والحزب ، وكان معلمنا جميعاً في هذا . لهذا السبب لم يتخلّ لينين مطلقاً ، في تعليقاته على شعاره، عن حكم تقريبي وفرضي مسبق على مسألة الأشكال السياسية التي قد يتخذهـــا أول تحالف مستقل بين العمال والفـلاحين في التاريخ . على ان الطريقة التي عالج بها لينين هذه المسألة في مناسبات مختلفة لم تكن هي نفسها دائماً . لا يجب النظر إلى فكر لينين على أساس القوالب الجامدة وانما تاريخياً . إن لينين لم يأت بوصايا جاهزة من جبل سيناء،ولكنه كاو يصوغ الأفكاروالشعارات لتتلاءم مع الواقع، فيجعلها محدّدة ودقيقة ويملأها في مناسبات متنوعة بمضمون متغيِّر . غير أن راديك لم يـدرس مطلقاً **هذه الناحية** من المسألة التي اكتست فيما بعد أهمية بالغة ووضعت الحزب البلشفي عام ١٩١٧ على عتبة الانشقاق .

ومهما يكن من أمر ، يصح القول إن لينـين لم يصف التعبير الحزبي السياسي الممكن والشكل الحكومي لتحالف هاتين الطبقتين بالطريقة ذاتها ، وقد امتنع عن إلزام الحزب بهـذه التفسيرات الفرضية . ما هي أسباب هذا الحـــذر ؟ يجب البحث عن الأسباب في كون هذه المعادلة الرياضية الجبرية تحوي كماً ضخماً في اهميته ولكنه كان غير محدّد سياسياً هو **الفلاحون** .

اريد ان استشهد ببعض الامثلة عن تفسير لينين للدكتاتورية الديمقراطية مع ايراد تحفظ هوان عرضاً شاملاً **لتطور** فكر لينين حول هـــذه المسألة يتطلب كتاباً مستقلاً .

في معرض تطويره للفكرة القائلة بأن البروليتاريا والفلاحين همـــا عماد

الدكتاتورية ، كتب لينين في آذار عام ١٩٠٥ :

« إن تكوين الاساس الاجتماعي للدكتاتورية الثورية المحتملة والمطلوبة سوف ينعكس ، ولا شك ، في تكوين الحكومة الثورية . وبسبب وجود هذا التكوين ، فان إشراك أكثر العناصر تباينا من ممثلي الديمقراطية الثورية أو حتى طغيان هذه العناصر هو أمر محتم » . (لينين : « المؤلفات الكاملة » —المجلد٦— ص ١٣٢ — الطبعة الروسية) .

إن لينين ، في كلماته هذه ، لا يشير الى الاساس الطبقي للدكتاتورية فحسب ولكنه يرسم صورة محددة لشكلها الحكومي أيضاً ، مع ايراد احتمال طغيان ممثلي العناصر الديمقراطية من البرجوازية الصغيرة .

كتب لينين عام ١٩٠٧ :

« لكي تنتصر الثورة الفلاحية الزراعية التي تتكلمون عنها ايها السادة يجب عليها كثورة فلاحية زراعية ان تسيطر على مركز السلطة في كل الدولة » . (لينين : « المؤلفات الكاملة » — المجلد ٩ — ص ٥٣٩ — الطبعة الروسية) .

إن هذه الصيغة تذهب الى أبعد من ذلك . يمكن ان نفهم منها انها تعني وجوب حصر السلطة الثورية بشكل مباشر بين أيدي الفلاحين . على ان هذه الصيغة في تفسيرها الارحب الذي ادخله فيها سير التطور ذاته ، تشمل أيضاً ثورة اكتوبر التي جاءت بالبروليتاريا الى الحكم بوصفها « واسطة » تحقيق الثورة الفلاحية. تلك هي رحابة التفسيرات الممكنة لصيغة دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية . وقد نسلّم ، إلى حدٍ ما ، بأن جانبها المنيع يكمن في طابعها الرياضي الجبري ، غير ان اخطارها تكمن هنا كذلك التي عبّرت عن نفسها بشكل جلي بعد شباط وفي الصين حيث ادّت الى كارثة .

كتب لينين في تموز عام ١٩٠٥ :

« لا أحد يتكلم عن استيلاء الحزب على الحكم ، اننا نتكلم فقط عن الاشتراك ، بقدر الامكان ، في لعب دور قيادي في الثورة ... » (لينين : « المؤلفات الكاملة » – المجلد ٦ – ص ٢٧٨ – الطبعة الروسية) .

وفي كانون الأول عام ١٩٠٦ ، اعتبر لينين انه من الممكن الاتفاق مع كاوتسكي حول مسألة استيلاء الحزب على الحكم :

« إن كاوتسكي لا يعتبر انه من المحتمل جداً ان يكون النصر من نصيب الحزب الاشتراكي–الديمقراطي خلال الثورة فحسب ، ولكنه يعلن أيضاً انه يجب على الاشتراكيين الديمقراطيين ان يبثوا بين انصارهم فكرة حتمية النصر لأن النضال مستحيل اذا رفض النصر مسبقاً » . (لينين : « المؤلفات الكاملة » المجلد ٨ – ص ٥٨ – الطبعة الروسية) .

إن المسافة التي تفصل بين هذين التفسيرين ، كما يعرضها لينين نفسه ، ليست اقصر من المسافة التي تفصل بين صياغتي وبين صياغة لينين . وسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد . نريد ان نطرح السؤال التالي في هذا المضمار : ما هو معنى هذه التناقضات عند لينين ؟ انها تعكس شيئاً واحداً : « المجهول الأكبر » في الصيغة السياسية للثورة ، أي **الفلاحون** . وليس عن عبث كان المفكرون الراديكاليون يشيرون احياناً الى الفلاح على انه «أبو هول التاريخ الروسي» . إن قضية طبيعة الدكتاتورية الثورية – شاء راديك أم أبى – لا يمكن فصلها مطلقاً عن قضية إمكان نشوء حزب فلاحي مستقل معادٍ للبرجوازية الليبرالية ومستقل عن البروليتاريا. وليس من الصعب استيعاب المدلول الحاسم لهذه القضية. فإذا تمكن الفلاحون من انشاء حزبهم المستقل في حقبة الثورة الديمقراطية ، لامكن تحقيق الدكتاتورية الديمقراطية بشكل خالص ومباشر ، ولكانت مسألة اشتراك الاقلية

البروليتارية في الحكومة الثورية اكتسبت معنى هاماً، حقاً، الا انه يبقى معنى ثانوياً . وتنعكس الآية اذا ما انطلقنا من ان الفلاحين ، بسبب وضعهم الوسطي وتباين تكوينهم الاجتماعي ، لن يكون لهم سياسة مستقلة ولا حزب مستقل ؛ وانهم سوف يضطرون ، في الحقبة الثورية ، الى الاختيار بين سياسة البرجوازية وسياسة البروليتاريا . إن هذا التقييم ومـــده لطبيعة الفلاحين السياسية يفتح امامنا احتمال انبثاق دكتاتورية البروليتاريا مباشرة من الثورة الديمقراطية . وفي هذا لا يوجد طبعاً أي « تنكر » أو « تجاهل » أو « سوء تقدير » للفلاحــين . فلا يمكن التكلم عن دكتاتورية البروليتاريا في روسيا لولا اهمية المسألة الزراعية الحاسمة بالنسبة لحياة المجتمع بأسره ولولا عمق الثورة الفلاحية السحيق واتساعها الشاسع . غير ان الرأي القائل ان الثورة **الزراعية** قـــد خلقت ظروف قيام دكتاتورية **البروليتاريا** انما ينبثق عن عجز الفلاحين عن حلّ مشكلتهم التاريخية بواسطة قواهم وبقيادتهم. في ظل الظروف الحاليــة في البلدان البرجوازية وحتى في المتأخرة منها ، الى مدى ما تكون هذه البلدان قد دخلت في حقبة الصناعة الرأسمالية والى مدى ما ترتبط اطرافها بشبكة من سكك الحديـــد وخطوط التلغراف وهذا لا ينطبق على روسيا فحسب ولكن على الصين والهنـد أيضاً ، نجد ان الفلاحين أكثر عجزاً عن لعب دور قيادي أو حتى عن لعب دور مستقل مما كانوا عليه إبان الثورات البرجوازية القديمة . إن كوني اؤكد على هذه الفكرة بالحاح دوماً وابداً ، هذه الفكرة التي تشكل احدى السمات الرئيسية لنظريــة الثورة الدائمة ، قد وّفر أيضاً مبرراً لا معنى ولا أساس له، في الجوهر ، لإتهامي بسوء تقدير الفلاحين .

ماذا كانت آراء لينين حول مسألة الحزب الفلاحي ؟ إن الاجابة على هـــذا السؤال تقتضي مراجعة وافية لتطور آراء لينين حول الثورة الروسية خـــلال الفترة ما بين عام ١٩٠٥ و ١٩١٧ . إلا اني سأقتصر على الاستشهاد بهذين النصين هنا .

كتب لينين في عام ١٩٠٧ :

« من المحتمل ... أن تحول الصعوبات الموضوعية لتوحيد البرجوازية الصغيرة سياسياً دون نشوء مثل هذا الحزب فتبقى الديمقراطيةالفلاحية لمدة طويلة مثلما هي عليه الآن كتلة اسفنجية هلامية مائعة شبيهة بوضع الترودوفيك[1] . (لينين : « المؤلفات الكاملة » — المجلد ٨ — ص ٤٩٤ — الطبعة الروسية) .

وفي عام ١٩٠٩ ، تحدث لينين عن الموضوع ذاته بطريقة مختلفة :

« لا شك في أن الثورة التي تبلغ ... مستوى من التطور كالدكتاتورية الثورية سوف تخلق حزباً فلاحياً ثورياً اكثر رسوخاً وقوّة . إن اطلاق حكم على هذا الموضوع غير هذا الحكم يعني الافتراض ان حجم بعض الاعضاء الأساسية في الانسان البالغ وشكلها ومدى تطوّرها يمكن ان يبقى في وضع طفولي . « لينين : « المؤلفات الكاملة » — المجلد ١١ — الجزء الأول — ص ٢٣٠ — الطبعة الروسية) .

هل أثبت هذا الافتراض ؟ كلا ، انه لم يثبت . وهذا هو بالذات الأمر الذي دفع لينين إلى أن يعطي جواباً على شكل معادلة جبرية على مسألة الحكومة الثورية الى حين **اثبات التاريخ لصحتها اثباتاً لا يقبل الجدل** . إن لينين لم يضع ، بالطبع ، صيغته الفرضية فوق الواقع. كان النضال من أجل حزب سياسي مستقل للبروليتاريا هو هدف حياته . أما رجال الصف الثاني البائسون فقد انتهوا ، في سعيهم وراء الحزب الفلاحي ، الى إخضاع العمال الصينيين للكيومنتانغ ، والى خنق الشيوعية في الهند باسم « حزب العمال والفلاحين » ، والى الوهم الخطير الذي يسمى « الاممية الفلاحية » ، والى مهزلة « عصبة النضال

---

١ — الترودوفيك هم ممثلو الفلاحين في مجالس الدوما الأربعة ، وكانوا يتقلبون دائماً بين الكاديت (الليبراليون) وبين الاشتراكيين — الديمقراطيين . (ل. ت.)

ضد الاستعمار » وما شابه ذلك .

إن الفكر الرسمي السائد لا يبذل أي مجهود للتوقف عند التناقضات في فكر لينين التي بيّناها اعلاه خارجية وظاهرية كانت أم حقيقية غير انهـا تنبثق من المشكلة ذاتها . والآن وقد برزت بيننا فصيلة خاصة من الأساتـــذة « الحمر » ، الذين غالباً ما يتميزون عن الأساتذة الرجعيين القدماء ليس بكونهم أكثر صلابة منهم ولكن بكونهم أكثر جهلاً ، يجري تشذيب لينين باسلوب أكاديمي وتحريره من جميع التنــاقضات أي من حيوية فكره؛ فينشرون عيّنـات من النصوص على حبال منفصلة ثم ينزلون « سلسلة » منهـــا أو اخرى الى السوق وفق مقتضيات « اللحظة الراهنة » .

ولا يجب أن يغيب عن البال لحظة واحدة ان مشكلات الثورة في بلد «بكر» سياسياً غدت عويصة بعد وقفة تاريخية طويلة ، بعـــد حقبة رجعية مديدة في اوروبا والعالم أجمع ، فاحتوت لهذا السبب وحده على عدد كبير من المجهولات . ولقــد عبّر لينين من خلال صيغة دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية عـــن خصوصية الظروف الاجتماعية الروسية. وفسّر هذه الصيغة باشكال مختلفة ، إلا أنه لم يرفضها إلا بعد أن غاص الى اعماق الظروف الخاصة للثورة الروسية . فأين تكمن هذه الخصوصية ؟

إن الدور الكبير الذي تلعبه المسألة الزراعية خاصة والمسألة الزراعية عامة كركيزة أساسية أو ثانوية لجميع المشكلات الأخرى؛ والعدد الكبير من الفلاحين المثقفين ومن الذين يؤيـــدون الفلاحين ، بايديولوجيتهم النارودنية ، وبتقاليدهم «المعادية للرأسمالية» وبمزاجهم الثوري؛ إن هذا بمجمله يعني **انه لو كان بالامكان أن ينشأ حزب فلاحي ثوري معاد للبرجوازية لتم ذلك في روسيا أولاً وبشكل خاص .**

وفي الواقع ، خلال المساعي لخلق حزب فلاحي ، أو حزب عمالي فلاحي ، يتميز عن الحزبين الليبرالي والبروليتاري معاً، جرى إختبار كل الأشكال السياسية في روسيا على اختلاف أنواعها إن سرية او برلمانية أو مزيجاً من الاثنين : «زمليا

أي فوليا » (الأرض والحريـــة) ، « نارودنايا فوليا » (ارادة الشعب) ، « تشيرني بيريدل » (إعادة التوزيع الأسود) ، « النارودنيشستوفا » المرّخص (الشعبيون) ، « الاشتراكيون – الثوريون » ، « الاشتراكيــون الشعبيون » ، « الترودوفيــك » ، « اليسار الاشتراكي – الثوري » ، الى آخره . وبدا ، خلال نصف قرن ، وكأن في روسيا مختبراً ضخماً لخلق حزب فـلاحي « معادٍ للرأسمالية » يقف موقفاً مستقلاً من الحزب البروليتاري . وكما هو معلوم كان أبعد ما تم الوصول اليه في هذا المضمار هو تجربـــة « الحزب الاشتراكي – الثوري » الذي كان يشكل ، لفترة خلال عام ١٩١٧ ، الحزب الذي يمثل فعلياً غالبية الفلاحين الساحقة . ولكن ماذا جرى بعد ذلك؟ لقد استغل هذا الحزب وضعه ليخون الفلاحين كلياً لحساب البرجوازية الليبرالية . فدخل الاشتراكيون– الثوريون في تحالف مع استعماريي « الانتانت » وخاضوا معهم حرباً مسلحة ضد البروليتاريا الروسية .

إن هذه التجربة التقليدية تؤكد ان الأحزاب البرجوازية الصغيرة التي تعتمد على الفلاحين ما زال بمقدورها الابقاء على ما يشابه السياسة المستقلة خلال الفترات الخامدة من التاريخ عندما تطفو القضايا الثانوية الى السطح ؛ ولكن عندما تضع أزمة المجتمع الثوريـــة قضايا الملكية على المحـك ، يتحول حزب « الفلاحين » البرجوازي الصغير رأساً الى أداة طيعة في يد البرجوازية موجهة ضد البروليتاريا.

اذا جرى تحليل خلافاتي القديمة في الرأي مع لينين على أساس بعدها التاريخي الصحيح وليس على صعيد النصوص التي تجتزأ من هذه السنة أو تلك ومن هـــذا الشهر أو ذلك اليوم ، يتضح إذ ذاك أن الخلاف لم يكن قائمـــاً ، من طرفي على الأقل ، حول ما اذا كان تحالف البروليتاريا مع الفلاحين ضرورياً لإنجاز المهـام الديمقراطية ؛ وانما كان يدور حول الشكل الحزبي – السياسي والحكومي الذي سيكتسيه التعاون الثوري بـين البروليتاريا والفلاحين وحول النتائج التي تنتـج عنه في تطور الثورة اللاحق . إني أتكلم طبعاً عن موقفي في هذا الخلاف وليس عن موقف بوخارين وراديك آنذاك هـذا الموقف الذي تقع عليهما مهمة الدفاع

عنــــه .

إن المقارنة التالية توّضح بدقة الى أي مدى كانت صيغة « الثورة الدائمـة » قريبة من صيغة لينين . في صيف عام ١٩٠٥ ، أي قبل اضراب كانون الأول العام وقبـل انتفاضة كانون الأول في موسكو ، كتبت في مقدمـــة لاحدى خطب « لاسال » ما يلي :

«من البدهي أن تؤدي البروليتاريا رسالتها مدعومة من الفلاحين ومن البرجوازية الصغيرة في المدن كما فعلت البرجوازية إبان ثورتهـــا . البروليتاريا تقود الريف ، وتجذبه الى الحركة ، وتثير اهتمامه في نجاح مخططاتها . إلا أنه لا بد للبروليتاريا من أن تظل هي القائدة. هذه ليست دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطيــة ، **بـل دكتاتورية البروليتاريا المدعومة من الفلاحين .** »[1]
(ليون تروتسكي: « العام ١٩٠٥ » ص ٢٨١ — الطبعة الروسية) .

والآن فلنقارن هذه الكلمات التي كتبت عام ١٩٠٥ والتي استشهدت بها في مقالي البولوني عام ١٩٠٩ بالكلمات التي ستلي للينين التي كتبت هي ايضاً عـــام ١٩٠٩ مباشرة بعـد أن تبنى مؤتمر الحزب ، تحت ضغط من روزا لوكسمبرغ ، صبغة « دكتاتورية البروليتاريا المدعومة من الفلاحين » عوضاً عن الصيغة البلشفية القديمة . لقد ردّ لينين على المنشفيك الذين تكلموا عن وجود تغـــير جذري في موقفه ، قائلاً :

« ... إن الصبغة التي اختارها البلاشفة هنا تقول:

---

١ — إن هذا المقطع ، الى جانب المئات من أمثاله، يؤكد بشكل عابر اني كنت أعلم بوجود الفلاحين باهمية المسألة الزراعيةمنذ عشية ثورة عام ١٩٠٥ ، أي قبل أن يفسر لي اهمية الفلاحين أناس أمثال ماسلوف ، وثالهاير ، وثالمان ، وريميل ، وكاتثين ، ومونغوسو ، وبيلاكون ، وبيبر ، وكيوسينين وعلماء الاجتماع الماركسيون الآخرون ، بمدة طويلة . (ل. ت.)

« البروليتاريا التي تقود الفلاحين وراءها . »[1]

«اليس من البدهي أن الفكرة التي تتخلل جميع هذه الصياغات هي واحدة ؟ اليس من البدهي أن هذه الفكرة تعبر بدقة عن دكتاتورية العمال والفلاحين ، **وان صيغة البروليتاريا المدعومة من الفلاحين تبقى كلياً في نطاق دكتاتورية العمال والفلاحين بالذات ؟ »**

(لينين : « المؤلفات الكاملة » – المجلد ١ – ص ٢١٩ و ٢٢٤) .

هنا نجد أن لينين قد أضاف شيئاً الى معادلته « الجبرية » التي تستبعد فكرة نشوء حزب فلاحي **مستقل** وحتى امكانية لعبه لدور أساسي في الحكومة الثورية: البروليتاريا تقود الفلاحين ، الفلاحون **يدعمون** البروليتاريا ، وبالتالي فالسلطة الثورية محصورة في يد حزب البروليتاريا . ولكن هذه هي بالتحديد النقطة الرئيسية لنظرية الثورة الدائمة .

أما الآن ، أي **بعد** أن جرى الامتحان التاريخي ، فكل ما نستطيع قوله عن الخلافات القديمة في الرأي حول مسألة الدكتاتورية هو ما يلي :

في حين كان لينين، الذي ينطلق من دور البروليتاريا القيادي، يؤكد ويطور بكل الطرق ضرورة تعاون العمال الثوري والديمقراطي مع الفلاحين – وكان بذلك معلمنا جميعاً – كنت بدوري انطلق دوماً وأبداً من هذا التعاون مؤكداً بكل الطرق ضرورة القيادة البروليتارية ليس في الجبهة فحسب ولكن في الحكومة التي سترأس هذه الجبهة ايضاً . وليس من خلافات أخرى في الموضوع.

فلنأخذ نصّين في هذا الصدد : نص من مقالة « نتائج وتوقّعات » يستعمله ستالين وزينوفييف لإثبات تناقض آرائي مع آراء لينين ، ونص آخر من مقالة

---

١ . في مؤتمر عام ١٩٠٩ اقترح لينين صيغة « البروليتاريا التي تقود الفلاحين وراءها » غير انه أيد في النهاية صيغة الاشتراكيين – الديمقراطيين البولونيين التي حظيت بغالبية الاصوات في المؤتمر ضد المنشفيك . (ل. ت.)

سجالية للينين ضدي يستعمله راديك للغرض نفسه .

ها هو النص الاول :

> « إن اشتراك البروليتاريا في الحكومة هو أمر محتمل جداً من الناحية الموضوعية ، وجائز من الناحية المبدئية فقط عندما يكون **اشتراكاً قيادياً طاغياً .** ويمكن بالطبع أن نطلق على مثل هذه الحكومة اسم دكتاتورية العمال والفلاحين ، أو دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين والانتلتجنسيا ، أو حتى حكومة تحالف الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة ، ولكن يبقى السؤال التالي معلقاً : « من سيهيمن على الحكومة نفسها ومن خلالها على البلد ؟ ونحن ، إذ نتكلم عن حكومة عمالية ، إنما نجيب على هذا السؤال بالقول أن الطبقة العاملة هي التي يجب أن تهيمن . » (ليون تروتسكي : « ثورتنا » – ١٩٠٦ – ص ٢٥٠ – الطبعة الروسية) .

لقد أثار زينوفييف (عام ١٩٢٥ !) ضجة كبيرة لاني وضعت (عام ١٩٠٥ !) الفلاحين والانتلتجنسيا على مستوى واحد . هذا كل ما فهمه من الاسطر المذكورة أعلاه . كانت الاشارة الى الانتلتجنسيا ناجمة عن ظروف تلك الحقبة حيث كانت الانتلتجنسيا تلعب دوراً مختلفاً جداً عن الدور الذي تلعبه اليوم . فقد كانت منظمات المثقفين هي التي تحتكر الكلام باسم الفلاحين في ذلك الحين ؛ فقد بنى الاشتراكيون – الثوريون حزبهم رسمياً على هذا « الثالوث » : البروليتاريا ، الفلاحون ، الانتلتجنسيا ؛ وكان المنشفيك ، على حد تعبيري في ذلك الحين ، يتمسّكون بكل مثقف راديكالي لكي يثبتوا أن الديمقراطية البرجوازية ما تزال يانعة . ولقد كتبت مئات المرات في ذلك الحين عن عقم المثقفين كفئة اجتماعية « مستقلة » وعن المغزى الحاسم للفلاحين الثوريين .

ومهما يكن ، لسنا بالتأكيد في معرض مناقشة جملة سجالية واحدة لست

مستعداً للدفاع عنها مطلقاً . إن جوهر النص هو التالي: اني أقبل المحتوى الذي يعطيه لينين للدكتاتورية الديمقراطية قبولاً كلياً ، واني أطالب فقط بتحديد أدق لتركيبه السياسي ، أي باستبعاد ذلك النوع من التحالف الذي تكون فيه البروليتاريا أسيرة أغلبية برجوازية صغيرة .

والآن ، فلنلتفت الى مقالة لينين عام ١٩١٦ التي كانت ، على حد تعبير راديك نفسه ، موجهة « **رسمياً** ضد تروتسكي ولكنها موجهة **في الواقع** ضد بوخارين وبياتاكوف وكاتب هذه السطور (أي راديك) وعدد آخر من الرفاق. » إن هذا الاعتراف ثمين يؤكد انطباعي في ذلك الحين أن لينين يوجّه مساجلته ضدي في الظاهر فقط ، لأن مضمون المساجلة في الواقع لا علاقة له بي ، الامر الذي سأبيّنه فيما يلي . ان هذه المقالة تحتوي (في سطرين اثنين) على الاتهام ذاته المتعلق « بإنكاري للفلاحين » المزعوم الذي أصبح فيما بعد رأس المال الاساسي في يد رجال الصف الثاني واتباعهم . إن « بيت القصيد » في هذه المقالة على حد تعبير راديك ، يكمن في المقطع التالي إذ يقول لينين مستشهداً بكلامي :

« إن تروتسكي لم يأخذ بعين الاعتبار انه إذا قادت البروليتاريا وراءها الجماهير غير البروليتارية في الريف لمصادرة ممتلكات أصحاب الاراضي والإطاحة بالملكية فهذا يعني انتهاء الثورة البرجوازية الوطنية ، ويكون موازياً في روسيا **لدكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثورية .** » (لينين : « المؤلفات الكاملة » — المجلد ١٣ — ص ٢١٤ — الطبعة الروسية) .

إن لينين لم يوجّه تأنيبه حول « إنكاري » الفلاحين إلى « العنوان الصحيح » فقد كان يتوجّه ، في الواقع ، إلى بوخارين وراديك اللذين لا يتضح قفزهما عن الطور الديمقراطي من الثورة من كل ما قيل أعلاه فحسب ، وإنما يتضح أيضاً من المقطع الذي يستشهد به راديك نفسه والذي يسميه عن حق « بيت القصيد » في

مقالة لينين . وفي الواقع ، يستشهد لينين بكلمات مقالتي رأساً التي تقول بــأن انتهاج البروليتاريا لسياسة مستقلة صلبة هو العامل الذي « يجرّ وراءها الجماهير غير البروليتارية في الريف لمصادرة ممتلكات أصحاب الأراضي وللاطاحة بالملكية » إلى آخره ؛ ثم يستطرد لينين قائلاً : « إن تروتسكي لم يأخذ بعين الاعتبار ... إن هذا يكون موازيــاً في روسيا لدكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثورية » . وبكلمات أخرى ، إن لينين يؤكد هنا ويشهد أن تروتسكي يقبــل ، في الواقع ، كل المضمون العقلي للصيغة البلشفية (تعــاون العمال مع الفلاحين ومهام هذا التعاون الديمقراطية) ، غير انه يرفض ان يعترف ان هذا هو بالذات انتهاء الثورة الوطنية وهذا هو بالذات قيام الدكتاتورية الديمقراطية . لذا ، ينتج عن ذلك ان الخلاف في هذه المقالة السجالية « العنيفة » ظاهرياً لا يتعلق ببرنامج الطور القادم من الثورة وقواه الطبقية الدافعة ، وانما يتعلق بالتأكيد **بالعلاقــة المتبادلة بين هذه القوى وبالطابع السياسي والحزبي للدكتاتورية** . وكنتيجة لغموض العمليات نفسها في ذلك الحــين من جهة ، ونتيجة للمبالغات الناجمة عن صراع الأجنحـــة كانت اساءة الفهم السجالية مفهومة وحتمية في **تلك** الأيام ؛ اما ما لا يمكن فهمه هو ان راديك يسعى لادخال هذه الفوضى في المسألة بعــد وقوع الحدث .

كانت مساجلتي مع لينين تدور ، في جوهرها ، حــول امكانية استقلال الفلاحين في الثورة (وحول درجة هذه الاستقلال) وبخاصة حول إمكانية نشوء حزب فلاحي مستقل . في تلك المساجلة اتهمت لينين بالمبــالغة في تقدير دور الفلاحين **المستقل** . واتهمني لينين باساءة تقدير دور الفلاحين **الثوري** . وكان هذا ينبثق من طبيعة المساجلة نفسها . ولكن أليس كريهاً أن يستعمل المرء هذه النصوص الآن ، بعد مضي عقدين من الزمن ، عازلاً اياها عن مضمون العلاقات الحزبية في ذلك الحين ومضفياً على كل مبالغة سجالية او خطأ آني معنى مطلقاً ، عوضاً عن ان يعرّي في ضوء التجربة الثورية العظيمة التي اختبرناها طبيعة المحور الأساسي للخلافات وبُعدها الحقيقي وليس بُعدها اللفظي .

لكوني مجبراً على ان أحـــدّ من اختياري للنصوص ، سوف أشير فقط إلى أطروحات لينين الرئيسية التي كتبت في نهاية عام ١٩٠٥ ولم تنشر لأول مرّة إلا عام ١٩٢٦ في المجلد الخامس من « متفرقات لينين » (ص ٤٥١) . واني اذكر ان جميع المعارضين ، بما فيهم راديك ، اعتـبروا ان نشر هذه الاطروحات هو اثمن هدية تقدّم للمعارضة ، لانه تبّين انه لو أردنا تطبيق مواد القانون الستاليني على هذه الاطروحات لتبّين أن لينين متهم « بالتروتسكية » . فبدت أهم النقاط التي وردت في مقررات المؤتمر السابع « للجنة التنفيذية لـلاممية الشيوعية » التي تدين التروتسكية وكأنها موجهة بصراحة وعن قصد ضد اطروحات لينـــين الأساسية . فأزبد الستالينيون غيظاً . وقد قــال لي كامنييف الذي تولّى نشر « المتفرقات » صراحة بتلك « الطيبة » الصلفة التي يتميّز بها، قـــال لولا انه لم يكن يمهّد لقيام جبهة بيننا لما كان سمح ، في أي حال من الأحوال ، بنشر هـذه الوثيقة . وأخيراً ، عمد « كوستريزيوا » في مقـــالة له في مجلة « البلشفي » إلى تزوير هذه الاطروحات لغرض واحد هو اعفاء لينين من ان توجّه اليه تهمـــة التروتسكية في موقفه من الفلاحين عامة ومن الفلاح المتوسط خاصة .

وبالاضافة لذلك ، ساستشهد هنا بتقييم لينين نفسه لخلافه في الرأي معي كما تحدث عنه عام ١٩٠٩ :

> « ان الرفيق تروتسكي نفسه يسلـّم» في هذا المضمار « باشتراك ممثـلي القطاع الديمقراطي من الشعب » في « الحكومة العماليـة » اي انـه **يسلّم بحكومة تضم ممثلين من البروليتاريا والفلاحين** .
>
> اما حول السؤال : في أية ظروف يسمح بها اشتراك البروليتاريا في الحكومة الثـــورية ؟ فذلك موضوع آخر ؛ والارجح ان البلاشفة لن تكون لهم وجهـة نظر مشتركة ، في هـــذا الصدد ، ليس مع تروتسكي فحسب بل مع الاشتراكيين – الديمقراطيين البولونيين

أيضاً . الا انه لا يمكن تحويـــل مسألة دكتاتورية الطبقات الثورية ، باي حال من الأحـوال ، إلى مجرد مسألة « الاغلبية » في هذه الحكومة او تلك ، او إلى ماهية الظروف التي يسمح بهـا اشتراك الاشتراكيين – الديمقراطيين في هـذه الحكومة أو تلك » . (لينين : « المؤلفات الكاملة » – المجلد ١ – ص ٢٢٩ – الطبعة الروسية) .

إن لينين يؤكد مرّة أخرى في هذا النص ان تروتسكي يقبل بحكومة تضم ممثلين عن البروليتاريا والفلاحين فهو إذن لا « يقفز » عن هذه الأخيرة . وعلاوة على ذلك ، فقد أكدّ لينين انه لا يمكن تحويل مسألة الدكتاتورية الى مجرد مسألة الاغلبية في الحكومة . إن هذا بجمله لا جدال حوله . إن الموضوع يتعلق أولاً وآخراً بنضال البروليتارياوالفلاحين المشترك،وبالتالي نضال الطليعة البروليتارية، ضد البرجوازية الليبرالية والوطنية للتأثير على الفلاحين . غير انه **لا يمكن تحويل** مسألة دكتاتورية العمال والفلاحين الثورة الى مسألة هـــذه الأغلبية أو تلك في الحكومة ، على انه لا بد من ان **تبرز** هذه المسألة كمسألة حاسمة بعـــد انتصار الثورة . وكما رأينا ، فإن لينين يتحفظ بحذر (تجـاه جميع الاحتمالات) فيؤكد انه لو وصلت الأمور الى درجة اشتراك الحزب في الحكومة الثورية لربّما برزت خلافات مع تروتسكي ومع الرفاق البولونيين **حول ظروف** هـــذا الاشتراك . إذن كان الموضوع هو موضوع **احتمال** نشوء اختلاف في الرأي الى مدى ما كان لينين يعتبر انه من الجائز نظرياً ان يشترك ممثلون عـــن البروليتاريا كأقلية في حكومة ديمقراطية . غير ان الاحداث برهنت انـه لم تنشأ خلافات فيا بيننا . ففي تشرين الأول من عام ١٩١٧ ، نشب صراع عنيف في القيادة العليا للحزب حول مسألة الحكومة الائتلافية مع الاشتراكيين – الثوريين والمنشفيك.وبدون ان يعترض لينين مبدئياً على التحالف على صعيد مجالس السوفييت ، طلب بوضوح تام المحافظة على الاغلبية البلشفية . وكنت الى جانب لينين في ذلك الموقف .

والآن ، فلنسمع راديك . الى مـــاذا يحوّل كل مسألة دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية ؟

انه يتساءل : «أين اثبتت نظرية البلاشفة عام١٩٠٥ عن صحتها في الاساس؟ في كون النضال المشترك لعمال بتروغراد وفلاحيها (جنود حاميـة بتروغراد) هو الذي اطاح بالحكم القيصري [عام ١٩١٧ – ل . ت .] . وعلى كلٍ ، فان صيغة عام ١٩٠٥ قد تكهنت في أساسها بالعلاقة بين الطبقات فقط ولكنهـا لم تتكهن بمؤسسة سياسية محدّدة » .

لحظة واحدة من فضلك ! عندما وصفت الصيغة اللينينية القديمة بأنها معادلة « جبرية » لم اكن اعني انه يجوز تحويلها الى ابتذال فارغ كما يفعل راديـــك بطيش . تحقق الشيء الاساسي : لقـد اشترك العمال والفلاحون في « الاطاحة بالقيصرية » . غير ان هذا « الشيء الاساسي » قد تحقق ، بدون استثناء ، في جميع الثورات الناجحة أو التي نجحت جزئياً . لقد كانت الضربات التي وجهت الى القياصرية والاقطاعيين والكهنة دومـــاً مصدرها قبضات البروليتاريـــين وأسلافهم المعدمون والفلاحون . ويعود ذلك الى القرن السادس عشر في المانيـا وحتى الى ما قبل ذلك.وفي الصين كان العمال والفلاحونهم الذين وجهوا الضربات الى « العسكريين » . فما علاقة هذا بالدكتاتورية الديمقراطية؟ ان الثورة الصينية أو الثورات القديمة لم تعرف مثل هذه الدكتاتورية . لم لا ؟ لأن البرجوازية كانت تركب على ظهور العمال والفلاحين الذين اضطلعوا بالمهـام الصعبة في الثورة . إن راديك قد انفصل بعنف عن « المؤسسات السياسية » بحيث نسي« أهم شيء » في الثورة ، أي من يقودهـا ومن يستولي على الحكم . ومهما يكن من أمر ، فالثورة نضال من أجل استلام الحكم . انها صراع سياسي تخوضه الطبقات ليس بايديهـا العارية وانما تخوضه بواسطة « مؤسسات سياسية » (كالأحزاب وما شابه) .

ويكرّر راديك وعيده ضدّنا نحن الكفرة : « انَ الذين لم يتعمقوا في فهم تعقيد الأداة الماركسية – اللينينية » يحملون المفهوم التالي : « يجب أن يؤدي كل شيء في النهاية الى حكومة مشتركة من العمال والفلاحين ؛ ويذهب البعض الى حد

الاعتقاد انه لا بدّ لذلك من أن يكون في حكومة ائتلافية تضم الأحزاب العمالية والفلاحية » .

يا لهم من متحجري الرؤوس هؤلاء « البعض » ! ما رأي راديك ؟ هل يعتقد انـه ليس من الضروري ان تنعكس الثورة المنتصرة على العلاقة المحدّدة بـين الطبقات الثوريـة ، وأن تترك طابعها عليهـا ؟ لقد عمّق راديـك المشكلة « السوسيولوجية » الى درجة انه لم يتبقّ منها سوى قشرة لفظية .

يتبين لنا إلى أي مدى لا يجوز أن ينفصل المرء عن مسألة الاشكال السياسية لتعاون العمال والفلاحين عندما نقرأ الكلمات التالية من خطاب لراديك نفسه ، في « الا كاديمية الشيوعية » في آذار من عام ١٩٢٧ :

« منـذ سنة ، كتبت مقالة في « البرافدا » حول هذه الحكومة [حكومة كانتون] وقلت انها **حكومة الفلاحين والعمال** . وقـد اعتبر أحد الرفاق في هيئة التحرير ان تلك هفوة من جانبي ، فحوّل الجملة الى **حكومة العمال والفلاحين** . اني لم اعترض على هـذا وتركتها كما هي : حكومة العمال والفلاحين » .

وهكذا ، كان راديك في آذار من عام ١٩٢٧ (وليس في عام ١٩٠٥) من الرأي القائل انه بالامكان قيام حكومة الفلاحين والعمال عوضاً عن حكومـة العمال والفلاحين . كان ذلك فوق مستوى تفكير محرّر « البرافدا » . واني اقسم بحياتي اني لم افهمه أيضاً . اننا نعرف تمـام المعرفة ما معنى حكومـة العمال والفلاحين . ولكن ما هي حكومة الفلاحين والعمال التي هي بديل لحكومـة العمال والفلاحين ومعاكسة لها؟ المرجو أن تفسّروا لنا لغز تبديل النعوت هذا . هنا نضع اصبعنا على جوهر المسألة . في عام ١٩٢٦ اعتبر راديك ان حكومـة كانتون التي أقامها تشانغ كاي - تشيك هي حكومـة الفلاحين والعمال . وفي عام ١٩٢٧ كرّر هذه الصيغة . وقد تبين ، في الواقع ، انها حكومة **برجوازية** تستغل النضال الثوري للعمال والفلاحين ثم تغرقهم في بركة من الدم . كيف تفسر

هذه الفعلة الشنيعة ؟ هل ان راديك قد أخطأ الحكم فقط ؟ من السهل ان يخطىء المرء الحكم اذا كان بعيداً عن الحدث . لماذا لم يقل راديك إذن : اني لم افهم ، اني لم أرَ ، لقد أخطأت. لا ليس هذا خطأ ناجماً عن قلة المعلومات، بل هو كما يتضح الآن خطأ فادح في المبدأ . إن حكومة الفلاحين والعمال التي تعاكس حكومة العمال والفلاحين ليست سوى الكيومنتانغ. ولا يمكن ان تكون أي شيء آخر. إن الفلاحين إما أن يتبعوا البروليتاريا وإما أن يتبعوا البرجوازية . وأظن إن هذه المسألة قد اتضحت بما فيه الكفاية في معرض نقدي لفكرة ستالين الانشقاقية حول : « حزب الطبقتين ، طبقة العمال وطبقة الفلاحين » . (راجع : « نقد الخطوط الرئيسية لمشروع برنامج الاممية الشيوعية ») ، إن « حكومة الفلاحين والعمال » في كانتون مقابل حكومة العمال والفلاحين هي أيضاً التعبير الوحيد الذي يمكن ان نتبيّنه ، في لغة السياسة الصينية الحالية ، عن « الدكتاتورية الديمقراطية » التي تعاكس دكتاتورية البروليتاريا ؛ انها بكلمات أخرى ، تجسيد لسياسة الكيومنتانغ الستالينية التي تعاكس السياسة البلشفية التي تنعتها « الاممية الشيوعية » بانها سياسة « تروتسكية » .

٤ - كيف بدت نظرية الثورة الدائمة عند التطبيق العملي

يضيف راديك لنقده لنظريتنا نقداً « للخطة التكتيكية المستخرجة منها » كما رأينا . ان هذه لإضافة جد مهمة . فالنقد الستاليني الرسمي « للتروتسكية » قد اقتصر بجذر على النظرية ... الا ان هذا ليس كافياً بالنسبة لراديك . انه يخوض معركة ضد خط تكتيكي (بلشفي) معيّن في الصين . لذا فهو يسعى الى الحط من هذا الخط بواسطة نظرية الثورة الدائمة ، ولكي يصل إلى ذلك عليه أن يبيّن ، او أن يدّعي ان غيره قد سبق وبيّن ، ان خطأً تكتيكياً خاطئاً قد انبثق في الماضي عن هذه النظرية . في عمله هذا يخدع راديك قراءه . قد يكون غير ملمّ بتاريخ الثورة التي لم يشترك فيها بشكل مباشر . ولكن يبدو انه لم يبذل أي جهد ليتفحص المسألة على ضوء الوثائق . وأهم هذه الوثائق يتضمنها الجزء الثاني من **مؤلفاتي الكاملة** التي هي في متناول كل من يجيد القراءة . لذا ، فليعلم راديك اني كنت خلال جميع مراحل الثورة الأولى على اتفاق تام مع لينين حول تقدير قوى الثورة ومهامها المتعاقبة بالرغم من اني أمضيت عام ١٩٠٥ كله مختبئاً في روسيا وعام ١٩٠٦ في السجن . اني مجبر على الاكتفاء هنا بالحد الأدنى من الاثباتات والوثائق .

في مقالة لي في شباط ١٩٠٥ طبعت في آذار من العام نفسه ، أي قبل شهرين أو ثلاثة من موعد انعقاد اول مؤتمر بلشفي (المعروف في تاريخ الحزب بالمؤتمر

الثالث للحزب) ، كتبت ما يلي :

« ان الصراع المرير الذي يدور بين الشعب والقيصر والذي سيستمر حتى احراز النصر، والانتفاضة الوطنية الشاملة التي هي ذروة هذا النضال ، والحكومة المؤقتة التي هي تتويج ثوري لانتصار الشعب على عدوه القديم، وانتزاع السلاح من الرجعية القيصرية وتسليح الشعب من قبل الحكومة المؤقتة ، ودعوة الجمعية التأسيسية الى الانعقاد على اساس انتخاب عام متساوٍ ومباشر وسري — ان هذه كلها هي المراحل المحددة موضوعياً التي تمر بها الثورة » .

(تروتسكي : « المؤلفات الكاملة — المجلد ٢ — الجزء الأول — ص ٢٣٢) .

يكفي ان نقارن هذه الكلمات بمقررات المؤتمر البلشفي في ايار ١٩٠٥ لنتبّين في الطريقة التي صيغت بها هذه المقررات تضامني الكامل مع البلاشفة حول المشكلات الأساسية .

وليس هذا كل ما في الأمر . فعلى ضوء هذه المقالة ، وضعت في بطرسبرغ بالاتفاق مع كراسين اطروحات حول الحكومة المؤقتة وزعت بشكل سري في ذلك الحين . وقد دافع كراسين عنها في المؤتمر البلشفي . وكلمات لينين هذه تبّين مدى اتفاقه معها :

« اني اتفق مع اراء الرفيق كراسين جملة وتفصيلاً. من الطبيعي ان أكون ، بوصفي كاتباً ، قد أوليت الصياغة الأدبية للمسألة اهتماماً زائداً . لقد بيّن الرفيق كراسين **اهمية الهدف الذى يسعى اليه النضال** ، وكان مصيباً في ذلك ، اني امنحه تأييدي المطلق . فليس بالامكان ان نخوض النضال اذا لم نكن مصمّمين على

الاستيلاء على الموضع الذي نناضل من أجله » ...
(لينين : المؤلفات الكاملة – الجزء ٦ – ص ١٨٠ – الطبعة الروسية) .

ان القسم الأكبر من تعديل كراسين المفصّل ، الذي احيل القارىء اليه ، قد أدخل في مقررات المؤتمر. ومما يثبت اني كنت كاتب هذا التعديل رسالة من كراسين ما تزال في حوزتي. ان كامنييف وغيره يعرفون هذه الحقبة من تاريخ الحزب معرفة جيدة .

كانت مشكلة الفلاحين ومشكلة جذبهم للالتفاف حول سوفييت العمال وتنسيق العمل مع « عصبة الفلاحين » تستأثر باهتمام سوفييت بطرسبرغ بشكل متزايد يوماً بعد يوم . هل يعلم راديك ان رئاسة هذا السوفييت أوكلت إلي ؟ وفيما يلي نص من بين مئات النصوص التي كتبتها في ذلك الحين حول المهام التكتيكية للثورة :

« على البروليتاريا ان تنشيء « مجالس سوفييت » في جميع المدن لتقود نضال الجماهير في المدن وتضع في حيّز التنفيذ التحالف النضالي مع الجيش والفلاحين » .
(تروتسكي : مجلة « ناشالو » – العدد ٤ في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٠٥) .

اني اقرّ ان الاستشهاد بنصوص تثبت اني لم اتكلم أبداً عن « قفزة » من الحكم الفردي إلى الاشتراكية أمرٌ مملٌ ومخجل معاً . ولكن لا مفرّ منه . ففي شباط عام ١٩٠٦ ، مثلاً ، كتبت ما يلي حول مهام الجمعية التأسيسية ، دون ان أطرحها كبديل لمجالس السوفييت ، كما يفعل الآن راديك الذي يسير على خطى ستالين بالنسبة للصين ، لكي يزيل بمكنسة يسارية – فعالية كل أوساخ سياسية الامس الانتهازية :

« إن الشعب المتحرر سيدعو الجمعية التأسيسية بقوته هو. وستلقى على عاتق هذه الجمعية مهام جسام.

عليها ان تعود بناء الدولة على أسس ديمقراطية ، اي وفق مبادىء سيادة الشعب المطلقة . وسيكون من واجبها ان تنظم الميليشيا الشعبية وأن تجري اصلاحاً زراعياً بعيد المدى وتدخل يوم العمل من ثماني ساعات وضريبة دخل تصاعدية » . (تروتسكي : المؤلفات الكاملة – المجلد٢ – الجزء الأول – ص ٣٤٩ – الطبعة الروسية) .

وهذا ما كتبته عام ١٩٠٥ فيمنشور تحريكي حول مسألة إدخال الاشتراكية « مباشرة » :

« هل من المعقول إدخال الاشتراكية الى روسيا مباشرة ؟ كلا .. فان ريفنا ما زال يسوده الظلام والجهل الى حد كبير . والاشتراكيون الحقيقيون بين الفلاحين قلة . علينا باديء بدء ان نقضي على الحكم الفردي الذي يبقي جماهير الشعب في الظلام . يجب تحرير فقراء الريف من جميع الضرائب ، وإدخال ضريبة دخل تصاعدية وفرض التعليم الالزامي العام ، وأخيراً يجب صهر البروليتاريا وشبه – البروليتاريا في الريف مع بروليتاريا المدن في جيش اشتراكي–ديمقراطي واحد . إن هذا الجيش وحده هو الذي يستطيع ان يحقق الثورة الاشتراكية العظمة » . (تروتسكي : المؤلفات الكاملة – المجلد ٢ – الجزء الأول – ص ٢٢٨ – الطبعة الروسية) .

ويستنتج من ذلك اني كنت اميز بين المرحلة الديمقراطية والمرحلة الاشتراكية من الثورة ، قبل ان يبدأ راديك ، الذي يسير على خطى ستالين وثالمان[1] ،

---

١ – ثالمان هو أحد قادة الحزب الشيوعي الالماني . (المترجم)

بتزويدي بالنصائح حول هذا الموضوع. منذ اثنين وعشرين عاماً كتبت ما يلي :

« عندمـــا تبلورت فكرة الثورة غير المتقطعة في الصحافة الاشتراكية ، تلك الفكرة التي تربط بـــين تصفية الحكم المطلق والاقطاعية وبين الثورة الاشتراكية الى جانب تفاقم الصراعات الاجتماعية وتمرد قطاعات جماهيرية جديدة وشن البروليتاريا للهجمات المستمرة على الامتيازات الاقتصادية والسياسية للطبقات الحاكمة ، عندما تبلورت هذه الفكرة اطلقت صحافتنا «التقدمية» صيحة استنكار واحدة » . (تروتسكي : « ثورتنا » — ١٩٠٦ — ص ٢٥٨) .

أريد اولاً أن الفت الأنظار الى تعريف الثورة غير المتقطعة الذي تحويه هذه الكلمات : انها تربط بين تصفية بقايا القرون الوسطى وبين الثورة الاشتراكية من خلال عدد من الاصطدامات الاجتماعية المتزايـدة الحدة . فأين إذن هي القفزة ؟ اين هو تجاهل المرحلة الديمقراطية ؟ وعلى كل ، أليس هذا ما حدث فعلاً عـــام ١٩١٧ ؟

وتجدر الاشارة ، في هذا الصدد ، الى أن صرخـــة الاستنكار التي اطلقتها الصحافة « التقدمية » عام ١٩٠٥ ضد الثورة غير المتقطعة لا يمكن باي حال من الأحوال مقارنتهـا بالنباح غير التقدمي الذي يطلقه مرتزقـــة هذا الزمن الذين تدخلوا في الموضوع بعد مضي ربع قرن .

ماذا كان موقف « الحياة الجديدة » لسان حال الجناح البلشفي ، التي كانت تصدر تحت اشراف لينين اليقظ ، عندما أثرتُ موضوع الثورة الدائمة في الصحافة. لا شك إن هذه النقطة لا تخلو من الأهمية . كتبت صحيفة « حياتنا » البرجوازية « الراديكالية » مقـالة تحاول فيها أن تواجه « نظرية الثورة الدائمة » لتروتسكي بآراء لينين « الأكثر معقولية » ، فأجابت عليها صحيفة « الحيـــاة الجديدة » البلشفية (في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٠٥) بما يلي :

«إن هذا الافتراض الكيفي هراء ليس الا. لقد قال الرفيق تروتسكي انـــه من الممكن أن لا تتوقف ثورة البروليتاريا عند المرحلةالاولى بل تكمل طريقها فتقوض حكم المستغِلين؛ وقد أشار لينين من طرفه الى أنالثورة السياسية ما هي إلا الخطوة الاولى. ان محرر «حياتنا» يريد أن يرى تناقضاً بين هذين القولين ... إن سوء التفاهم كله يرجع الى أسباب ثلاثة: أولاً : الرعبالذي تثيره في أوساط اسرة تحرير صحيفة « حياتنا » عبارة الثورة الاجتماعيــة . ثانياً : رغبة هـــذه الصحيفة في اكتشاف خـــلاف عميق حاد بـــين وجهات نظر الاشتراكيين – الديمقراطيين . وثالثـــاً : الثورية التي يستعملها الرفيق تروتسكي في عبارة « دفعة واحدة » . في العدد العاشر من صحيفة « ناشالوا »(البداية)يوضح الرفيق تروتسكي هذه العبارة بما لا يفسح المجال أمامأي تأويل . فيقول :

« ولكن هذا الانتصار يعني بدوره ديمومة الثورة في المستقبل . إن البروليتاريا تحقق في الحيـــاة المهام الديمقراطية الأساسية ، غير أن منطق صراعها العاجل من أجل ترسيخ حكمها السياسي يطرح عليها ، في لحظة معينة،مشكلات ذات طابع اشتراكي فحسب. فتتولـّد ديمومة ثورية بين برنامج الحد الادنى وبرنامج الحـــد الأقصى (من مطالب الاشتراكيين – الديمقراطيين) . ليست المسألة مسألة « دفعة واحدة » ، أو مسألة يوم واحد أو شهر واحد،إنها مسألة حقبة تاريخية برمّتها . ومن العبث ان نحاول تحديد مدتها سلفاً . »

إن هذه الاشارة تستنفد موضوع المنشور الحالي . أي دحض لكل النقد اللاحق الذي وجهه « رجال الصف الثاني » هو أكثر وضوحاً ودقة ومتانة من هذا الدحض الذي تحويه مقالتي الصحفية التي نقلتها صحيفة لينين « الحياة الجديدة » معلنة تأييدها الكامل لها ؟ إن مقالتي توضّح إن البروليتاريا المنتصرة، خلال إنجازها للمهام الديمقراطية ، سوف يفرض عليها منطق وضعها ذاته مواجهة مشكلات ذات طابع اشتراكي فحسب في مرحلة معينة . هنا بالتحديد تكمن الديمومة بين برنامج الحد الأدنى وبرنامج الحد الأقصى التي تنبثق بشكل حتمي عن دكتاتورية البروليتاريا . وقد أوضحت في ذلك الحين لنقادي في معسكر البرجوازية الصغيرة ان هذه لن تتم دفعة واحدة وانها ليست قفزة بل هي حقبة تاريخية كاملة . ولقد وقفت صحيفة لينين « الحياة الجديدة » بحزم الى جانب هذا التوقع . وأهم من ذلك هو ان هذا التوقع قد أكده سير التطور الفعلي ، وبرهن عام ١٩١٧ عن صحته بشكل حاسم .

الى جانب العناصر الديمقراطية من البرجوازية الصغيرة المتكتلة حول صحيفة « حياتنا » ، كان هنالك المنشفيك الذين تكلموا عام ١٩٠٥ وبخاصة عام ١٩٠٦ بعد أن بدأت الثورة بالانتكاس ، عن « القفزة » المروعة عن الديمقراطية باتجاه الاشتراكية . ومن بين هؤلاء المنشفيك كان مارينوف والمرحوم يوردانسكي بشكل خاص السبّاقين في هذا المجال . ولنذكر بشكل عابر أنهما صارا فيما بعد من الستالينيين المتحمسين . وقد خصصتُ عام ١٩٠٦ مقالة مفصلة ومكتوبة بأسلوب شعبي للرد على هؤلاء المنشفيك الذين حاولوا إلصاق تهمة « القفز الى الاشتراكية » بي ، فبينت تهافت هذا الادعاء وسفاهته . وباستطاعتي الآن إعادة طبع هذه المقالة دون ان أحذف منها شيئاً للردّ على نقد «رجال الصف الثاني». ولكنني سأكتفي بالاستشهاد بخاتمة هذه المقالة التي تتلخص بالكلمات التالية :

> « فليطمئن ناقدي (يوردانسكي) اني أعلم علم اليقين ان القفز عن عقبة سياسية في مقالة صحفية لا يشبه بشيء تخطيها عملياً » .

(تروتسكي : المؤلفات الكاملة – المجلد ٢ – الجزء الأول – ص ٤٥٤ – الطبعة الروسية) .

ترى أيكفي هذا ؟ واذا لم يكن كافياً ، فاني سوف استمر . حتى لا أفسح المجال أمام نقاد على طراز راديك ليقولوا ان المواد ليست « في متناول أيديهم » لكي يطلقوا عليها احكامهم الشهمة .

لقد كتبت خلال وجودي في السجن عام ١٩٠٦ منشوراً صغيراً بعنوان « خططنا التكتيكية » طبعه لينين رأساً وهو يحوي الخاتمة المميّزة التالية :

« سوف تتمكن البروليتاريا من الاستناد الى انتفاضة في الريف وفي المدينة ، مركزي الحياة السياسية ، وسوف تتمكن من أن تحقق انتصار القضية التي بادرت باثارتها. وباعتمادها على قوى الفلاحين الاساسية وبقيادتها لها لن توجه البروليتارياالضربة القاضية المظفرة للرجعية فحسب ، ولكنها ستعرف كيف تحقق انتصار الثورة أيضاً » .

(تروتسكي : المؤلفات الكاملة – المجلد ٢ – الجزء الأول ، ص ٤٤٨ – الطبعة الروسية) .

هل يبدو من هذا القول اني اتجاهل الفلاحين ؟ وبالمناسبة ، بلورت في المنشور ذاته الفكرة التالية :

« ان خططنا التكتيكية ، المبنية على تقدّم الثورة المضطرد ، لا يجب ان تتجاهل اطوار الحركة الثورية ومراحلها اكانت هذه حتمية أم ممكنة ام متوقعة » .

(تروتسكي : المؤلفات الكاملة – المجلد ٢ – الجزء الأول – ص ٤٣٦ – الطبعة الروسية) .

هل يبدو هذا وكأنه قفزة مروعة ؟

في مقالة لي بعنوان « درس من السوفييت الأول » (١٩٠٦) بيّنت توقعات

تطور الثورة اللاحق (او بالأحرى توقعات الثورة الجديدة كما تبيّن فيما بعد) على الشكل الآتي :

« التاريخ لا يعيد نفسه – فلن يضطر السوفييت الجديد إلى اجتياز أحداث الايام الخمسين (تشرين الثاني إلى كانون الأول ١٩٠٥) ، عوضاً عن ذلك بامكانه ان يستعيد برنامج عمله كله من هذه الفترة. وهذا البرنامج في غاية الوضوح : التعاون الثوري مع الجيش والفلاحين والفئات الدنيا من البرجوازية الصغيرة في المدن . الغاء الحكم الفردي . تقويض تنظيمه المادي بواسطة اعادة التنظيم من جهة ، وبواسطة تذويب الجيش حالاً وتحطيم الآلة البرقراطية والبوليسية من جهة أخرى . تحديد يوم العمل بثماني ساعات . تسليح الشعب عامة والبروليتاريا خاصة . تحويل مجالس السوفييت إلى منظمات للادارة الذاتية الثورية في المدن . انشاء مجالس سوفييت لمندوبي الفلاحين (اللجان الفلاحية) بوصفها المنظمات الموكلة بتحقق الثورة الزراعية في الريف . تنظيم الانتخابات للجمعية التأسيسية ، والنضال الانتخابي على أساس برنامج عمل محدد يطرحه ممثلو الشعب » .

(تروتسكي : المؤلفات الكاملة : المجلد ٢ – الجزء الثاني – ص ٢٠٦ – الطبعة الروسية) .

هل يبدو هذا القول وكأنه قفز عن القضية الزراعية ، او أنه تجاهل للمسألة الفلاحية بشكل عام ؟ هل يبدو من هذا القول اني كنت متعامياً عن المهام الديمقراطية للثورة ؟ كلا انه لا يبدو كذلك . ولكن كيف تبدو الصورة السياسية التي يرسمها راديك ؟ انها لا تبدو كأي شيء .

يحاول راديك بواسطة الابهام والتضخيم ان يضع حداً فاصلاً بين موقفي عام ١٩٠٥ الذي يشوهه وبين موقف المنشفيك ، دون أن يدري أنه هو نفسه يردد ثلاثة أرباع نقد المنشفيك ؛ فيقول انه بالرغم من ان تروتسكي اتبع نفس الوسائل التي يتبعها المنشفيك الا ان هدفه كان مغايراً لهدفهم . بهذه الصيغة الذاتية يسيء راديك الى الطريقة التي يعالج فيها المسألة . حتى « لاسال » كان يعلم ان الهدف يعتمد على الوسيلة ويتحدد بها في التحليل الأخير . وقد ذهب الى حد كتابة مسرحية حول هذا الموضوع بعنوان « فرانز فون سنكينجين » . ولكن ، ما هو القاسم المشترك بين وسائلي ووسائل المنشفيك ؟ موقف كلانا من الفلاحين . وكبرهان على ذلك ، يستشهد راديك بثلاثة اسطر سجالية من مقالة لينين عام ١٩١٦ الآنفة الذكر ، مشيراً بشكل عابر إلى ان لينين ، بالرغم من أنه يذكر تروتسكي بالاسم ، فقد كان في الواقع يوجه مساجلته ضد بوخارين وضد راديك ذاته . وإلى جانب هذه الأسطر من لينين التي سبق ورأينا كيف يدحضها محتوى مقالة لينين كله ، يتناوو راديك تروتسكي نفسه . في معرض فضحي لتهافت مفهوم المنشفيك ، طرحت في مقالة لي عام ١٩١٦ السؤال التالي : اذا لم تكن البرجوازية الليبرالية هي التي ستقود الثورة ، فمن سيقودها ؟ على كل ، انتم ايها المنشفيك ، لا تؤمنون بأي حال من الأحوال بدور الفلاحين السياسي **المستقل** . هنا يقبض عليّ راديك بالجرم المشهود : ان تروتسكي « يتفق » مع المنشفيك حول دور الفلاحين . كان المنشفيك يرفضون فكرة « ابعاد » البرجوازية الليبرالية بغية اقامة تحالف مشبوه ، لا يمكن الاعتماد عليه مع الفلاحين . تلك كانت « وسيلة » المنشفيك، في حين كانت وسيلتي تعتمد على استبعاد البرجوازية الليبرالية والنضال من أجل قيادة الفلاحين الثوريين. وحول هذه المسألة الاساسية كنت على اتفاق تام مع لينين . فعندما قلت للمنشفيك في معرض صراعي ضدهم: « لستم، باي حال من الأحوال،على استعداد للاعتراف بدور الفلاحين **القيادي** » ، فلم يكن ذلك اتفاقاً مع وسيلة المنشفيك ، كما يحاول راديك ان يوحي ، وانما كان طرحاً جلياً لبديل : إما دكتاتورية الاثرياء الليبراليين وإما دكتاتورية

البروليتاريا .

ان نفس الحجة الأكيدة التي واجهت بها المنشفيك عام ١٩١٦ ، والتي يحاول راديك الآن استعمالها بخبث ضدي ، وقد سبق لي وعرضتها قبل ذلك بتسع سنوات في مؤتمر لندن عام ١٩٠٧ في معرض دفاعي عن اطروحات البلاشفة حول الموقف من الأحزاب غير البروليتارية . سوف استشهد هنا بالجزء الأساسي من خطابي في لندن الذي نشر ، في السنوات الأولى للثورة ، في المجموعات والكتب المدرسية كانموذج على الموقف البلشفي من الطبقات والأحزاب خلال الثورة . هذا ما قلته في ذلك الخطاب الذي يحوي صياغة جلية لنظرية الثورة الدائمة :

« ان أفكار الرفاق المنشفيك تبدو بالنسبة اليهم في غاية التعقيد. لقد سمعتهم يرددون اتهامات تقول إن مفهومي لمجرى الثورة الروسية مبسط أكثر من اللازم. ولكن ، بالرغم من هلاميتهم المفرطة ، التي هي شكل من أشكال التعقيد ، وربما بسبب هذه الهلامية نجد ان آراء المنشفيك موضوعة في قالب بسيط يسهل حتى على المستر مليوكوف فهمها .

فقد كتب الملهم النظري لحزب « الكاديت » في ملحق لكتابه الأخير « ما هي نتائج انتخابات مجلس الدوما الثاني ؟ » ما يلي : « أما بالنسبة للمجموعات اليسارية ، بالمعنى الضيق لهذه العبارة ، أي المجموعات الاشتراكية والثورية ، فالاتفاق معها سيكون أكثر صعوبة . ولكن حتى في هذا المضمار ، إذا لم تتوفر أسباب إيجابية واضحة تسهل الاتفاق فيما بيننا ، هناك على الأقل اسباب سلبية وجيهة تدعو لذلك . إن هدفهم هو نقدنا وتجريحنا ، لهذا السبب وحده علينا

أن نكون موجودين وأن نتحرك . وكلنا يعلم أن اشتراكيي روسيا والعالم يعتبرون الثورة القائمة الآن ثورة برجوازية لا ثورة اشتراكية . إنها ثورة تحققها الديمقراطية — البرجوازية ... ان تخطي هذه الثورة أمر لا يدخل في تخطيط أي اشتراكي في العالم ، وإذا كانت الأمة قد انتخبتهم الى مجلس الدوما بهذه الاعداد الضخمة ، فبالتأكيد ليس لكي يحققوا الثورة الاشتراكية الآن أو لكي يقوموا هم بالاصلاحات « البرجوازية » التحضيرية ... والأجدر بهم أن يتركوا لعب دور البرلمانيين لنا وان لا يورطوا أنفسهم في لعب هذا الدور » .

إن مليوكوف ، كما اتضح ، يدخل بنا الى صلب الموضوع . ان النص المنشور أعلاه يحوي أهم العناصر التي يتكون منها موقف المنشفيك تجاه الثورة وتجاه العلاقة بين الديمقراطية البرجوازية والديمقراطية الاشتراكية .

« الثورة القائمة الآن هي ثورة برجوازية وليست ثورة اشتراكية » هذه هي النقطة الأولى والأكثر اهمية . إن الثورة البرجوازية « يجب أن تحققها الديمقراطية البرجوازية » ، تلك هي النقطة الثانية . ليس بمقدور الديمقراطية الاشتراكية أن تقوم بالاصلاحات البرجوازية بنفسها ، ان دورها يقتصر على المعارضة ، على « النقد والتجريح » . تلك هي النقطة الثالثة . وأخيراً ، النقطة الرابعة : لكي نضمن للاشتراكيين البقاء في المعارضة علينا (نحن الديمقراطية —

البرجوازية) ان نكون موجودين وأن نتحرك » .

ولكن ماذا لو لم نكن « نحن » موجودين ؟ ماذا لو لم يكن ثمة ديمقراطية برجوازية قادرة على قيادة الثورة البرجوازية ؟ إذن توّجب علينا اختراعها . وتلك بالتحديد هي النتيجة التي يخلص إليها المنشفيك انهم ينسجون من صنع خيالهم ديمقراطية برجوازية مع توابعها وتاريخها .

بوصفنا ماديين ، يتوجب علينا بادىء بدء أن نطرح قضية الأسس الطبقية للديمقراطية البرجوازية : على أية فئات أو هيئات بإمكانها أن تعتمد ؟

البرجوازية الكبيرة ليست قوة ثورية ، هذا أمر نتفق عليه جميعاً . فحتى إبان الثورة الفرنسية العظمى ، التي كانت ثورة برجوازية بالمعنى الواسع لهذه العبارة ، لعب بعض صناعيي مدينة « ليون » دوراً معادياً للثورة . ولكن يقال لنا ان البرجوازية المتوسطة وبشكل خاص البرجوازية الصغيرة تشكلان القوة القائدة للثورة البرجوازية . ولكن ماذا تمثل هذه البرجوازية الصغيرة ؟

لقد اعتمد اليعاقبة على العناصر الديمقراطية في المدن التي انبثقت من التعاونيات الحرفية . وكان الصناع الصغار والمياومون وسكان المدن المرتبطون بهم يكونون جيش المعدمين الثوريين (Les sans culottes) ، القوة الدافعة لحزب « الجبليين » القائد . إن هذه الجموع الكثيفة من سكان المدن ، التي اجتازت التاريخ الطويل لحقبة التعاونيات الحرفية ، هي التي

حملت جميع اعباء الثورة . وكانت النتيجة الموضوعية لهذه الثورة خلق الظروف « الطبيعية » للاستغلال الرأسمالي . ومهما يكن من أمر ، فالتركيبات الاجتماعية للعملية التاريخية هي التي ولدت هذه النتيجة : أن يكون « السوقة » أي ديمقراطية الشارع — المعدمون (Les sans culottes) — هم الذين مهّدوا الطريق أمام سيطرة البرجوازية . فقد طهرت دكتاتوريتهم الإرهابية المجتمع البرجوازي من حثالته القديمة ، فجاءت البرجوازية الى الحكم بعد أن توخت دكتاتورية ديمقراطي البرجوازية .

اني أسأل الآن ، وليس للمرة الأولى ويا للأسف ، أية طبقة اجتماعية سترفع ديمقراطي البرجوازية الثورية الى سدة الحكم ، وتمكنهم عن الاضطلاع بمهامها الجبارة إذا ظلت البروليتاريا في المعارضة ؟ ذلك هو السؤال الرئيسي ، واني أطرحه مجدداً على المنشفيك .

لا شك في انه يوجد في بلدنا جماهير غفيرة من الفلاحين الثوريين . غير ان الرفاق المنشفيك يعلمون ، بقدر ما اعلم ، أن الفلاحين ، بغض النظر عن مدى ثوريتهم ، عاجزون عن ان يلعبوا دوراً سياسياً **مستقلاً** وهم بالتالي عاجزون عن لعب دور **قيادي** . ومما لا شك فيه ان الفلاحين سيثبتون انهم قوّة ضخمة في خدمة الثورة ، ولكن الماركسي لا يؤمن عادة انه بامكان حزب فلاحي ان يقود الثورة البرجوازية وان يبادر في تحرير قوى الإنتاج في الأمة من العقبات القديمة الموضوعة في طريقها . إن المدينة هي الكائن

المسيطر على المجتمع الحديث ، والمدينـة فقط هي التي تستطيع ان تلعب دور المسيطر في الثورة البرجوازية.

والآن ، أين هي العناصر الديمقراطية في مدن روسيا القادرة على قيادة الأمة؟ إن الرفيق مارتينوف ينقب عنها منذ مدة وفي يده مجهر . فاكتشف اساتذة في ساراتوف ، ومحامين في بطرسبرغ وعلماء احصاء في موسكو . وكغيره ممـن يشاركونه الرأي ، رفض مارتينوف ان يلاحظ شيئاً واحداً وهو ان البروليتاريا الصناعية قد احتلت نفس المواقع في الثورة الروسية كالتي احتلها الديمقراطيون المعدمون Les sans culottes من الحرفيين وشبه - البروليتاريا في نهاية القرن الثامن عشر . أيهـا الرفاق ، اني الفت انتباهكم الى هـذه الحقيقة الاساسية .

إن الصناعة الواسعة في بـلدنا لم تنبثق بشكل عضوي من نظام الحرف . وتاريخ مدننا الاقتصادي لا يذكر شيئاً عن وجود مرحلة حرفية . فقـد ولدت الصناعة الرأسمالية في بلدنا تحت ضغط سريع ومباشر من رأس المـال الأوروبي ، الذي استولى على أرض بكر وبدائية دون ان تقف في وجهة التقاليد الحرفية. لقد دخل رأس المال الاجنبي الى بلدنا عـبر قنوات القروض التي تطلبها الدولة وعبر انابيب المبادرة الفردية. فجمع حوله جيش البروليتاريا الصناعية وحـال دون نشوء الحرف وتطورها . ونتيجة لهـذه العملية ظهرت فيما بيننا ، إبان الثورة البرجوازية ، بروليتاريا صناعية ذات مستوى مرتفـع من التطور الاجتماعي

تشكل القوة الرئيسية في المدن . هـذه هي الحقيقة . ولا يمكن مناقشتها ويجب اتخاذها اساساً لاستنتاجاتنا التكتيكية الثورية .

إذا كان الرفاق المنشفيك يؤمنون بأن الثـورة ستنتصر ، أو اذا كانوا يعترفون بأن الانتصار محتمل ، إذن لا يجوز لهم ان يشككوا في ان المطالب التاريخي الوحيد بالسلطة الثورية في بـلدنا هي البروليتاريا . فمثلما قـادت العناصر الديمقراطية من البرجوازيـة الصغيرة في المدن الأمة الثائرة ، إبان الثورة الفرنسية العظمى ، كذلك يجب على البروليتاريا ، الطاقـة الديمقراطية الثورية الوحيدة في مدننا ، ان تكسب تأييد الجماهير الفلاحية وان تستولي على الحكم ؛ بدون هذا تفقد الثورة كل امل لها بالانتصار .

ان قيـام حكومة ترتكز بشكل مباشر عـلى البروليتاريا ومن خـلالها على الفلاحين الثوريين لا يعني انها قد اصبحت دكتاتورية اشتراكية . لن اعالج في هذا الصدد التوقعات الأخرى المطروحة امـام الحكومة البروليتارية . من المحتمل ان يكون مصير البروليتاريا هو الفشل ، كما فشلت ديمقراطية اليعاقبة ، لكي تفسح المجال امام حكم البرجوازية . لكني أريـد ان اقول ما يـلي فقط : إذا كانت الحركة الثورية في بلدنا ستنتصر بوصفها حركة عمالية ، كما تنبأ بليخانوف، إذن فانتصار الثورة ممكن فقط عندما يكون انتصار البروليتاريا الثوري ؛ وفيما عدا ذلك فاي انتصار آخر مستحيل كل الاستحالة .

إني اصرّ على هـذا الاستنتاج بعناد . إن الذين يسلـّمون بان التناقضات الاجتماعية بـين البروليتاريا والفلاحين ستمنع الطبقة الأولى من قيادة الطبقة الثانية، وبان البروليتاريا لا تملك بمفردها القوة الكافية لاحراز النصر ؛ إن الذين يسلـّمون بهـذا يجب ان يخلصوا بالضرورة الى ان ثورتنا لا نصيب لها من النجاح . في هذه الحالة ، لا بـد من ان تكون النتيجة الطبيعية للثورة هي الاتفاق بين البرجوازية الليبرالية وسلطات العهد القديم . إن هذا استثناء لا يمكن انـكار احتمال حدوثه . غير انه من الواضح ان هذا الاستثناء يوازي إنهزام الثورة ويتحدد في ضوء صنعها الداخلي . ان **جوهر تحليل المنشفيك، وبخاصة تقييمهم للبروليتاريا ولعلاقاتها الممكنة مع الفلاحين يقودهم حتماً الى طريق التشاؤم الثوري .**

إلا انهم يحيدون دوماً عن هذا الطريق ويوّلدون تفاؤلاً ثورياً مبنياً على الديمقراطية البرجوازية .

على هذا الأساس يبنون موقفهم من حزب الكاديت . فهذا الحزب يجسد بالنسبة اليهم الديمقراطية البرجوازية، والديمقراطية البرجوازية هي المطلب الطبيعي بالسلطة الثورية ...

على أي أساس يبنون اعتقادهم ان الكاديت ما زال حزباً يستطيع ان يقف على رجليه ؟ ترى على حقائق التطور السياسي ؟ كلا ، انكم تبنونها على منهاج خاص بكم . لكي « تتحقق الثورة حتى نهايتها » تحتاجون الى ديمقراطيي برجوازية المدن ، فتبحثون عنهم بشغف ،

غير انكم لا تجدون أحــداً سوى الكاديت . فيتولد لديــكم تفاؤل عجيب تجاههم ، فتبدأون بتحضيرهم ليلعبوا دوراً خلاّقاً ، هذا الدور الذي لا يريدون ولا يستطيعون وسوف لن يلعبوه . اني لم اتلقّ جواباً على سؤالي الأساسي الذي طرحتـه مراراً . إن سياستكم تفتقر الى الاهداف الكبيرة .

وفي هذا الصدد يجب على المؤتمرين ان يتذكروا الكلمات التي صغتم بها موقفكم من الاحزاب البرجوازية: « حسب ما تقتضي الاحوال » . انكم لا تريدون للبروليتاريا ان تخوض نضالاً دؤوباً للتأثير على جماهير الشعب ، ولا ان تحـدد خططها التكتيكية على ضوء فكرة واحـــدة موجهة لتوحد جميع الكادحـــين والمضطهدين لتكون حاملة لوائهم وقائدتهم » .

(محـاضر ومقررات المؤتمر الخـــامس للحزب . الصفحات ١٨٠ — ١٨٥) .

هذا الخطاب الذي يلخص بوضوح وايجاز جميع مقالاتي وخطبي ومواقفي خلال عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦ قد حظي بالتأييد الكامــل من قبل البلاشفة مثلما حظي بتأييــد روزا لوكسمبورغ وتيسيزكو (على أساس هذا الخطاب نشأت فيما بيننا علاقات وثيقة أدت الى مشاركتي في تحرير الصحيفة البولونية التي كانا يصدرانها). إن لينين ، الذي لم يغفر لي موقفي التوفيقي تجــاه المنشفيك ، وكان على حق في ذلك ، تكلم عن خطابي بلهجة تحفظ مقصودة . وهذا ما قاله :

« اريد فقط أن اشير الى ان تروتسكي في كتيبه « دفاعاً عن الحزب » قد أعلن عن تضامنه العلني مــع كاوتسكي الذي كتب عن وحدة المصالح الاقتصاديـة بين البروليتاريا والفلاحين في الثورة الروسية الحالية .

وقد اعترف تروتسكي بامكان نشوء جبهة يسارية ضد البرجوازية الليبرالية وطالب بالاسراع في انشائها. هذه الوقائع تكفيني للاستنتاج بان تروتسكي آخذ في الاقتراب من مفهومنا. **اذا ما استثنينا مسألة «الثورة المستمرة»** يمكن القول اننا متضامنون حول النقاط الاساسية لمسألة العلاقة بالاحزاب البرجوازية » .

(لينين : المؤلفات الكاملة ــ الجزء ٨ ــ ص ٤٠٠ ــ الطبعة الروسية) .

لم يحاول لينين في خطابه هذا أن يقدم تقييماً عاماً لنظرية الثورة الدائمة ، لأني لم ابلور في خطابي التوقعات اللاحقة لدكتاتورية البروليتاريا . ويبدو أنه لم يقرأ بالتأكيد كتابي الأساسي حول هذه المسألة، وإلا لما كان تكلم عن «اقترابي» من مفاهيم البلاشفة وكأنه حدث جديد ، لأن خطابي في لندن لم يكن سوى تكرار موجز لمؤلفاتي في عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦ . لقد تكلم لينين بتحفظ شديد لأني كنت آنذاك خارج الجناح البلشفي. وبالرغم من ذلك ، وبدقة اكثر: بسبب ذلك ، لم تترك كلماته مجالاً للتأويل . لقد أكد لينين على « اننا متضامنون حول النقاط الأساسية للمسألة المتعلقة بالموقف من الفلاحين والبرجوازية الليبرالية . إن هذا التضامن ليس تضامناً مع **أهدافي** ، على حد قول راديك الفظيع ، ولكنه بالتحديد تضامن مع **وسائلي** . أما فيما يتعلق بتوقع نضوج الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية ، فصحيح أن لينين يورد هذا التحفظ : « اذا ما استثنينا مسألة (الثورة المستمرة) » . ما هو معنى هذا التحفظ ؟ من الواضح ان لينين لا يربط مطلقاً بين الثورة الدائمة وبين تجاهل دور الفلاحين أو القفز عن الثورة الزراعية، مثلما يفعل « رجال الصف الثاني » الجهلة والفاقدون للأمانة الفكرية. إن فكرة لينين هي على الشكل الآتي : اني لن أتعرض لمسألة الى أي مدى ستصل الثورة عندنا وما اذا كانت البروليتاريا ستصل الى الحكم في بلدنا قبل وصولها اليه في اوروبا ، وما هو نصيب تحقيق الاشتراكية من النجاح ؛ ومهما يكن من أمر

«فاننا متضامنون» حول المسألة الأساسية المتعلقة بموقف البروليتاريا من الفلاحين ومن البرجوازية الليبرالية .

لقد شاهدنا في مكان سابق كيف كانت ردة فعل صحيفة البلاشفة « الحيـاة الجديدة » لنظرية الثورة الدائمة عند ولادتها أي في عام ١٩٠٥ . فلنقرأ الآن ماذا يقول ناشرو « مؤلفات لينين الكاملة » عن هـذه النظرية بعد عام ١٩١٧ . ففي الملاحظات الملحقة بالمجلد ١٤ ، الجزء الثاني ، ص ٤٨١ ، ورد ما يلي :

> « حتى قبيل ثورة عـام ١٩٠٥ تقدم (تروتسكي) بنظرية أصيلة **يجدر الانتباه لها الآن** بشكل خاص هي نظرية الثورة الدائمة يؤكد فيها أن **ثورة عـام ١٩٠٥ البرجوازية سوف تنتقل مباشرة الى ثورة اشتراكية** فتكون بذلك الحلقة الاولى في سلسلة من الثورات على الصعيد الوطني » .

اني اسلم القول بان هذا ليس باي حال من الاحوال اعترافاً بصحة مـا كتبته عن الثورة الدائمة . غير انه اعتراف بعدم صحة ما يكتبه راديك عنها. « ان الثورة **البرجوازية** ستنتقل مباشرة الى ثورة اشتراكية » – هذه هي نظريـة **نضوج الثورة** الى ثورة اشتراكية وليست نظرية «القفز عن المرحلة الديمقراطية الى الاشتراكيـة » ، والخطة التكتيكية المنبثقة عنها هي خطة واقعية وليست خطة انتحارية . وما هو معنى « النظرية ... **التي يجدر الانتباه لها الآن بشكل خاص** هي نظرية الثورة الدائمة » ؟ انه يعني أن ثورة اكتوبر قـد القت ضوءاً جديداً على تلـك الأوجه من الثورة الدائمة التي كانت مظلمة في السابق بالنسبة للكثيرين أو انها بدت « غير متوقعة » بالنسبة لهم . لقـد صدر الجزء الثاني من المجلد ١٤ من مؤلفات لينين الكاملة بينما كان مؤلفها ما يزال على قيد الحياة . وقد قرأ هذه الملاحظة الالوف بل عشرات الالوف من الأعضاء الحزبيـين . ولم يعلن اي منهم انها غير صحيحة حتى عام ١٩٢٤ . وقد فطن راديك اليها عام ١٩٢٨ فقط .

ولكن ما دام راديك لا يقتصر في حديثه على النظرية بل يتعداها الى الخطة التكتيكية ، فأهم حجة توجد ضده هي طبيعة اشتراكي العملي في ثورتي ١٩٠٥ و ١٩١٧ . ان عملي في سوفييت بطرسبرغ عام ١٩٠٥ ينسجم مع تبلور ذلك القسم من الرأي الذي يتعلق بطبيعة الثورة التي شن عليها رجال الصف الثاني هجومهم كله . فكيف يمكن الا يكون لهذه الآراء التي يعتبرونها مغلوطة اي انعكاس على نشاطي السياسي باي شكل الذي كنت أمارسه على مرأى من الجميع والذي كانت الصحف تكتب عنه يومياً ؟ ولكن اذا اعتبرنا ان نظرية مغلوطة كهذه قد انعكست على سياستي ، إذن ، لماذا لازم المسيطرون الحاليون على الحزب والحكم جانب الصمت في ذلك الحين ؟ وما قد يكون أهم من ذلك : لماذا دافع لينين في ذلك الحين بحماس بالغ عن الخط الذي كان يسلكه سوفييت بطرسبرغ سواء خلال ذروة انتصار الثورة ام بعد انهزامها ؟

إن الأسئلة ذاتها ، ولكن بشكل أكثر حدة ، يمكن طرحها بشأن ثورة عام ١٩١٧ . في عدة مقالات كتبتها في نيويورك ، قيمت ثورة شباط من وجهة نظر نظرية الثورة الدائمة . لقد أعيد طبع جميع هذه المقالات الآن . وكانت الاستنتاجات التكتيكية التي خلصت اليها على انسجام تام مع الاستنتاجات التي خلص اليها لينين في الوقت ذاته في جينيف ، وكانت بالتالي على تضاد مع استنتاجات كامنييف وستالين و« رجال الصف الثاني » الآخرين . وعندما وصلت بتروغراد ، لم يسألني أحد اذا كنت قد تخليت عن« اخطائي » في الثورة الدائمة . وفي الواقع لم يكن هنالك أحد ليسأل : فقد كان ستالين منكفئاً على ذاته بارتباك ينتقل من زاوية لأخرى تجيش في نفسه رغبة واحدة هي أن ينسى الحزب باسرع وقت ممكن السياسة التي كان يدعو اليها الى حين وصول لينين. ولم يكن ياروسلافسكي قد احتل بعد منصب الموّجه « للجنة المراقبة » ، فقد كان يتعاون مع المنشفيك ومع اوردجو نيكيدج وآخرين على اصدار وريقة شبه ليبرالية تافهة في « ياكوتسك » . **أما كامينيف فقد اتهم لينين بالتروتسكية وقال لي عندما قابلني : « بامكانك الآن ان تسخر منا ما شئت ذلك »** . عشية ثورة

اكتوبر كتبت في الصحيفة الرسمية للحزب البلشفي عن توقع الثورة الدائمة . ولم يخطر ببال أحد ان يتصدى لي . كان تضامني مع لينين قد غدا تضامناً كاملاً بلا قيد أو شرط . فماذا يريد راديك والنقاد الآخرون أن يقولوا ؟ هل يريدون أن يقولوا إني فشلت فشلاً تاماً في فهم النظرية التي كنت أدعو اليها ، واني تصرفت في أخطر مرحلة منالتاريخ بشكل مغاير لهذه النظرية وكنت على حق في ذلك؟ اليس من الأسهل ان نسلم بان نقادي قد فشلوا في فهم الثورة الدائمة مثلما فشلوا في فهم قضايا أخرى غيرها ؟ فـــاذا سلمنا بان هؤلاء النقاد الذين جاؤوا في مؤخرة الركب مؤهلين لتحليل أفكارهم وأفكار غيرهم، كيف نفسر إذن الموقف المخجل الذي اتخـــذه جميعهم في ثورة ١٩١٧ او موقفهم من الثورة الصينية الذي وصمهم بوصمة عار أبدية ؟

وعلى كل حال ، فقد يتذكر القـــارىء فجأة : ولكن ماذا بشأن شعـــارك التكتيكي البالغ الأهمية ؛ « لا قيصرية بل حكومة عمالية ؟ »

ان بعض الأوساط تعتبر ان هذه الحجة حجة حاسمة . ان الحديث عن شعار تروتسكي الشنيـع « لا قيصرية ! » يتخلل كتابات جميـع نقـــاد الثورة الدائمة ؛ فالبعض يعتبره الحجة الهامة والحاسمة والنهائية ، اما بالنسبة للبعض الآخر فانه مرفأ أمين تستريح عنده العقول المرهقة .

هذا النقد يصل إلى أعمق أعماقه طبعاً عند « سيد » الجهل والغدر عندمـــا يقول في مؤلفه الذي لا يضاهى « قضايا اللينينية » ما يلي :

« لن نتوقف طويلاً عند موقف الرفيق تروتسكي في عام ١٩٠٥ عندما نسي « ببساطة » كل ما يتعلق بالفلاحين كقوة ثورية وطرح شعار « لاقيصرية بـــل حكومة عمالية »أي شعار الثورة بمعزل عن الفلاحين» .

(ستالين : قضايا اللينينية – ص ١٧٤ – ١٧٥ – الطبعة الروسية) .

بالرغم من وضعي الذي يكاد يكون عاجزاً في وجه هذا النقد الكاسح الذي لا يريد ان « يمكث طويلاً »، ساحاول الاستنجاد ببعض الظروف المخففة . هاك بعضاً منها فأرجو الاستماع اليها .

حتى لو كانت احدى المقالات التي كتبتها عام ١٩٠٥ تحوي شعاراً معزولاً مبهماً او غير ملائم قد يفسح المجال أمام التأويل ، لا يجب النظر اليه الآن بعد ثلاثة وعشرين عاماً بمفرده بل يجب ان يوضع ضمن اطاره إلى جانب كتاباتي الأخرى حول الموضوع نفسه ، ويجب وضعه في اطاره إلى جانب مشاركتي السياسية في الأحداث ، وهذا ما هو أهم من أي شيء آخر . فلا يجوز ان يعطى القراء فقط عنوان كتاب يجهلونه (بقدر ما يجهله النقاد أنفسهم) وان يضفى على هذا العنوان معنى يتناقض تماماً مع كل كتاباتي وتصرفاتي .

لن أكون هادراً للوقت ، أيا نقادي ، إذا قلت لكم إني لم أكتب ولم أقل ولم أقترح شعاراً كهذا الشعار : « لا قيصرية بل حكومة عمالية ! » في اي مكان أو أي زمان . ففي أساس الحجة الرئيسية التي يوجهها لي هؤلاء الذين يقاضونني يكمن خطأ فادح في المعلومات ، الى جانب أشياء أخرى . إن حقيقة الأمر هي أن بارفوس قد كتب ونشر في الخارج بياناً بعنوان « لا قيصرية بل حكومة عمالية » في صيف عام ١٩٠٥ . كنت يومذاك أعيش متخفياً في بطرسبرغ ، ولم يكن لي أية علاقة ، من بعيد أو قريب ، بهذا البيان فكراً أو عملاً . وقد علمت بوجوده فيما بعد من خلال المقالات السجالية التي دارت حوله . ولم تسنح لي الفرصة ولا الظرف الملائم لأعبر عن رأيي فيه . أما فيما يتعلق بالبيان ذاته فإني لم أره ولم أقرأه قط (وهذا هو حال جميع نقادي أيضاً) . هذه هي الحقيقة في هذه القضية الفظيعة . إني آسف لحرماني أمثال ثالمان وسيمار من هذه الحجة التي يسهل استعمالها والاقناع بها . ولكن الحقائق أقوى من مشاعري الانسانية .

وليس هذا كل ما في الأمر . فالصدفة قد جمعت الأحداث الى بعضها بحيث إني كتبت منشوراً وزع سراً في بطرسبرغ بعنوان « لا القيصر ولا

الزيمتزي[1] ، بل الشعب ! » في نفس الوقت الذي نشر فيه بارفوس بيانه الذي أجهله : « لا قيصرية بل حكومة عمالية » . إن عنوان « لا قيصر ولا الزيمتزي ، بل الشعب » الذي يرد مراراً في نص المنشور بوصفه شعاراً يشمل العمال والفلاحين لهو خير حجة مكتوبة بلهجة شعبية تدحض الادعاءات اللاحقة حول قفزي عن المرحلة الديموقراطية للثورة . إن المنشور يوجد في « مؤلفات تروتسكي الكاملة » (المجلد ٢ ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦) . الى جانب ذلك توجد النداءات التي كتبتها والتي طبعتها اللجنة المركزية لحزب البلاشقة الموجهة لهؤلاء الفلاحين الذين « نسيتهم ببساطة » على حد تعبير ستالين الذكي[2] .

---

١ – الزيمتزي هم أعضاء أجهزة الحكم الذاتي المحلية المسماة « زيمتسوفا » التي أنشئت في أواخر الحكم القيصري وكانت ذات صلاحيات محدودة يسيطر عليها الاشراف الليبراليون .
(المترجم الإنكليزي)

٢ – كتب تروتسكي هذه النداءات بعد عودته الى روسيا في شباط ١٩٠٥ وكان كراسين ، أحد القادة البلاشفة ، هو الذي تولّى نشرها بإمضاء اللجنة المركزية . لضيق المجال ، سنكتفي بنشر مقطع من نداء رائع وجهه تروتسكي الى الفلاحين يقصّ فيه عليهم قصة « يوم الأحد الدموي » . في ٢٣ كانون الأول عام ١٩٠٥ سار عمال بطرسبرغ في تظاهرة سلمية كبيرة الى « القصر الشتوي » ليعرضوا على القيصر مظالمهم وكان على رأسهم راهب يدعى الأب غابون . فرفض القيصر استقبال وفد من العمال وأمر جنود حامية القصر بإطلاق النار على المتظاهرين . فكانت مجزرة قتل فيها المئات من الأبرياء . هذا ما يقوله تروتسكي في ندائه المنشور في صحيفة البلاشفة « الشرارة » العدد ٩ في ٣ آذار ١٩٠٥ :

« ماذا فعل القيصر ؟ كيف ردّ على كادحي سان بطرسبرغ ؟
اسمعوا ، اسمعوا ، أيها الفلاحون ...
هكذا تكلم القيصر مع شعبه .
استنفر جميع وحدات الجيش في بطرسبرغ...هكذا كان القيصر يتهيأ للحديث مع اتباعه...
وسار مئتا ألف عامل باتجاه القصر .
كانوا يرتدون أجمل ثياب يوم الأحد ، شيباً وشبّاناً ، وجاءت الزوجات مع أزواجهن .
وكان الآباء والأمهات يقودون أطفالهم بأيديهم . هكذا ذهب الشعب الى قيصره .
اسمعوا ، اسمعوا ، ايها الفلاحون !
ولتنحفر كل كلمة في قلوبكم .
وملأ الجنود جميع الشوارع والساحات التي كان سيمرّ منها العمال المسالمون ... =

ولكن هذا أيضاً ليس كل ما في الأمر . منذ زمن ليس ببعيد ، كتب أحد قادة ومفكري الثورة الصينية ، السيد « رافيس » المحترم ، عن الشعار الشنيع ذاته الذي طرحه تروتسكي **في عام ١٩١٧** على صفحات المجلة الفكرية الناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي . لم يتكلم رافيس عن عام ١٩٠٥ بل عن عام ١٩١٧ ! على كل حال ، فإن رافيس المنشفيكي معذور بعض الشيء ، فحتى عام ١٩٢٠ كان ما يزال وزيراً في حكومة بتليورا ، فكيف له وهو يرزح تحت ثقل مسؤوليات الصراع ضد البلاشفة أن يراقب ماذا يجري في معسكر ثورة اكتوبر ! ولكن كيف تسمح لجنة تحرير المجلة الناطقة باسم اللجنة المركزية بنشر مثل هذا الهراء ؟ إن هذا لأمر عجيب . إنها حماقة جديدة ليس إلا ...

= واستجدى العمال : « دعونا ندخل الى القيصر ! »
وركع الكهول .
واستجدت النساء والأطفال ... استجدوا :
« دعونا ندخل الى القيصر ! »
وثم حدث ما حدث !
انطلقت البنادق بدوي كقصف الرعد ، واصطبغ الثلج بدم العمال الأحمر .
أخبروا الجميع ، جماعات وافراداً ، كيف عامل القيصر كادحي سان بطرسبرغ !
وتذكروا ، يا فلاحي روسيا ، كيف كان كل قيصر روسي يردّد باعتزاز : « في بلدي أ رجل القصر الأول والإقطاعي الأول . »
لقد حوّل القياصرة الروس الفلاحين الى طبقة من الأرقاء وأهدوهم الى خدامهم المخلصين مثلما تهدى الكلاب .
أيها الفلاحون ، قولوا في جلساتكم للجنود ، أبناء الشعب الذين يعيشون على مال الشعب ، انهم لن يجسروا على أن يطلقوا النار على الشعب . »
بهذه الكلمات البسيطة المنغمة على ايقاع أغنية شعبية سلافية يسيطر تروتسكي على مخيّلة الفلاح الفقير ، ويشرح له أهداف حزبه وأساليبه . وفي الختام يفسر عبارة « الثورة » الغريبة عن اللغة الروسية على هذا الشكل :
« أيها الفلاحون ، فلتندلع هذه النار في روسيا كلها في آن واحد . فلن تتمكن أية قوة من إخمادها . إن هذا الحريق الذي يشمل الوطن بأسره هو الثورة . »
(عن كتاب « النبي المسلّح » لاسحق دويتشر ص ١٢٢ - ١٢٣) . (المترجم)

وقد يعترض قارىء تثقف على حثالة هذه السنوات الاخيرة : « ولكن كيف يمكن أن يحصل ذلك ؟ ألم يعلمونا في مئات وآلاف الكتب والمقالات ...؟ »

« أجل ، أيها الاصدقاء ، هذا ما علموكم إياه ؛ ولهذا السبب عليكم أن تتعلموا من جديد . تلك هي النفقات الباهظة التي تفرضها علينا حقبة الردّة . ذلك هو السبيل الوحيد . فالتاريخ لا يسير في خط مستقيم . وهو قد تعثر حالياً في متاهات ستالين . »

٥ - هل تحققت « الدكتاتورية الديمقراطية » في بلدنا، ومتى ؟

يستنجد راديك بلينين مدّعياً ان الدكتاتورية الديمقراطية قد تحققت في بلدنا على شكل السلطة المزدوجة ، اجل ، اني اعترف ان لينين قد طرح السؤال على هذا الشكل احياناً وبشروط . « احياناً ؟ » يحتج راديك ويتهمني بالتهجم على احدى أفكار لينين الاساسية . غير ان راديك يغضب لانه على خطأ ليس إلا . ففي كتابي « دروس اكتوبر » الذي ينقده راديك بدوره بعد تأخير ما يقارب الأربع سنوات ، فسّرتُ كلمات لينين عن « تحقيق » الدكتاتورية الديمقراطية على النحو التالي :

> « ان تحالف العمال والفلاحين يتخذ شكلاً غير ناضج من أشكال السلطة العاجزة عن بلوغ السلطة الحقيقية ؛ انه يتخذ شكلاً كاتجاه فقط وليس كواقع محدّد » .
>
> (ليون تروتسكي : « المؤلفات الكاملة » — المجلد ٣ — الجزء الأول — ص ٢١ — الطبعة الروسية) .

وقد كتب راديك بصدد هذا التفسير :

> « إن هذا التفسير لمضمون احد اروع الفصول النظرية في مؤلفات لينين **لا يساوي شيئاً البتة** ».

ويعقب هذه الكلمات نـداء يستدر العطف على التقاليد البلشفية ثم تـأتي الخاتمة أخيراً :

« إن هذه القضايا من الأهمية البالغة بحيث لا يمكن
الاجابة عليها بالاشارة إلى ما كان يقوله لينين **أحياناً** »

ويريـد راديك بهذا ان يوحي اني اعالج باستخفاف « احدى أروع » أفـكار لينين . الا ان راديك يهدر استنكاره وغيظه بدون سبب . ان قليلاً من التفهـم يفيده اكثر هنا . ان ما عرضته في « دروس اكتوبر » ، رغم ابتساره، لا يعتمد على وحي مفاجيء هبطت به نصوص ليست مـأخوذة عن مصادرها الأصلية ، وانما يعتمد على دراسة أصلية مستفيضة لكتابات لينين . انها تستخرج جـوهر فكرة لينين حول هذه المسألة ، في حين لا يحتفظ عرض راديـك اللفظي بمقطع حيّ واحد من فكر لينين رغم غزارة الاستشهادات فيه .

لماذا استعملت هذا التحفظ : « أحياناً » ؟ لأن الأمر كان كذلك. لقد أشار لينين الى أن الدكتاتورية الديمقراطية قد « تحققت » على شكل السلطة المزدوجة (« بشكل معين والى حدٍ مـا ») في الفترة بين نيسان واكتوبر عام ۱۹۱۷ ، **أي قبل ان تتحقق الثورة الديمقراطية فعلياً** . إن راديك لم يلاحظ هذا الأمر ولم يفهمه ولا تقيّيمه . وفي معرض صراعه ضد رجال الصف الثـاني الحاليين ، تكلم لينين بشكل جد مشروط عن« تحقيق » الدكتاتورية الديمقراطية[1]. وهو لم يفعل ذلك ليقدّم وصفاً تاريخياً لحقبة السلطة المزدوجة ، فلو فعل ذلك على هذا الشكل لبدا الأمر سخيفاً ، ولكن ليردّ على اولئك الذين يتوقعون طبعة منقحة ثانية عن الدكتاتورية الديمقراطية المستقلة . إن كلمات لينين قد عنت فقط انه لم يوجد ولن يوجد دكتاتورية ديمقراطية خارج عمليـة إجهاض السلطة المزدوجة البائسة وأن هذا هو السبب الذي يدعو الى « اعادة تسليح » الحزب اي الى تغيير الشعار. أما الادعاء أن تحالف المنشفيك والاشتراكيين –الثوريين مع البرجوازية،

---

١ – راجع لينين « اطروحات نيسان » – ۱۹۱۷ – ص ١٤ والصفحات التي تليهـا . (الطبعة الفرنسية – موسكو) . (المترجم)

الذي رفض إعطاء الارض للفلاحين واضطهد البلاشفة ، هو « تحقيق » للشعار البلشفي ؛ فهو يعني إما أن نعمد عن قصد الى تسمية الأبيض أسود وإما ان نكون قد فقدنا عقولنا .

وفيما يتعلق بالمنشفيك ، بالامكان ان نردّ عليهم بحجة مشابهة لتلك التي يردّ بها لينين على كامنييف : « هل تنتظر من البرجوازية ان تضطلع بتحقيق رسالة « تقدمية » في الثورة؟ لقد سبق لهذه الرسالة ان تحققت : فالدور السياسي الذي لعبه رودزيانكو وغوشكوف ومليوكوف هو أقصى ما تستطيع البرجوازية أن تقدمه ، كما ان الكرنسكية هي الحد الأقصى من الثورة الديمقراطية الذي يمكن تحقيقه في طور مستقل » .

إن السمات الشِرَاحيــة (Anatomical)[1] التي لا تخطيء — الترسبات — تبيّن أن اجدادنا كان لهم ذيل . وهذه السمات كافية للتأكيد على وحدة العالم الحيواني التكوينية (Genestic) . ولكن فلنقل بسلامة نية أن لا ذيل للانسان. لقد اظهر لينين لكامنييف ترسبات الدكتاتورية الديمقراطيــة في نظام السلطة المزدوجة محذّراً إياه من انه لا أمل بنمو عضو جديد من هــذه الترسبات . ولم تتحقق عندنا دكتاتورية ديمقراطية مستقلة،رغم اننا قد انجزنا الثورة الديمقراطية بطريقة أعمق وأعند وأصفى من جميع الثورات الأخرى.

يتوجب على راديك ان يتأمل هذه الحقيقة : لو أن الدكتاتورية الديمقراطية قد تحقت **فعلاً** في الفترة ما بين شباط ونيسان لكان حتى مولوتوف اعترف بها . لقد فهم الحزب والطبقة الدكتاتورية الديمقراطية على انها نظام حكم يحطم بــلا هوادة آلة الدولة القديمة التابعة للملكية ويصفي نهائياً نظام ملكيات الأرض . ولكن لم يكن ثمة من أثر لهذا في فترة حكم كرنسكي. وكان الأمر بالنسبة للحزب **البلشفي يتعلق بالتحقيق الفعلي للمهام الثورية** ولم يكن يتعلق بتبيــان بعض « الترسبات » السوسيولوجية والتاريخية . وفي سعيه لتنوير خصومه نظرياً ،

---

١ — الشراحة anatomy علم يبحث في تركيب بناء الانسان العضوي وأجزائه — مرجع العلايلي .   (المترجم)

أبرز لينين ببراعة هذه السمات التي لم تبلغ مرحلة النضوج ، وكان هذا كل ما فعله في هذا الصدد . إلا أن راديك يسعى بكل جدية لاقناعنا ان « الدكتاتورية » كانت موجودة في فترة السلطة المزدوجة ، أي في فترة انعدام السلطة ، وان الثورة الديمقراطية قد تحققت . على انها كانت « ثورة ديمقراطية » كما نرى بحيث كانت بحاجة الى كل عبقرية لينين للتعرّف اليها . ولكن هذا هو ما يثبت انها لم تتحقق . إن الثورة الديمقراطية الحقيقية هي ثورة يسهل على كل فلاح أمي في روسيا أو الصين أن يتعرف اليها . أما فيما يتعلق بالسمات المورفولوجية (Morphological)[1] ، فالأمر يزداد صعوبة . فمثلاً ، يستحيل على راديك ، رغم العبرة من حادثة كامنييف في روسيا ، أن يلاحظ أن الدكتاتورية الديمقراطية قد « تحققت » في الصين أيضاً بالمعنى الذي يستعمله لينين (خلال الكيومنتانغ) ؛ وانها قد تحققت بشكل اكمل وأجلى مما كان الحال في بلدنا خلال وجود السلطة المزدوجة . إن السذّج البائسين هم وحدهم الذين يتوقعون طبعة منقحة ثانية عن « الديمقراطية » في الصين .

لو ان الدكتاتورية الديمقراطية قد تحققت فقط في بلدنا على شكل الكرنسكية ، التي لعبت دور أجير للويد جورج وكليمانصو ، إذن لكان علينا أن نقول إن التاريخ يهزأ من شعار البلاشفة الستراتيجي . ليس الأمر كذلك لحسن الحظ . لقد تحقق شعار البلاشفة فعلاً كحقيقة تاريخية عظيمة وليس كسمة مورفولوجية. إلا انه لم يتحقق **قبل اكتوبر** وإنما **بعده** . إن حرب الفلاحين ، على حد تعبير ماركس ، قد دعمت دكتاتورية البروليتاريا. ولقد تحقق تعاون الطبقتين على نطاق واسع خلال اكتوبر . وفي ذلك الحين استوعب كل فلاح جاهل وشعر أن الشعار البلشفي قد أصبح حياً ، حتى بدون الاستعانة لشروحات لينين. ولقد اعتبر لينين أن الطور الاول من ثورة اكتوبر هو التحقيق **الحقيقي** للثورة الديمقراطية ، وان هذه الثورة هي التجسيد الفعلي ، وإن يكن قد طرأ عليه تغيير ، لشعار البلاشفة . يجب النظر الى لينين **ككل**. وبخاصة لينين ما بعد اكتوبر

---

١ – المورفولوجيا علم الشكل الخارجي للكائنات الحية . (المترجم)

عندما كان يراقب الاحداث ويقيمها من موقع أفضل . واخيراً ، يجب النظر الى لينين من وجهة نظر لينينية وليس من وجهة نظر رجال الصف الثاني .

لقد تعرض لينين لمسألة الطابع الطبقي للثورة « ولنضوجها » في كتابه ضد كاوتسكي (بعد ثورة اكتوبر) . وفيما يلي أحد مقاطع هذا الكتاب الذي يجب على راديك ان يتمعّن فيه بعض الشيء :

« أجل ، إن ثورتنا [ثورة اكتوبر] هي ثورة برجوازية **ما دمنا** نسير جنباً الى جنب مع الفلاحين **ككل** . إن هذا أمر في غاية الوضوح بالنسبة الينا ، ولقد رددناه مئات وآلاف المرات منذ عام ١٩٠٥ فلم نحاول ان نقفز عن الطور الضروري في العملية التاريخية ولا ان نلغيه بالمراسيم » .

ويقول فيما بعد :

« لقد سارت الأمور مثلما توقعنا لها ان تسير . ولقد اكدّت مسيرة الثورة صحة تفكيرنا . **في البدء** : مع الفلاحين « ككل » ضد الملكية ، ملاّك الأرض ، والنظام الموروث عن القرون الوسطى (الى هذا المدى تبقى الثورة ثورة برجوازية وثورة برجوازية ديمقراطية) . ثم مع الفلاحين الفقراء ومع اشباه البروليتاريين ومع جميع المضطهدين **ضد الرأسماليين** بما فيهم اغنياء الريف والكولاك والمرابون ، والى هذا المدى تصبح الثورة ثورة **اشتراكية** » .

(لينين : « المؤلفات الكاملة » — المجلد ١٥ — ص ٥٠٨ — الطبعة الروسية) .

هكذا كان لينين يتكلم ، ليس « احياناً » بل **دائماً** وابداً عندما قدّم تقييمه الكامل العام الممتاز للثورة بشكل عام ولثورة اكتوبر بشكل خاص . «لقد

سارت الأمور مثلما توقعنا لها ان تسير » . لقد تحققت الثورة الديمقراطية – البرجوازية كتحالف يضم العمال والفلاحين . خلال فترة كرنسكي ؟ كلا ، **خلال الفترة الأولى بعد اكتوبر** . أصحيح هذا ؟ نعم انه صحيح . ولكننا نعلم الآن انه لم يتحقق على شكل دكتاتورية ديمقراطية وإنما على شكل دكتاتورية البروليتاريا . بهذا تختفي أيضاً الحاجة الى المعادلة الجبرية القديمة .

إذا وضعنا نقاش لينين المشروط ضد كامنييف عام ١٩١٧ الى جانب وصف لينين الشامل لثورة اكتوبر في السنوات التي تلتها ، وفعلنا هذا بطريقة غير نقدية ، ينتج عن ذلك ان الثورتين الديمقراطيتين قد تحققتا في روسيا . إن هذا لأمر فظيع خاصة وان انتفاضة البروليتاريا المسلحة تفصل بين الثورة الأولى والثورة الثانية .

والآن فلنقارن بين المقطع الذي استشهدنا به لتوّه من كتاب لينين . « ثورة البروليتاريا والمرتدكاوتسكي » وبين هذا المقطع من الفصل عن « نظام حكم البروليتاريا » في مقالتي « نتائج وتوّقعات » حيث عرضت الطور الأول من الدكتاتورية وتوقعات تطورها اللاحق :

« سيلقى إلغاء الاقطاع تأييد الفلاحين **ككل** لكونهم الطائفة المظلومة . وستلقى الضريبة التصاعدية كذلك تأييد غالبية الفلاحين الساحقة . غير ان أي تشريع يهدف الى حماية البروليتاريا الزراعية لن يفشل في اكتساب التأييد الحيّ للاغلبية فحسب ، ولكنه سيجابه بمعارضة حيوية من طرف اقلية من الفلاحين أيضاً .

وستجد البروليتاريا نفسها مجبرة على نقل الصراع الطبقي الى القرى فتحطم بذلك وحدة المصالح الموجودة ، ولا شك ، بين جميع الفلاحين رغم كونها محصورة في نطاق ضيّق . ومنذ اللحظة الأولى

لاستلامها الحكم ، يتوجب على البروليتاريا ان تجد دعماً لها في التناقضات بين فقراء القرية واغنيائها ، وبين البروليتاريا الزراعية والبرجوازية الزراعية » .

(ليون تروتسكي : « ثورتنا » ١٩٠٦ -ص٢٥٥- الطبعة الروسية) .

ما ابعد ذلك عن « تجاهلي » للفلاحين ، وما ابعده عن « التناقض » التام بين موقفين : موقفي وموقف لينين !

ليس المقطع الذي استشهدنا به اعلاه المقطع الوحيد في مؤلفات لينين . بل على العكس من ذلك،فكما هو الحال دوماً بالنسبة للينين ، تصبح الصيغة الجديدة التي تنفذ بشكل أعمق الى الاحداث محوراً لخطبه ولمقالاته خلال مرحلة بكاملها. ففي آذار من عام ١٩١٩ قال لينين :

« في اكتوبر ١٩١٧ ، استلمنا الحكم **بالتعاون مع الفلاحين ككل** . كانت تلك ثورة برجوازية الى مدى مـا كان الصراع الطبقي في المناطق الريفية لم يتطور بعد » .

(لينين : « المؤلفات الكاملة » - المجلد ١٥ - ص ١٤٣ - الطبعة الروسية) .

وفيما يلي ما قاله لينين في مؤتمر الحزب في آذار عام ١٩١٩ :

« لقد ظلت ثورتنا ثورة **برجوازية** الى حد بعيد حتى صيف عام ١٩١٨ أو بالأحرى حتى خريف ذلك العام عندما تمّ تنظيم « لجان الفلاحين الفقراء » ، ذلك لأننا كنا في بلد اضطرت فيه البروليتاريا الى استلام الحكم بمساعدة الفلاحين وحيث قيّض لها ان تكون واسطة قيام الثورة البرجوازية الصغيرة » .

(لينين : « المؤلفات الكاملة » - المجلد ١٦ -

صفحة ١٠٥ – الطبعة الروسية) .

لقد ردّد لينين هذه الكلمات في مناسبات مختلفة وباشكال متنوعة . إلا أن راديك يتهرّب ببساطة من فكرة لينين الرئيسية هذه التي تلعب دوراً حاسماً في المساجلة .

يقول لينين ان البروليتاريا قد استلمت الحكم في اكتوبر بالتعاون مع الفلاحين. وبهذا وحده كانت الثورة ثورة برجوازية. هل هذا القول صحيح ؟ انه صحيح إلى حدٍ ما . غير ان هذا يعني ان دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية **الحقيقية** اي تلك التي حطّمت بالفعل نظام الحكم الفردي والرق وانتزعت الارض من الاقطاعيين قد تحققت **بعد** اكتوبر وليس **قبله** ؛ لقد **تحققت** ، على حد تعبير ماركس ، على شكل **ذكتاتورية البروليتاريا التي تدعمها الحرب الفلاحية** ثم بدأت بالنضوج إلى دكتاتورية اشتراكية بعد بضعة أشهر . هل من الصعب فهم **هذا** حقاً ؟ وهل يمكن ان تستمر الخلافات في الرأي حول هذه النقطة **الى اليوم** ؟ .

يعتبر راديك ان النظرية « الدائمة » تزني إذ تخلط الطور البرجوازي بالطور الاشتراكي . في الواقع خلطت القوى الطبقية الدافعة بشكل كامل بين هذين الطورين ، اي انها قد **مزجتهما** بحيث لم يعد باستطاعة هذا الغبيي السيىء الحظ ان يهتدي الى خيوط كلٍ منها .

من المؤكد ان « نتائج وتوقعات » تحتوي على عدة فجوات وعلى عدة أقوال خاطئة . ولكن لا يجب ان ننسى ان هذا الكتاب لم يكتب عام ١٩٢٨ ، لقد كتب قبل ثورة اكتوبر بمدة طويلة اي قبل تشرين الأول عام ١٩٠٥. ان راديك لا يتعرض مطلقاً لمسألة الفجوات في نظرية الثورة الدائمة وإذا ابتغينا المزيد من الدقة لقلنا انه لم يتعرض لمناقشاتي الأساسية دفاعاً عن هذه النظرية في ذلك الحين ؛ انه يسير على خطى اساتذته ، رجال الصف الثاني ، فلا يهاجم الفجوات وانما يهاجم الجوانب المنيعة من هذه النظرية ، تلك التي اثبت سير التطور التاريخي صحتها ، وهو يهاجمها باسم استنتاجات جد مغلوطة يستنبطها من صيغ

لينين الذي لم يدرسه راديك الدراسة الكافية ولا نفذ الى اعماق فكره .

ان اللعب بالنصوص القديمة هو من عادات مدرسة رجال الصف الثاني كلها ، تقوم به على صعيد خاص لا يتقاطع مطلقاً مع العملية التاريخية الحقيقية . ولكن عندما ينشغل خصوم « الترتسكية » بتحليل التطور الحقيقي لثورة اكتوبر وعندما ينشغلون بهذا التحليل بجدية ودأب، الأمر الذي يحدث لهم بين الحين والآخر ، نجد انهم يصلون حتماً إلى صيغ مستوحاة من روح النظرية التي يرفضون . إن مؤلفات أ . ياكوفليف المكرسة لتاريخ الثورة الروسية لهي مثال واضح على هذا . إن هذا المؤلف ، الذي هو حالياً عضو في الزمرة الحاكمة والذي هو على قدر أكبر من الثقافة من الستالينيين الآخرين ومن ستالين نفسه ، يصوغ العلاقات الطبقية في روسيا القديمة على هذاالشكل[1] :

« نلاحظ محدودية مزدوجة في انتفاضة الفلاحين (آذار إلى تشرين الاول عام ١٩١٧) . وعندما ارتقت الانتفاضة إلى مستوى الحرب الفلاحية ، لم تتمكن من التغلب على محدوديتها ، ولم تتجاوز مهمتها العاجلة تحطيم مالك الارض المجاور ؛ ولم تتحول الى حركة ثورية منظمة ؛ ولم تتخطّ طابع الفورة العفوية التي تميّز الحركة الفلاحية . »

إذا أخذنا الانتفاضة الفلاحية بمفردها ، اي بوصفها فورة عفوية تقتصر في هدفها على إفناء مالك الارض المجاور ، نجد أنها لا يمكن أن تنتصر ولا يمكن أن تحطم سلطة الدولة المعادية للفلاحين والتي تدعم مالك الارض . ولهذا السبب لا يمكن للحركة الزراعية ان تحرز النصر إلا إذا قادتها طبقة مماثلة لها في المدن...

١ ـ لقد عيّن ياكوفليف مؤخراً مفوضاً للشعب لشؤون الزراعة في الاتحاد السوفييتي . (ل . ت .) .

لهذا السبب ، نجـــد في التحليل الاخير ان عشرات الآلاف في القرى لم تكن هي التي قررت مصير الثورة الزراعية وإنما قررته المئات في المدن . إن الطبقة العاملة ، التي كانت توّجه الضربة القاضية للبرجوازية في مراكز البلد، هي التي كانت تستطيع تحقيق انتصار الانتفاضة الفلاحية ؛ إن انتصار الطبقـــة العاملة في المدينة هو وحده الذي يستطيع انتزاع الحركة الفلاحية من نطاق اصطدام عفوي بـــين عشرات الملايين من الفلاحين وبـــين عشرات الآلاف من مالكي الارض ؛ وأخيراً فإن انتصار الثورة هو وحده الذي يستطيع أن يرسي قواعد نمط جديـد من التنظيم الفلاحي الذي يوّحد الفلاحين الفقراء والمتوسطين مـع الطبقة العاملة وليس مع البرجوازية . لقـــد كانت مشكلة انتصار الانتفاضة الفلاحية هي مشكلة انتصار الطبقة العـاملة في المدن .

وعندما وجّـه العمال الضربة القاضية للبرجوازية في أكتوبر ، حلـّوا بذلك مشكلة انتصار الانتفاضـة الفلاحية . »

ويقول فيما بعد :

« ... إن جوهر الامر كله هو هذا : بحكم ظروف تاريخية محدّدة تحالفت روسيا البرجوازية عام ١٩١٧ مع مالكي الارض . وحتى أكثر الاجنحة يسارية ضمن البرجوازية ، كالمنشفيك والاشتراكيين – الثوريـين ، لم يستطع أن يذهب إلى أبعـد من تأمين صفقة لصالح مالكي الارض . هنـــا يكمن أهمّ فارق بـين ظروف

الثورة الروسية وظروف الثورة الفرنسية التي اندلعت منذ ما يقارب القرن ... لم يكن بإمكان الثورة الفلاحية أن تنتصر كثورة برجوازية عام ١٩١٧ . [تماماً ! – ل . ت .] كان أمامها طريقان . **فاما ان تنهزم تحت الضربات التي يوجهها اليها البرجوازيون ومالكو الارض ، واما ان تنتصر كحركة مواكبة ومناصرة لثورة البروليتاريا . ان الطبقة العاملة في روسيا قد أمّنت احتمال قيامها بثورة بروليتارية ناجحة عندما حملت الرسالة التي حملتها البرجوازية في الثورة الفرنسية العظمى عوضاً عنها ، وعندما اضطلعت بمهمة قيادة الثورة الديمقراطية الزراعية .**
(« الحركة الفلاحية عام ١٩١٧ » – ص ١٠ – ١١ ، و ١١ – ١٢ ، دار الدولة للنشر – ١٩٢٧) .

ما هي العناصر الرئيسية في حجج ياكوفليف ؟ عجز الفلاحين عن لعب دور سياسي **مستقل** ؛ ما ينتج عن ذلك من حتمية ان تلعب الطبقة في المدن دوراً قيادياً ؛ عدم تمكن البرجوازية الروسية من قيادة الثورة الزراعية ؛ ما ينتج عن ذلك من حتمية أن تلعب البروليتاريا دوراً قيادياً ؛ استيلاؤها على الحكم بوصفها قائدة الثورة الزراعية ؛ واخيراً ، دكتاتورية البروليتاريا التي تعتمد على الحرب الفلاحية وتفتتح حقبة الثورة الاشتراكية . إن هذا ينسف من الأساس الطرح الغيبي لمسألة الطابع « البرجوازي » أم «الاشتراكي» للثورة . إن جوهر الموضوع يكمن في انه لا يمكن حلّ القضية الزراعية ، التي هي أساس الثورة البرجوازية، في ظل حكم البرجوازية . لم تظهر دكتاتورية البروليتاريا على الساحة **بعد** اتمام الثورة الديمقراطية الزراعية ، ولكنها ظهرت **كشرط مسبق** ضروري لاتمامها . وبكلمة: ففي نهج ياكوفليف الذي يلتفت الى الماضي نجد جميع العناصر الأساسية المكونة لنظرية الثورة الدائمة كما صغتها عام ١٩٠٥ . كانت المسألة بالنسبة لي

مسألة توقع تاريخي ؛ اما ياكوفليف، الذي يعتمد على دراسات تحضيرية حضرها جهاز كامل من الباحثين الشباب ، فقد أجرى عمليـــة كشف حساب لأحداث الثورات الثلاث بعد الثورة الاولى باثنتين وعشرين سنة وبعد ثورة اكتوبر بعشرة سنين . ثم ماذا ؟ يردد ياكوفليف حرفياً تقريباً ما قلته عام ١٩٠٥ .

ومع ذلك ، فما هو موقف ياكوفليف من نظرية الثورة الدائمـة ؟ انه موقف جدير بأي موظف ستاليني يريـد ان يبقى في منصبه وحتى ان يرقى الى منصب أعلى . ولكن كيف يوفق ياكوفليف ، والحالة هذه ، بين تقييمه للقوى الدافعة لثورة اكتوبر وبين الصراع ضد« التروتسكية »؟ انه يفعل ذلك ببساطه متناهية إذ انه لا يعير مثل هذا التوفيق اي اهتمام . انه شبيه ببعض الموظفين الليبراليين القيصريين الذين كانوا يقرون نظرية داروين ويذهبون في نفس الوقت للمناولة في الكنيسة ؛ لذا فهو يشتري حق التعبير عن افكار مـاركسية بين الحين والآخر بثمن اشتراكـــه في شعائر التجريح بالثورة الدائمة . ويمكن اعطاء العشرات من الأمثلة المشابهة .

يبقى ان نضيف أن ياكوفليف لم يكتب هذا الكتاب عن تاريخ ثورة اكتوبر بمبادرته الخاصة وانما فعل ذلك بناءً على قرار اللجنة المركزية التي أوكلت اليّ في الوقت نفسه مهمة مراجعة كتاب ياكوفليف[1] . كان شفاء لينين من مرضه مـا زال متوقعاً في ذلك الحين ، فلم يخطر ببـال أي من رجال الصف الثاني ان يثير خلافاً مصطنعاً حول الثورة الدائمة على اي حال ، بوصفي المحرر السابق للتأريخ الرسمي لثورة اكتوبر ، او بالأحرى المحرر المقترح لهذا التأريخ ، استطيع أن اؤكد برضا تام ان المؤلف ، فيما يتعلق بجميع المسائل التي هي موضع خلاف ، قد استعمل حرفياً بوعي منـــه أو بدون وعي ، الصياغات الموجودة في كتابي الهرطقي الملعون حول الثورة الدائمة : « نتائج وتوقعات » .

---

١ - مقطع من محاضر اجتماع مكتب التنظيم التابـع للجنة المركزية في ٢٢ ايار ١٩٢٢ - رقم ٢١ : « يطلب من الرفيق ياكوفليف ... بتأليف كتاب عن تاريخ ثورة اكتوبر تحت اشراف ومراجعة الرفيق تروتسكي » . (ل. ت.) .

إن تقييم لينين الشامل للمصير التاريخي للشعار البلشفي يؤكد أن الخلاف بين الاتجاهين : اتجاه « الثورة الدائمة » واتجاه لينين كان ذا طابـع ثانوي وفرعي ؛ وان ما يجمع بينهما هو اساسي للغاية. وإن أساسي كلا الاتجاهين للذين اندمجا اندماجاً كلياً في ثورة اكتوبر لا يتناقض تناقضاً تاماً مع اتجاه ستالين بين شباط وآذار ، ومع اتجاه كامنييف وريكوف وزينوفييف بين نيسان وتشرين الأول، ومع سياسة ستالين وبوخارين ومارتينوف في الصين فحسب ولكن مع اتجـاه راديك الحالي بخصوص الصين ايضاً .

وعندما يتهمني راديك ، الذي بدّل حكمه على القيم بشكل جذري بين عام ١٩٢٥ والنصف الثاني من عام ١٩٢٨ ، باني لا أفهم «تعقيد الماركسية- اللينينية» اجيبه : إني أعتبر ان الاتجاه الفكري **الأساسي** الذي بلورته منذ اثنين وعشرين عاماً في « نتائج وتوقعات » قد أكدت الاحداث صحته وهو ، لهـــذا السبب بالذات ، منسجم مع خط البلاشفة الستراتيجي .

واني – بشكل خاص ، لا أرى اي سبب يدعوني للتراجع عمّا قلته عـــام ١٩٢٢ عن الثورة الدائمة في مقدمة كتابي « العام ١٩٠٥ » الذي قرأه الحزب كله وتدارسه في عدة طبعات ونسخ عندما كان لينين ما يزال على قد الحياة ، والذي بدأ « يزعج » كامنييف في خريف عام ١٩٢٤ وبدأ « يزعج » راديك لأول مرة في خريف عام ١٩٢٨ . ففي هذه المقدمة أقول :

> « في الفترة بين ٩ كانون الثـــاني واضراب تشرين الأول بالتحـديد كوّن المؤلف هذه الاراء التي سمّيت فيما بعدُ (نظرية الثورة الدائمة)؟ إن هذا الاسم الغريب بعض الشيء يعبّر عن الفكرةالقائلة ان الثورة الروسية التي تواجهها مهام برجوازية لا تستطيع ان تتوقف عند هذه المهام باي حال من الأحوال . **فلا يمكن للثـــورة ان تنجز مهامها البرجـــوازية العاجلة الا اذا اتت بالبروليتاريا الى الحكم ...**

لقد تأكدت صحة هذا التقييم ولكن بعد انقضاء اثنتي عشرة سنة. لا يمكن للثورة الروسية ان تنتهي إلى إقامة نظام ديمقراطي – برجوازي . فلابد لها من ان تنقل السلطة إلى يد الطبقة العاملة . وإذا كانت الطبقة العاملة ما تزال ضعيفة بحيث لم تستطع ان تستولي على الحكم عام ١٩٠٥ ، فقد كان عليها ان تنضج وتقوى في ظروف العمل السرّي إبان (قيصرية الثالث من حزيران)[1] وليس في الجمهورية الديمقراطية البرجوازية».

(ليون تروتسكي : « العام ١٩٠٥ » – المقدمة – ص ٤ و ٥ – الطبعة الروسية) .

اريد ان استشهد بالاضافة إلى ذلك باحكام سجالية اكثر حدّة اطلقتها على شعار « الدكتاتورية الديمقراطية » . ففي عام ١٩٠٩ ، كتبت في مجلة روزا لوكسمبرغ في بولونيا ما يلي :

« في حين ينطلق المنشفيك من الفكرة المجرّدة التي تقول ان ثورتنا « ثورة ديمقراطية » ويصلون إلى فكرة تكييف تكتيك البروليتاريا كله مع سلوك البرجوازية الليبرالية بما فيه استلام الحكم ، ينطلق البلاشفة من التجريد العقيم نفسه : « الدكتاتورية الديمقراطية وليس الدكتاتورية الاشتراكية » ويصلون إلى الفكرة القائلة بان تقتصر البروليتاريا الحاكمة على تحقيق الثورة الديمقراطية البرجوازية . إن الفرق بينهما حول هذه المسألة لهو فرق على جانب كبير من الأهمية : في حين تتجلّى الآن الجوانب المعادية للثورة الكامنة عند

---

١ – في ٣ حزيران عام ١٩٠٧ تم الانقلاب الذي افتتح بشكل رسمي حقبة الثورة – المضادة المنتصرة . (المترجم الانكليزي) .

المنشفيك ، تمدد السمات المعادية للثورة الكامنة عند البلاشفة بان تغدو خطراً كبيراً فقط في حال انتصار الثورة » .

لقد اضفت في كانون الثاني ١٩٢٢ الى هذا المقطع من المقالة، الذي أعيد طبعه في الطبعة الروسية من كتاب « العام ١٩٠٥ » ، ما يلي :

« إن هذا لم يحصل ، كما هو معلوم ، لأن البلشفية حققت بقيادة لينين (ولكن بعد فترة من الصراع الداخلي) اعادة تسلحها الايديولوجي حول هذه المسألة البالغة الاهمية في ربيع عام ١٩١٧ أي قبل الاستيلاء على الحكم » .

لقد تعرّض هذان المقطعان منذ عام ١٩٢٤ الى وابل عنيف من النقد . والآن ، وبعد تأخير أربع سنوات ، إنضم راديك الى صف النقاد . ومع ذلك، فاذا تعمّقنا بدأب في هذه الاسطر ، لا بد من ان نقرّ انها كانت تحتوي على توقع هام وعلى تحذير لا يقل عنه أهمية . ويبقى الأمر التالي: عند حدوث ثورة شباط كانت ما تسمى القيادات البلشفية القديمة ما تزال تتخذ موقف مجابهة الدكتاتورية الاشتراكية بالدكتاتورية الديمقراطية . وحوّل اقرب تلامذة لينين معادلته «الجبرية» الى بنيان غيبي بحت موجهين اياه ضد المسيرة الحقيقية للثورة. وعند هذا المنعطف التاريخي البالغ الأهمية ، تبنت القيادات البلشفية العليا في داخل روسيا موقفاً رجعياً ولولا مجيء لينين في الوقت المناسب لكانت اغتالت ثورة اكتوبر باسم الصراع ضد التروتسكية مثلما اغتالت فيما بعد الثورة الصينية. إن راديك يصف ، بخشوع ، هذا الموقف الخاطىء الذي اتخذه القطاع القيادي للحزب بأنه نوع من « الصدفة » . ولكن هذا لا قيمة له كتفسير ماركسي للموقف الديمقراطي المبتذل الذي اتخذه كامنيف ، وزينوفييف ، وستالين ، ومولوتوف، وريكوف، وكالينين، وفوجين ، ومليوفين ، وكرتنسكي، وفرونز، وبارالافسكي ، واوردجو ، وبريوبراجنسكي ، وسميلغا وعشرات غيرهم من

« البلاشفة القدماء » . أليس من الأصحّ ان نعترف ان المعادلة البلشفية الجبرية القديمة كانت تحوي بعض المخاطر في داخلها ؟ وكما يحدث دائماً للصيغ السياسية المبهمة ، فقد ملأها التطور السياسي بمضمون معادٍ للثورة البروليتارية . ومن البدهي لو ان لينين عاش في روسيا وراقب تطور الحزب يوماً بعد يوم ، وخاصة خلال الحرب ، لكان ادخل التصحيحات والتوضيحات اللازمة في الوقت المناسب . ومن حسن حظ الثورة ان لينين وصل في الوقت المناسب ، وإن كان متأخراً ، ليتولى اعادة التسليح الايديولوجي الضرورية . إن حسّ البروليتاريا الطبقي والضغط الثوري الذي مارسته قواعد الحزب ، الذي مهّد لهما نضال البلشفية السابق بمجمله ، قد مكّنا لينين من ان يغيّر سياسة الحزب الى اتجاه جديد وفي الوقت المناسب ، ذلك في صراعه مع قيادات الحزب العليا وبالرغم من مقاومتها .

هل يعني هذا ان علينا ان نقبل الآن صيغة لينين كما كانت عليه عام ١٩٠٥ بشكلها الجبري وبكل ابهامها بالنسبة للصين والهند والبلدان الأخرى ؛ وأن علينا ان نترك أمر ملء هذه الصيغة بمضمون وطني – ديمقراطي وبرجوازي صغير لامثال ريكوف وستالين في الصين والهند (تانغ بينغ – شان ، روي ، وغيرهم) ، ثم ننتظر الى حين ظهور لينين جديد ليتولى القيام بالتصحيحات اللازمة مثلما فعل في الرابع من نيسان ؟ ولكن هل ان مثل هذا التصحيح مضمون بالنسبة للصين والهند ؟ أليس من الأفضل ان ندخل إلى هذه الصيغة تلك التصحيحات المحددة التي اثبتت تجربة روسيا والهند كليهما ضرورة إدخالها ؟

هل يعني ما سبق انه يجب أن ننظر إلى شعار دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية على أنه مجرد « خطأ » ؟ كما نعلم ، فان اراء الانسان وافعاله تقسم الآن إلى فئتين : الصحيحة منها وتمام الصحة ، اي تلك التي تنسجم مع « الخط العام » ؛ والمغلوطة منها تمام الغلط ، اي تلك التي تنحرف عن هذا الخط . إلا أن هذا لا يحول « طبعاً » دون ان يعلن ان ما كان صحيحاً تماماً بالأمس قد غدا مغلوطاً تماماً اليوم . ولكن قبل ظهور « الخط العام » عرف التطور الحقيقي

للآراء اسلوب التقريبات المتتالية من الحقيقة. حتى في القسمة البسيطة في الحساب نجد انه من الضروري الاختبار في انتقاء الآحاد ؛ فيبدأ المرء بآحاد كبيرة أو صغيرة ثم يرفضها جميعاً إلا واحدة خلال عملية الاختبار . وفي تحديد الهدف في قصف المدفعية يسمى اسلوب التقريبات المتتالية من الهدف « التجميع » . ولا مفر مطلقاً من اعتماد اسلوب التقريب في السياسة كذلك . ان القضية كلها هي ان نفهم في الوقت المناسب اننا قد أخطأنا الهدف وان ندخل التصحيحات اللازمة دون تأخير .

ان الأهمية التاريخية العظيمة لصيغة لينين تكمن في كونها قد تفحصت إلى النهاية أهم القضايا النظرية والسياسية، في ظروف حقبة تاريخية جديدة ، وبخاصة قضية مدى الاستقلال السياسي الذي قد تبلغه مختلف التجمعات البرجوازية الصغيرة بشكل عام والفلاحون بشكل خاص . وبفضل كمالها فإن التجربة البلشفية بين عام ١٩٠٥ و١٩١٧ قد أوصدت الباب بإحكام في وجه «الدكتاتورية الديمقراطية » . وكتب لينين بيده فوق الباب هذه العبارة : « لا دخول – لا خروج » . ولقد صاغها بهذه الكلمات : إما أن يسير الفلاح مع البرجوازي وإما أن يسير مع العامل. ومع ذلك فقد تغافل رجال الصف الثاني عن هذا الاستنتاج الذي تؤدي اليه الصيغة البلشفية القديمة تغافلاً تاماً ، وعلى عكس هذه الصيغة رسموا فرضية مؤقتة بإدخال هذه الصيغة في البرنامج . هنا ، بشكل عام ، يكمن جوهر ذهنية رجال الصف الثاني .

٦ـ حَول القَـفز عَن المـَرَاحِل التَـاريخيَّـة

إن راديك لا يكتفي باجترار بعض التمرينات النقديــة الرسمية التي شاعت في السنوات الأخيرة ، إنه يبسّطها أيضاً في بعض الأحيان ، عندما يكون ذلك ممكناً. ويمكن أن نستنتج ، من خلال ما يكتبه ، إني لا أميِّز مطلقاً بين الثورة البرجوازية والثورة الاشتراكية ، وبين الشرق والغرب ، وإني لم أتبدل في ذلك منذ عام ١٩٠٥ . ويحذو حذو ستالين فيذكرني بأنه لا يجوز القفز عــن المراحل التاريخية .

يجب أن نتساءل أولاً بأول : إذا كنتُ قد اعتبرت في عــام ١٩٠٥ ان القضية لا تتعدى كونها قضية « ثورة اشتراكية » ، لمـاذا إذن توقعتُ أن تبدأ هذه الثورة في روسيا المتخلفة قبل أن تبدأ في أوروبا المتقدمة ؟ هــل كان ذلك بدافع من الحميّة الوطنية ؟ أم بدافع من العزّة القومية ؟ ومع ذلك ، فهذا مـــا حدث بالفعل . هل يفهم راديك أنه لو تحققت الثورة الديمقراطية في بلدنا كمرحلة مستقلة لما كانت دكتاتورية البروليتاريا تحققت ؟ وإذا كنا قد وصلنا الى هــذه الدكتاتورية قبل أن يصل إليها الغرب ، فإنما يعود ذلك الى كون التاريخ قـــد جمع ، — لم يخلط — ولكنه جمع جمعاً عضوياً ، بـــين المضمون الأساسي للثورة البرجوازية وبين المرحلة الأولى من ثورة البروليتاريا ليس إلا .

إن التمييز بين الثورة البرجوازية والثورة البروليتارية يدخل في نطـــاق « ألف باء » السياسة . وبعد « الألف باء » تأتي « المقاطع الصوتية » التي تتركب من أحرف . إن التاريخ قد حقق هذا التركيب إذ ضم أهم أحرف في الأبجديــة

البرجوازية الى الاحرف الاولى من الأبجديـــة الاشتراكية . وبالرغم من ذلك ، يريد راديك أن يعود بنا من « المقاطع » التي سبق أن تكونت الى « الألف باء » . ان هذا لأمر تعيس لكنه واقع .

من العبث القول باستحالة القفز عن المراحل . لأن مسيرة التاريخ الحية تقفز دوماً عـــن « مراحل » معزولة مستمدة من تقسيم عمليـــة التطور بكليتها الى عناصرها المكونة على الصعيد النظري ، أي أنـــه يجري معالجتها في مداهـــا الارحب . إن السياسة الثورية مطالبة بأن تقوم بالعملية ذاتهـــا في اللحظات الحاسمة . فالفرق الاول بـين الثوري والتطوري المبتذل يكمن في المقـــدرة على التعرف الى مثل هذه اللحظات واستغلالها .

إن تقسيم ماركس لتطور الصناعة الى مرحلة الحرف ، ومرحلة المانيفاتورة ، ومرحلة المصنع ، يدخل في « ألف باء » الاقتصاد السياسي ، وبتحديد أكثر في « ألف باء » النظرية التاريخية – الاقتصادية . ومع ذلك فقـــد ظهر المصنع في روسيا بالقفز عن مرحلتي المانيفاتورة والحرف في المدن . إن هذه الحقيقة تدخل تحت عنوان « المقاطع الصوتية » في التاريخ. وقد حصل تطور مشابه لهذا التطور على صعيد السياسة والعلاقات الطبقية في بلدنا . وليس بالامكان فهم تاريخ روسيا المعاصر بدون أن نفهم منهج ماركس الذي يقول بالمراحل الثلاث : الحرف ، المانيفاتورة ، المصنع . بيد أن معرفة هـــذه الامور وحدها لا تكفي . ذلك ان تاريخ روسيا قد قفز بالفعل عن بضعة مراحل (ليس من الضروري أن يعتبر ستالين ان هذا القول موجه ضده بالذات) . ولكن التمييز النظري بين هـــذه المراحل أمرٌ ضروري لروسيا أيضاً ، فبدونه لا نستطيع أن نفهم طبيعة القفزة ولا نتائجها .

ومن الممكن أن ننظر الى القضية من زاوية أخرى (مثلما نظر لينين في بعض الاحيان الى موضوع السلطة المزدوجة) ، فنقول ان روسيا قـد مرت بالمراحل الثلاث التي يتكلم عنها ماركس ، غير أن المرحلتين الاوليين لم توجدا إلا بشكل جنيني صغير جداً . إن وجود هذه « الرواسب » ، أي وجود مرحلتي الحرف

والمانيفاتورة ، اللتين لا يمكن تمييزهما إلا بصعوبة بالغة ، يكفي لإثبات الوحدة التكوينية للعملية الاقتصادية . ولكن تقلص هاتين المرحلتين الكمي كان عظيماً الى درجة أنه ولد اختلافاً نوعياً في كل بنية الأمة الاجتماعية . وأوضح تعبير عن هذا « الاختلاف النوعي » على الصعيد السياسي هو ثورة أكتوبر .

انما ما لا يمكن تحمله في كل هذا النقاش هو « تفلسف » ستالين الذي يجمع كل بضاعته النظرية في كيسين اثنين ، فيضع في الأول : « قانون التطور غير المتكافيء » ، ويضع في الثاني : « استحالة القفز عن المراحل » . إن ستالين ما يزال الى يومنا هذا عاجزاً عن أن يفقه **أن القفز عن المراحل** (او المكوث مدة طويلة في مرحلة واحدة) **هو بالتحديد ما نعنيه عندما نتحدث عن التطور غير المتكافيء** . وبجدية لا تضاهيها جدية ، يتصدى ستالين لنظرية الثورة الدائمة... بقانون التطور غير المتكافيء. إن توقع وصول روسيا المتأخرة تاريخياً، الى ثورة البروليتاريا قبل وصول انكلترا المتقدمة اليها ، انما يرتكز جملة وتفصيلاً على قانون التطور غير المتكافيء . ولكي نتوصل الى هذا التوقع ، يجب أن نفهم عدم التكافؤ التاريخي بكل وضوحه الحي ، لا ان نجترّ مقطعاً كتبه لينين عام ١٩١٥ الى ما لا نهاية بعد أن نقلبه رأساً على عقب ونفسّره بجهل مطبق .

من السهل نسبياً ان نتفهم جدلية « المراحل » التاريخية في فترات التقدم الثوري . وعلى العكس من ذلك، تكون المذاهب التطورية الرخيصة هي الطاغية طبعاً في فترات الردة الرجعية . ان الستالينية ، هذا الفيض من الابتذال الايديولوجي والابنة المدللة للردة في الحزب ، قد خلقت من التطور على مراحل طقساً قائماً بذاته تغطي فيه تبعيتها السياسية ومواقفها التجريبية. إن راديك قد وقع بدوره في فخ هذه الايديولوجية الرجعية .

إن احدى مراحل العملية التاريخية قد تكون حتمية في ظروف معينة دون أن تكون حتمية على الصعيد النظري . وعلى العكس من ذلك ، فان حيوية التطور قد تتخطى « مراحل » تعتبر حتمية نظرياً ، خاصة خلال الثورات التي لم تسم عبثاً : قاطرات التاريخ .

مثال على ذلك: قفزت البروليتاريا في روسيا عن مرحلة البرلمانية الديمقراطية، فلم تمهل « الجمعية التأسيسية » سوى بضعة ساعات تافهة. غير ان مرحلة الثورة — المضادة في الصين لا يمكن القفز عنها باي حال من الأحوال مثلما لم يكن بالامكان القفز عن مرحلة مجالس «الدوما» الاربع في روسيا . ان مرحلة الثورة — المضادة الحالية في الصين لا يمكن اعتبارها باي حال من الاحوال مرحلة « لا بد منها » من وجهة النظر التاريخية . لأنها النتيجة المباشرة لسياسة ستالين وبوخارين الفاجعة وسيدخل هذان الرجلان التاريخ من الباب الذي كتب عليه: «منظمو الهزائم». على ان ثمار الانتهازية قد اصبحت عاملاً موضوعياً يمكن ان يعرقل المسيرة الثورية لمدة طويلة .

إن كل محاولة للقفز عن مراحل حقيقية ، اي عن تلك المراحل التي يمكن تحديدها موضوعياً كمراحل في تطور الجماهير ، إن كل محاولة كهذه هي ضرب من المغامرة السياسية ليس إلا . ما دامت اغلبية الجماهير الكادحة تثق بالديمقراطيين الاجتماعيين مثلاً ، او بالكيومنتانغ او بقادة النقابات ، لن نستطيع ان نطالبها بالقضاء العاجل على السلطة البرجوازية . بل يجب تهيئة الجماهير لتقبل مثل هذه المهام . وقد تستغرق عملية التهيئة هذه « مرحلة » طويلة جداً . ان « الذيلي » فقط هو الذي يعتقد انه علينا أن « نبقى مع الجماهير » في الجناح اليميني من الكيومنتانغ اولاً ثم في الجناح اليساري منه ثانياً ، او أن ننشيء جبهة مع « بورسيل »[1] مخرّب الاضرابات العمالية « حتى يخيب ظن الجماهير بقادتها » ، وفي أثناء هذه الفترة كلها نمحض هؤلاء القادة أنفسهم ثقتنا كاملة .

ان راديك ما زال يتذكر ان بعض « الجدليين » قد نعتوا المطالبة بخروج الحزب الشيوعي من الكيومنتانغ وبحلّ اللجنة الانكلو — روسية بانها ليست سوى عملية « قفز » عن المراحل تؤدي الى الانفصال عن الفلاحين (في حالة الصين) وعن الجماهير العمالية (في حالة انكلترا) . إن راديك يتذكر ذلك لأنه

---

١ — كان بورسيل رئيس الاتحاد العام للنقابات البريطانية وكان ممثل هذا الاتحاد لدى لجنة النقابات الروسية — الانكليزية المشتركة عام ١٩٢٦ . (المترجم)

كان احد هؤلاء « الجدليين » التعسين . اما الآن فهو يوغل في اخطائه الانتهازية ويعممها ليس الا .

في نيسان عام ١٩١٩ ، كتب لينين في مقال له على شكل برنامج بعنوان « الاممية الثالثة ومكانتها في التاريخ » :

« لن نكون على خطأ اذا قلنا ان هـذا التناقض بالذات بين روسيا المتخلفة وبين« قفزتها » عن المرحلة الديمقراطية البرجوازية الى أعلى مستوى من مستويات الديمقراطيـة الذي هو الديمقراطيـة السوفييتية او البروليتارية قـد اخر في تفهم الغرب لدور السوفييت ووضع العراقيل في طريق هذا الفهم » .

(لينين : المؤلفات الكاملة – الجزء ١٦ – ص ١٨٣ – الطبعة الروسية) .

يقول لينين هنا وبشكل مباشر ، إن روسيا قـد « قفزت عـن المرحلة الديمقراطية البرجوازية » . وتتضح في موضوعة لينين جميع البراهين الضرورية، فعلى كل حال ، لا تعتبر الجدلية انه من الضروري دائماً ان نكرر جميع الظروف المحددة ، ويفترض الكاتب من جهته انه في عقل القارىء بعض الفهم . وبالرغم من ذلك،فقد ظلّت القفزة عن الديمقراطية البرجوازية ، على حد تعبير ملاحظة لينين المصيبة ، تزيد في صعوبة فهم دور السوفييت من قبل جميع المذهبيين والمنهجيين ليس « في الغرب » فحسب ، ولكن في الشرق أيضاً .

في مقدمتي لكتاب « العام ١٩٠٥ » ، الذي أخذ يزعج راديك فجأة الآن ، عالجت هذه القضية على النحو التالي :

« حتى في عام ١٩٠٥ كان عمال بطرسبرغ يطلقون على السوفيت الذي انشأوه اسم«حكومة البروليتاريا» وكانت هذه التسمية تجري على كل لسانفي ذلك الحين، وقد تجسدت بشكل كامـل في برنامج نضال الطبقة

العاملة من أجل استلام الحكم . **ولكننا كنا نتصدى ، في الوقت نفسه ، للنظام القيصري ببرنامج كامل من الديمقراطية السياسية** (حق الاقتراع للجميع ، الجمهورية ، الميليشيا ، الى آخره) . ولم يكن امامنا من سبيل آخر غير ذلك السبيل ، **لان الديمقراطية السياسية مرحلة ضرورية من مراحل نمو الجماهير العاملة** ، مع ايراد تحفظ مبدئي : قد تستغرق هذه المرحلة عقوداً من الزمن في بعض الاحيان ، وفي أحيان أخرى يتيح الوضع الثوري للجماهير فرصة تحرير نفسها من عُقَد الديمقراطية السياسية قبل ان تكون مؤسساتها قد تحولت الى واقع » .

(تروتسكي : « العام ١٩٠٥ » — المقدمة —ص٧).

وبالمناسبة ، فإن هذه الافكار التي تنسجم مع افكار لينين التي استشهدت بها منذ قليل ، كافية ، برأيي ، لتفسّر ضرورة التصدّي لدكتاتورية الكيومنتانغ « ببرنامج مفصّل من الشعارات الديمقراطية السياسية » . ولكن عند هذه النقطة بالذات ينعطف راديك الى اليسار . ففي فترة التقدم الثوري كان يعارض انسحاب الحزب الشيوعي الصيني من الكيومنتانغ ، اما في فترة الدكتاتورية المضادة ـ للثورة فانه يعارض تكتيل العمال الصينيين حول الشعارات الديمقراطية . انه كمن يرتدي الصوف في الصيف ويخرج عارياً في الشتاء .

٧- ماذا يعني شعار « الدكتاتوريّة الدّيمقراطيّة » بالنسبة للشرق الآن ؟

إن راديك إذ يتبنّى في المفهوم الستاليني التطوري المدّعي وغير الثوري حول « المراحل » التاريخية ، يسعى الآن إلى تقديس شعار « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » بالنسبة للشرق عامة . ضمن « الفرضية العملية » البلشفية التي كيّفها لينين مع سير التطور في بلد محدّد وعدّلها وبلورها ثم أهملها في مرحلة معينة ، من هذه الفرضية يبني راديك منهجاً يرتفع فوق التاريخ . وحول هذه النقطة يكرّر بعناد في مقالاته :

> « هذه النظرية والخطة المستنبطة منها تنطبق على جميع البلدان ذات التطور الرأسمالي الفتيّ ، حيث البرجوازية لم تحلّ مشكلة الارث الذي تركته التكوينات الاجتماعية – السياسة السابقة » .

فكّر أيها القارىء ، بهذه الصيغة : اليست تبريراً لموقف كامينييف عام ١٩١٧ ؟ هل حلّت « البرجوازية الروسية مشكلات الثورة الديمقراطية بعد ثورة شباط ؟ كلا ، لقد ظلت هذه المشكلات بدون حلّ ، بما فيها أهمها : المشكلة الزراعية . كيف أمكن ان يفشل لينين في ان يفهم ان الشعار القديم ما زال « ساري المفعول » ؟ ولماذا تخلّى عن هذا الشعار ؟

لقد أجابنا راديك حول هذه النقطة من قبل : لقد تخلى لينين عن هذا

الشعار لانه كان « قد تحقق » . وقد تفحصنا هـذه الاجابة . انها متهافتة ، ومتهافتة بشكل مزدوج على لسان راديك الذي يعتقد بان جوهر الشعار اللينيني القديم لا يكمن مطلقاً في أشكال الحكم ولكن في التصفية الفعلية لنظام الرق بواسطة تعاون البروليتاريا مع الفلاحين . ولكن هـذا هو بالتأكيد ما لم تفعله الكرنسكية . وينتج عن ذلك ان عودة راديك إلى ماضي بلدنا بغية إيجاد حل لاخطر قضية من قضايا اليوم ، القضية الصينية ، ضرب من العبث ليس إلا . لم يكن المطلوب ان نتحرى ما فهمه تروتسكي او ما لم يفهمه عام ١٩٠٥ ، ولكن ما لم يستطع ان يفهمه ستالين ومولوتوف وخاصة ريكوف وكامنيف بين شباط وآذار عام ١٩١٧ (لست أدري ماذا كان موقف راديك في ذلك الحين) . لأنه إذا اعتقدنا ان الدكتاتورية الديمقراطية قد « تحققت » إلى ذلك المدى في السلطة المزدوجة بحيث تقتضي تبدلاً سريعاً في الشعار الأساسي ، إذن علينا ان نعترف بان « الدكتاتورية الديمقراطية » قد تحققت في الصين بشكل أكمل وأشمل خلال نظام حكم الكيومنتانغ ، اي خلال حكم تشانغ كاي تشيك ووانغ تشينغ – وي وذيلهما تانغ بينغ – شان [1] . لذا ، فمن الضروري جداً ان نغيّر الشعار في الصين .

على كل، الم تتم تصفية «الارث الذي تركته التكوينات الاجتماعية – السياسية السابقة » في الصين ؟ كلا ، لم يتم تصفيتها بعد . ولكن ، هل تمت تصفيتها في روسيا يوم ٤ نيسان ١٩١٧ عندما أعلن لينين الحرب على كل الفئة العليا من « البلاشفة القدامى » ؟ ان راديك يناقض نفسه بشكل تعيس ويرتبك ويقفز من جهة لأخرى . فلنلاحظ ، في هذا الصدد ، انه ليس من قبيل الصدفة ان يستعمل راديك تعبيراً معقداً مثل « الارث الذي تركته التكوينات » ، ويتلاعب بمشتقاته ، ويتحاشى بشكل جلي استعمال عبارة أوضح مثل « بقايا

---

١ – تشانغ كاي تشيك هو قائد الجناح اليميني في الكيومنتانغ ، ووانغ شينغ – وي هو قائد الجناح اليساري فيه . اما تانغ بينغ – شان فهو الوزير الشيوعي الذي نفذ سياسة ستالين وبوخارين في الصين . (ل. ت.)

الاقطاع او الرق » ، لماذا ؟ لأن راديك انكر بالأمس فقط وجــود هذه البقايا انكاراً تاماً فنسف بذلك كل أساس لشعار الدكتاتورية الديمقراطية. ففي تقريره إلى « الأكاديمية الشيوعية » قال :

« ان جذور الثورة الصينية لا تقل عمقاً عن جذور ثورتنا عام ١٩٠٥ . وبامكاننا ان نؤكد ان تحـــالف الطبقة العاملة مع الفلاحين سيكون أقوى مما كان عليه عندنا في ١٩٠٥ ، **لسبب بسيط هو ان هذا التحالف لن يكون موجهاً ضد طبقتين اثنتين ولكن ضد طبقة واحدة هي البرجوازية** » .

أجل ، « لسبب بسيط » . عندما توجّه البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين معركتها ضد طبقة واحدة هي البرجوازية ، وليس ضد بقايا الاقطاع ولكن ضد البرجوازية ، ماذا تُسمى هذه الثورة إذا سمحت ؟ ثورة ديمقراطية ربما ؟ فلنتذكر فقط ان راديك لم يقل هذا عام ١٩٠٥ ولا حتى ١٩٠٩ ولكن في آذار عام ١٩٢٧ ، فكيف نفهم ذلك ؟ ببساطة تامة . ففي آذار عام ١٩٢٧ انحرف راديك ايضاً عن الطريق المستقيم ولكن باتجاه آخر . في اطروحاتها حول الثورة الصينية ، أدخلت « المعارضة » تصحيحاً هاماً للغاية على نظرة راديك الجزئيـة في ذلك الحين. ولكن الكلمات التي استشهدنا بها منذ قليل تحوي بعض الحقيقة: لا يكاد يوجــد طبقة من اسياد الأرض في الصين ، فمالكو الأرض فيها أكثر التصاقاً بالرأسماليين مما كانوا عليه في روسيا القيصرية ، لذلك فإن ثقل القضية الزراعية في الصين أقل مما كان عليه في روسيا القيصرية ؛ ولكن ، من جهــة أخرى ، فان قضية التحرر الوطني أكثر أهمية. وبالتالي، فان مؤهلات الفلاحين الصينيين للنضال السياسي الثـوري **المستقل** من اجل تجديد البــلد على أسس ديمقراطية لا يمكن ان تكون أكثر من مؤهلات الفلاحين الروس . وقد عبّر هذا عن نفسه ، من بين تعبيرات أخرى ، بعدم « نشوء « حزب نارودني » (شعبي) يرفع راية الثورة الزراعية في الصين قبـل ١٩٢٥ أو خلال السنوات الثـــلاث

للثورة . ان كل هذا انما يشير الى ان صيغة الدكتاتورية الديمقراطية ، بالنسبة للصين التي تركت وراءها تجربة ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ، تشكل فخاً رجعياً أشد خطورة مما كانت تشكله في روسيا بعد ثورة شباط .

إن الرحلة الاخرى التي يعود بها راديك الى الماضي السحيق ترتد عليه بدون رحمة . يتعلق الامر هذه المرة بشعار الثورة الدائمة الذي طرحه ماركس عام ١٨٥٠[1] . يقول راديك :

« إن ماركس لم يطرح شعار الدكتاتورية الديمقراطية ، في حين كان هذا الشعار بين ١٩٠٥ و ١٩٠٧ المحور السياسي لفكر لينين وكان جزءاً مكوناً من مفهومه للثورة في **جميع** [؟] **البلدان** ذات التطور الرأسمالي البدائي [؟] . »

اعتماداً على بضعة اسطر من لينين ، يفسر راديك الاختلاف في المواقف بإرجاعه الى أن المهمة الأساسية للثورة الالمانية كانت **الوحدة القومية** ، في حين هي في روسيا **الثورة الزراعية** . إذا لم تتم هذه المقارنة بشكل آلي ، وإذا احتفظنا بحس للنسبة ، يكون هذا القول صحيحاً الى حد ما . ولكن كيف يبدو الوضع بالنسبة للصين ؟ إن الوزن الخاص للقضية الوطنية في الصين ، هذا البلد شبه المستعمر ، لهو أكبر ، ولا شك ، من وزن القضية الزراعية حتى كما كانت عليه ما بين ١٨٤٨ و ١٨٥٠ ، لأن القضية في الصين هي قضية توحيد وتحرّر في آن واحد . ولقد صاغ ماركس توقعاته حول الثورة الدائمة في زمن كانت العروش في المانيا ما تزال راسخة ، وكان « اليونكر » ما زالوا يملكون الارض ، ولا يسمح لقادة البرجوازية بالتحرك إلا في كواليس الحكومة . أما في الصين ، فقد انهارت الملكية منذ عام ١٩١١ ، وطبقة ملاكي الارض ليست موجودة بشكل مستقل ، والكيومنتانغ البرجوازي – الوطني يسيطر على الحكم وعلاقات الرق ممزوجة بشكل عضوي بالاستغلال البرجوازي . هكذا

١ – راجع المقطع الاساسي لهذا النص في أول الكتاب (المترجم) .

فالمقارنة بين مواقف ماركس ومواقف لينين التي خاض فيها راديك انما ترتد ضد شعار الدكتاتورية الديمقراطية في الصين .

غير أن راديك لا ينظر بجدية الى موقف ماركس ، فنظرته إليه عرضية وآنية تقتصر على منشور عام ١٨٥٠ **حيث كان ماركس ما زال يعتبر الفلاحين الحلفاء الطبيعيين لديمقراطيي البرجوازية الصغيرة في المدن** . كان ماركس في ذلك الحين يتوقع مرحلة مستقلة من الثورة الديمقراطية في المانيا ، يستلم فيها الحكم لفترة قصيرة راديكاليو البرجوازية الصغيرة في المدن بدعم من الفلاحين . هذا هو بيت القصيد ! ولكن هذا هو بالتأكيد ما لم يحصل . وليس من قبيل الصدفة أنه لم يحصل . فحتى في منتصف القرن الاخير ، أثبتت ديمقراطية البرجوازية الصغيرة عن عجزها عن تنفيذ ثورتها المستقلة . وقد تعلم ماركس من هذه الامثولة . ففي ١٦ نيسان عام ١٨٥٦ ، أي بعد مضي ست سنوات على صدور المنشور المنوّه عنه كتب ماركس الى انغلز :

> « يتوقف كل شيء في المانيا على إمكان تغطية مؤخرة ثورة البروليتاريا بطبعة ثانية من « حرب الفلاحين »[1] . إذّاك يصبح الامر رائعاً . »

إن هذه الكلمات المرموقة ، التي يتجاهلها راديك تماماً ، تشكل مدخلاً هاماً لفهم ثورة أكتوبر ولفهم المشكلة التي تشغلنا هنا بشمولها : هل قفز ماركس عن الثورة الزراعية ؟ كلا ، إنه لم يقفز عنها كما رأينا . هل اعتقد بضرورة تحالف العمال مع الفلاحين في الثورة القادمة ؟ أجل . هل توّقع أن يلعب الفلاحون دوراً قيادياً أو حتى مجرد دور مستقل في الثورة ، كلا ، لم يتوقع ذلك . فقد انطلق من أن الفلاحين ، الذي لم ينجحوا في دعم الديمقراطية — البرجوازية في الثورة الديمقراطية المستقلة (بسبب خطأ الديمقراطية — البرجوازية

---

١ — يستعمل ماركس عبارة « طبعة ثانية من حرب الفلاحين » للاشارة بشكل مزدوج الى كتاب انغلز « الحرب الفلاحية في المانيا » والى ضرورة قيام حرب فلاحية حقيقية في آن واحد. (المترجم)

وليس بسبب خطأهم) ، سيكونون في مركز يسمح لهم بدعم البروليتاريا في ثورتها . « إذ ذاك يصبح الامر رائعاً ». ولكن راديك لا يريد ان يعترف ان هذا هو بالتحديد ما حصل في اكتوبر ، وقد حصل بشكل لا غبار عليه .

أما فيما يخص الصين ، فالاستنتاجات التي نخلص اليها هنا في غاية الوضوح . إن الخلاف لا يدور حول الدور الحاسم الذي يلعبه الفلاحون كحلفاء ، ولكنه يدور حول ما اذا كانت الثورة الزراعية الديمقراطية المستقلة ممكنة في الصين . ام اذا كانت « طبعة ثانية عن حرب الفلاحين » هي التي ستدعم دكتاتورية البروليتاريا . هذه هي الطريقة الوحيدة التي تطرح فيها المسألة . وكل من يطرحها بشكل مغاير يثبت انه لم يتعلم شيئاً ولا يفقه شيئاً ، بل انه يضلل الحزب الشيوعي الصيني ويحرفه عن الطريق السليم .

لكي تتمكن بروليتاريا البلدان الشرقية من شق طريق النصر ، عليها ان تتخلص في البدء من نظرية ستالين ومارتينوف الرجعية المتحذلقة حول « المراحل » و « الخطوات » ، وأن تطرحها جانباً وتهشمها وتكنسها . فلقد نضجت البلشفية خلال صراعها ضد هذا النوع من الذهنية التطورية المستبذلة . لسنا مطالبين بان نكيّف انفسنا مع خط سير جرى تحديده بشكل مسبق ، ولكن بان نكيف أنفسنا مع الاتجاه الحقيقي الذي يسلكه الصراع الطبقي . فمن الضروري اذن ان نرفض فكرة ستالين وكيوسينين ، هذه الفكرة التي تحدّد نظاماً تسير وفقه البلدان على مختلف مستويات التطور فيها نحو الثورة ؛ ذلك بان توزّع عليها سلفاً حصصاً متنوعة من الثورية . علينا ان نكيف انفسنا مع الاتجاه الحقيقي الذي يسلكه الصراع الطبقي ، ومعيننا الذي لا ينضب في هذا المجال هو لينين ، شرط أن نأخذ **كل** فكر لينين بعين الاعتبار .

في عام ١٩١٩ ، وحّد لينين الاستنتاجات المتعلقة بالمرحلة السابقة وخاصة ما يتعلق منها بتنظيم « الامية الشيوعية » ، وصاغها صياغة نظرية متكاملة ، وفسّر تجربة الكرنسكية وتجربة ثورة اكتوبر على الشكل التالي : في مجتمع برجوازي تتوفر فيه التناقضات الطبقية المتبلورة إما ان تقوم دكتاتورية برجوازية

واضحة أو خفية ، واما أن تقوم دكتاتورية البروليتاريا . ان الكلام عن نظام وسيط كلام مرفوض . فكل ديمقراطية ، وكل «دكتاتورية تمارسها الديمقراطية» (لينين هو الذي يسخر من هذا التعبير بوضعه بين هلالين) هي مجرد قناع لحكم البرجوازيـة الأمر الذي برهنت عليه تجربة اكثر البـلدان الاوروبية تخلفاً ، روسيا ، ابان ثورتها البرجوازية ، أي ابان المرحلة المهيأة أكثر من غيرها لقيـام « دكتاتورية تمارسها الديمقراطية » . وقد اعتبر لينين هـذا الاستنتاج قاعدة بنى عليها اطروحاتـه حول الديمقراطية التي لم تكن سوى تلخيص لتجارب ثورتي شباط واكتوبر .

مثل الكثيرين غـيره ، يفصل راديك بشكل ميكانيكي قضية الديمقراطية عن قضية الدكتاتورية الديمقراطية . وهذا هـو مصدر هفوات كبيرة . إن « الدكتاتورية الديمقراطية » ليست سوى قناع يستر حكم البرجوازية خـلال الثورة . هذا ما تعلمنا اياه تجربة «السلطة المزدوجة» في بلدنا عام ١٩١٧ وتجربة الكيومنتانغ في الصين .

إن الحالة اليائسة التي وصل اليها « رجال الصف الثـاني » تتجلى بوضوح في كونهم ما زالوا الى وقتنا هذا يحاولون مجابهة دكتاتورية البرجوازية ودكتاتورية البروليتاريا بالدكتاتورية الديمقراطية . ولكن هذا يعني انـه على الدكتاتورية الديمقراطية ان تكون ذات طابع انتقـالي ، أي ان تكون ذات مضمون برجوازي صغير . لذا ، فان مشاركة البروليتاريا فيها لا تبـدّل شيئاً في الأمر ، لأن الطبيعة لا تعترف بقاسم حسابي مشترك بين مختلف الاتجاهات الطبقية . فاذا لم تقم دكتاتورية البرجوازية ولم تقم دكتاتورية البروليتاريا ، إذن يجب ان تلعب البرجوازية الصغيرة الدور **الموّجه والحاسم** . غير ان هـذا يعود بنا الى نفس القضية التي اجابت عليهـا عملياً الثورات الروسية الثلاث والثورتان الصينيتان : هـل بامكان البرجوازية الصغيرة اليوم في ظـل ظروف سيطرة الامبريالية على العالم ، ان تلعب دوراً ثورياً قيادياً في البلدان الرأسمالية ، حتى ولو كانت القضية تتعلق بالبلدان المتخلفة التي ما تزال تواجهها مشكلة انجـاز

مهامها الديمقراطية ؟

عرف التاريخ حقبات تمكنت فيها الفئات الدنيا من البرجوازية الصغيرة من إقامة دكتاتوريتها الثورية . هذا أمر نعرفه جميعاً . ولكن جرى ذلك في حقبات لم تكن البروليتاريا فيها، أو سلف البروليتاريا ، قد تميّز عن البرجوازية الصغيرة ، بل على العكس كانت هذه البروليتاريا في وضعها غير المتبلور النواة المقاتلة داخل البرجوازية الصغيرة . غير ان الوضع في زمننا هذا يختلف كل الاختلاف . فليس بامكاننا التحدث عن مقدرة البرجوازية الصغيرة على توجيه حياتنا المعاصرة ، حتى في مجتمع برجوازي متخلف ، ما دامت البروليتاريا قد انفصلت عن البرجوازية الصغيرة وأخذت تعادي البرجوازية الكبيرة على أساس التطور الرأسمالي، الأمر الذي يؤدي الى اضمحلال البرجوازية الصغيرة ، ويواجه الفلاحين بخيار سياسي لا مفرّ منه بين البرجوازية الصغيرة والبروليتاريا . ففي كل مرّة يؤيد فيها الفلاحون حزباً برجوازياً صغيراً في مظهره الخارجي ، يكونون عملياً قد دعموا رأس المال المصرفي . خلال فترة الثورة الروسية الأولى أو خلال الفترة ما بين الثورتين الأولى والثانية ، كان بالامكان ان توجد خلافات في الرأي حول **درجة استقلال** الفلاحين والبرجوازية الصغيرة في الثورة الديمقراطية (حول درجة الاستقلال ليس إلا !) ؛ اما الآن فان سير الاحداث بجمله خلال السنوات الاثنتي عشرة الاخيرة قد حسم الموضوع بشكل نهائي .

وقد أعيد طرح هذا الموضوع عملياً بعد ثورة اكتوبر في عدة بلدان وبجميع الاشكال والتركيبات الممكنة، وقد حسم في جميع هذه الامكنة بالطريقة ذاتها. سبق وأشرنا الى تجربة الكيومنتانغ على انها تجربة أساسية على غرار التجربة الكرنسكية . ولكن يجب ان نولي التجربة الفاشية في ايطاليا نفس الأهمية ، فهناك انتزعت البرجوازية الصغيرة المسلحة الحكم من أيدي الأحزاب البرجوازية القديمة لكي تسلمه رأساً بواسطة قادتها الى الاوليغاركية المالية . وطرحت القضية ذاتها في بولونيا ، حيث كانت حركة « بيلسودسكي » موجهة بشكل مباشر ضد حكومة تحالف البرجوازيين ومالكي الارض الرجعية ، والتي كانت تعكس

أماني الجماهير البرجوازيـــة الصغيرة وحتى أوساط واسعة من البروليتاريا . ولم يكن من قبيل الصدفة ان يعمد الاشتراكي الديمقراطي البولوني ، وارسكي ، الى تشييد ثورة بيلسودسكي « بدكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » خشية منه « أن يسيء تقدير الفلاحين » . سوف أخرج عن الموضوع اذا حاولت تحليـــل التجربة البلغارية ،أي السياسة المرتبكة التي اتبعها أمثال كولاروف وكاباكشييف تجاه حزب سطانبولسكي ؛ او التجربة الحزبية التي خاضها حزب العمال والمزارعين في الولايات المتحدة ؛ أو تودّد زينوفييف لراديبه ؛ او تجربـة الحزب الشيوعي في رومانيا ؛ وهكذا الى ما لا نهاية . لقد حللت بعضاً من هـــذه التجارب في خطوطها العريضة في كتابي « نقد مشروع برنامج الاممية الشيوعية » . وقـــد خلصت من هذه التجارب الى استنتاج أساسي يؤكد دروس اكتوبر ويدعمهـا ، وبخاصة التي تقول منها ان البرجوازية الصغيرة بمـا فيها الفلاحون غير قادرة على لعب دور قيـــادي في مجتمع برجوازي معاصر حتى ولو كان مجتمعاً متخلفاً في حقبات ثورية او رجعية على حدّ سواء . ان الفلاحين إما أن يدعموا دكتاتورية البرجوازية وإما ان يكون نضالهم حافزاً لقيام دكتاتورية البروليتاريا . ان الاشكال الوسيطة ما هي إلا أقنعة تخفي وراءها دكتاتورية البرجوازية ، عندما تكون هذه البرجوازية متعثرة أو غير قادرة على الوقوف على رجليها بعـد فترة من الاضطرابات (الكرنسكية ، الفاشية ، نظام حكم بيلسودسكي) .

الفلاحون إما ان يتبعوا البرجوازية وإمـا أن يتبعوا البروليتاريا . ولكن عندما ترمع البروليتاريا على التقدم ، باي ثمن ، حتى ولو لم يكن الفلاحون معها، فانها تثبت في الواقع انها اصبحت ذيلاً لرأس المـــال المصرفي . امثلة على ذلك : العمال عندما دافعوا عن الوطن الام في روسيا عام ١٩١٧ ؛ العمال ، بمـــا فيهم الشيوعيون ايضاً ، في الكيومنتانـغ في الصـــين ؛ العمال في الحزب الاشتراكي البولوني ؛ الشيوعيون ايضاً الى حد ما في بولونيا عام ١٩٢٧ ، الى آخره .

ان من لم يفكر بهذا الأمر حتى نهايته ، ومن لم يفهم الأحداث من خلال الأثر الحديث الذي خلفته ، فالأفضل له ألا يتدخل بالسياسة الثورية مطلقاً .

ان الاستنتاج الأساسي الذي خلص اليه لينين بشكل كامل ونهائي من دروس ثورتي شباط واكتوبر يرفض فكرة « الدكتاتورية الديمقراطية » رفضاً تاماً . وهذا ما كرره لينين أكثر من مرة بعد عام ١٩١٨ :

« ان الاقتصاد السياسي كله، اذا كان أحد قد تعلم منه شيئاً ، وكل تاريخ الثورة ، وكل تاريخ التطور السياسي خلال القرن التاسع عشر يعلموننا ان الفلاح إما ان يتبع العامل وإما ان يتبع البرجوازي ...الى المواطنين الذين لا يفهمون لماذا يحصل ذلك أقول ... راقبوا تطور أي من الثورات الكبرى في القرنين الثامن عشر أو التاسع عشر ، راقبوا التاريخ السياسي لأي بلد في القرن التاسع عشر ينبؤكم لماذا يحصل ذلك . ان البنيان الاقتصادي للمجتمع الرأسمالي مركب بحيث لا يمكن لغير رأس المال او البروليتاريا ان يقلب القوى الحاكمة فيه . لا توجد قوى أخرى في البنيان الاقتصادي لهذا المجتمع » .

(لينين : المؤلفات الكاملة — الجزء ١٦ — ص ٢١٧ — الطبعة الروسية) .

القضية لا تتعلق هنا بانكلترا او بالمانيا . على أساس الدروس التي تقدمها اي من الثورات الكبرى في القرنين الثامن عشر او التاسع عشر ، أي الثورات **البرجوازية في البلدان المتخلفة** ، يخلص لينين الى الاستنتاج ان النظامين الممكنين هما دكتاتورية البرجوازية او دكتاتورية البروليتاريا . فلا يمكن أن تقوم دكتاتورية « ديمقراطية » اي دكتاتورية وسيطة .

* * *

وكما نرى ، يصل راديك في نهاية نزهته النظرية والتاريخية إلى هذه الحكمة الهزيلة التي تقول انه يجب تمييز الثورة الاشتراكية عن الثورة الديمقراطية .

وبعد ان يخطو راديك هذه « الخطوة »، يرفع يده رأساً مستعيناً بكيوسينين[1] الذي ينطلق من مورده الوحيد : « البدهية » ، ويعتبر انه من غير المعقول ان يرفع شعار دكتاتورية البروليتاريا في البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة في آن واحد . وباخلاص رجل لا يفقه شيئاً يتهم كيوسينين هذا تروتسكي بانه لم « يتعلم شيئاً » منذ عام ١٩٠٥ . ويحذو راديك حذو كيوسينين فيبدي بدوره هذه الملاحظة اللاذعة : يعتقد تروتسكي « ان خصائص الثورتين الصينية والهندية تكمنان بالتحديد في انه لا يمكن تمييزهما ، بأي حال من الأحوال ، عن الثورات في اوروبا الغربية ، لذا يجب ان تؤديا منذ خطواتهما الأولى [؟!] الى دكتاتورية البروليتاريا » .

غير ان راديك ينسى أمراً بسيطاً في هذا الصدد : لم يسبق ان تحققت دكتاتورية البروليتاريا في بلد أوروبي ولكنها تحققت بالتأكيد في بلد متخلف في شرق اوروبا . هل يجب ان يُلام تروتسكي اذا كانت العملية التاريخية قد تغافلت « خصائص » روسيا ؟ وينسى راديك ايضاً ان البرجوازية ، وبشكل أدق رأس المال المصرفي ، يحكم في **جميع** البلدان الرأسمالية بالرغم من الاختلاف في مستوى تطورها وفي بنيانها الاجتماعي وتقاليدها وما شابه ، اي بالرغم من « خصائصها » . هنا ايضاً نجد ان التطور التاريخي هو الذي لم يحترم هذه الخصوصية وليس تروتسكي .

اين ، اذن ، يكمن التمايز بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة ؟ ان التمايز كبير ، غير انه يبقى محصوراً ضمن حدود طغيان العلاقات الرأسمالية . ان أساليب البرجوازية والاشكال التي يتخذهاحكمها تختلف كثيراً باختلاف البلدان. ففي جهة ، يتخذ هذا الطغيان طابعاً مطلقاً مباشراً **كما في الولايات المتحدة** . وفي الجهة المقابلة ، يتكيف رأس المال المصرفي مع المؤسسات البالية الموروثة عن القرون الوسطى الآسيوية بان يخضعها لسيطرته ويفرض عليهاوسائله الخاصة،

---

١ – كيوسينين – قائد الحزب الاشتراكي الفنلندي قبل عام ١٩١٧ . اعتنق الشيوعية عام ١٩١٨ وسكن الاتحاد السوفييتي .

كما هو الحال في الهند . غير ان البرجوازية تحكم في كلا البلدين . وينجم عن ذلك ان دكتاتورية البروليتاريا ستأخذ بدورها طابعاً متنوعاً للغاية فيما يتعلق باساسها الاجتماعي واشكالها السياسية ومهامها العاجلة وسرعة عملها في مختلف البلدان الرأسمالية . غير ان قيادة جماهير الشعب نحو الانتصار على جبهة الامبرياليين والاقطاعيين والبرجوازيين الوطنيين لا يمكن ان تتحقق الا تحت هيمنة البروليتاريا الثورية التي تحول نفسها بعد استلامها الحكم إلى دكتاتورية البروليتاريا .

يتوهم راديك انه عندما يقسم الانسانية الى فئتين : فئة قد « نضجت » لتتقبل الدكتاتورية الاشتراكية ، وفئة أخرى قد « نضجت » فقط لتتقبل الدكتاتورية الديمقراطية ، فهو قد استطاع بهذا فقط ، على العكس مني ، أن يأخذ بعين الاعتبار ما يسمى « خصوصية » كل بلد بمفرده . وفي الواقع ، انه قد خرج « بكليشيه » ميتة لا تؤدي إلا الى صرف الشيوعيين عن الدراسة الجدية لخصوصية بلد معين ، أي عن التفسير الحي لمختلف الخطوات والمراحل التي يمر فيها التطور التاريخي في ذلك البلد .

إن خصائص بلد لم يحقق ثورته الديمقراطية أو هو لم يكملها بعد لهي ذات مغزى عظيم بحيث يتوجب أخذها كأساس لبرنامج الطليعة البروليتارية . وفقط على أساس برنامج **وطني** كهذا يستطيع الحزب الشيوعي أن ينمّي نضاله الحقيقي بنجاح في سبيل أغلبية الطبقة العاملة وسائر الكادحين ضد البرجوازية وضد عملائها الديمقراطيين .

إن إمكان نجاح هذا الصراع يتوقف الى حد بعيد طبعاً على الدور الذي تلعبه البروليتاريا في اقتصاد البلد ، وبالتالي على المستوى الذي بلغه تطوره الرأسمالي . غير أن هذا ليس المحك الوحيد . ففي المنزلة ذاتها تقع مسألة ما إذا كان في البلد مشكلة عميقة عاجلة « عند الشعب » تهتم في حلـّها أغلبية سكان الأمة ؛ ويقتضي حلها اتخاذ الإجراءات الثورية الجريئة . من بين مشكلات من هذا النوع تقع

القضيتان الزراعيـــة والوطنية بتركيباتها المختلفة . فبفضل القضية الزراعيـة المستعصية والاضطهاد الوطني الذي لا يطـــاق في البلدان المتخلفة ، تستطيع البروليتاريا الفتيّة الصغيرة نسبياً ان تصل الى الحكم على أساس ثورة **ديمقراطيـة وطنية** قبل أن تصل البروليتاريا إليه في بلد متقدم على أساس **اشتراكي** فحسب . منذ ثورة أكتوبر ، بـــدا وكأنه لا مبرر لاثبات ذلك ، ولكن خلال الردة الايديولوجية وبسبب عقم « رجال الصف الثـــاني » النظري أصبحت بديهيات المفاهيم الثورية مخنوقة ومتعفنة يطغى عليها شبح كيوسينين الى درجـة أن المرء مجبرٌ في كل مرّة على البدء من البداية .

هل ينجم عما قلناه إن جميع بلدان العالم ناضجة اليوم ، بشكل أو بآخـر ، لقيام الثورة الاشتراكية فيها ؟ كلا. إن هذه الطريقة هي طريقة زمرة ستالين ــ بوخارين الزائفة الميتة لطرح السؤال . إن الاقتصاد العالمي بمجمله ناضج لقيـــام ثورة اشتراكية . هذا أمر لا شك فيه . غير ان هذا لا يعني أن كل بلد بمفرده ناضج لقيام ثورة اشتراكية فيــه . ماذا سيحصل إذن لدكتاتورية البروليتاريا في سائر البلدان المتخلفة كالصين والهند ، إلى آخره ؟ على هـــذا السؤال نجيب : التاريخ لا يصنع حسب الطلب . إن بلداً ما قـــد يصبح « ناضجاً » لدكتاتورية البروليتاريا ليس فقط قبل ان يكون ناضجاً لبناء الاشتراكية بشكل مستقل ، ولكن قبل ان يكون ناضجاً لتقبل الإجراءات الاشتراكية البعيدة المدى أيضاً. فـــلا يجب أن ننطلق من فرضية مسبقة تدّعي وجود انسجام في التطور الاجتماعي . إن قانون « التطور غير المتكافىء » ما زال على قيد الحيـــاة بالرغم من عناقـــات ستالين النظرية الرقيقة له . وما زالت قوى هذا القانون تفعل ليس فقط في العلاقات بين البلدان ، ولكن في العلاقات المتبادلة بين مختلف العمليات داخـــل البلد الواحد . ولا يمكن مصالحة العمليات الاقتصادية والسياسية غـير المتكافئة إلا على الصعيد العالمي . وهذا يعني بشكل خاص انــه لا يمكن معالجة موضوع دكتاتورية البروليتاريا في الصين بشكل منعزل وضمن حدود الاقتصاد الصيني والسياسة الصينية وحدهما .

عند هـذه النقطة بالذات يواجهنا موقفان ينفي أحدهما الآخر : النظرية الثورية العالمية التي تحمل اسم « نظرية الثورة الدائمـة » ، والنظرية الوطنية - الاصلاحية التي تحمل اسم « نظرية الاشتراكية في بلد واحـد » . لا تستطيع الصين المتخلفة ، ولا أي بلد آخر في العالم عامـة ، أن تبني الاشتراكية ضمن الحدود الوطنية : إن قوى الإنتاج ذات التطور السريع والتي تخطت الحـدود الوطنية تقف في وجه مثل هذا العمل ، وكذلك تفعل تلك القوى التي لم تتطور التطور الكافي لتقبل التأميم . إن دكتاتورية البروليتاريا في بريطانيا ، مثلاً ، سوف تجابه مصاعب وتناقضات تختلف نوعياً عن تلك التي تجابهها دكتاتورية البروليتاريا في الصين ، هذا صحيح ، ولكن هذه المصاعب لن تكون أقـل ضخامة مما هي في الصين . وفي كلا الحالين ، لا يمكن تجاوز هذه التناقضات إلا بالسير في طريق الثورة العالمية . هذا الموقف يسد الطريق في وجه التساؤل عن مدى « نضج » الصين أو « عدم نضجها » للقيام بالتحويل الاشتراكي . ومما لا شك فيه أن تخلف الصين يزيد في صعوبة المهـام المطروحة على دكتاتورية البروليتاريا . ولكن نكرر : التاريخ لا يصنع حسب الطلب ، ولا خيار أمـام البروليتاريا الصينية .

هل يعني هذا، على الاقل ، ان جميع البلدان، بما فيها أكثر البلدان المستعمَرة تخلفاً ، ناضجة ان لم يكن لبناء الاشتراكية فلقيام دكتاتورية البروليتاريا ؟ كلا ، انه لا يعني ذلك . ماذا ، إذن ، هـو مصير الثورة الديمقراطية بشكل عـام والثورة في المستعمرات بشكل خـاص ؟ اجيب على السؤال بسؤال آخر : من قال ان كل بلد مستعمَر هـو ناضج للحلّ السريع الشامل لمهامـه الديمقراطية الوطنية ؟ ويجب معالجة المسألة من زاوية أخرى. في ظروف الحقبة الاستعمارية، يمكن تحقيق انتصار الثورة الديمقراطية الوطنية فقط عندما تكون العلاقات الاجتماعية والسياسية في البلد ناضجة لتسليم البروليتاريا الحكم بوصفها قائـدة الجماهير الشعبية . ولكن ، ماذا لو لم يكن الأمر كذلك ؟ إذن ، يعطي النضال من أجل التحرر الوطني نتائج جد جزئية موّجهة كلهـا وبشكل مباشر ضد

الجماهير العاملة . في عام ١٩٠٥ ، لم تكن البروليتاريا في روسيا من القوة بحيث تلفّ الجماهير الفلاحية حولها وتستولي على الحكم . بهذا السبب بالذات ، توقفت الثورة في منتصف الطريق وغاصت في الرمال . امـــا في الصين ، حيث منعت قيادة « الأممية الشيوعية » البروليتاريا الصينية من النضال لاستلام الحكم ، بالرغم من الظروف المشجعة جداً ، فقد وجـدت المهام الوطنية حلّها البائس غـــير المستقرّ في نظام حكم الكيومنتانغ .

لا يمكن التكهن متى وفي ايـة ظروف يصبح البلد المستعمَر ناضجاً لحـــل مشكلاته الزراعية والوطنية بشكل ثوري حقيقي . وعلى كل حال ، نستطيع ان نؤكـــد الآن ان كلا الصين والهنـد سوف تصلان الى الديمقراطية الشعبية الحقيقيـة . أي الى ديمقراطية العمال والفلاحين ، فقط من خـــلال دكتاتورية البروليتاريا . وفي سيرهما على هذا الطريق قد تجتازان عدة مراحـل وخطوات واطوار . تحت ضغط جماهير الشعب سوف تستمر البرجوازية في اتخاذ خطوات نحو اليسار لكي تنقضّ فيما بعد على الشعب بدون شفقة . إن مـراحل السلطة المزدوجة ممكنة ومتوقعة. ولكن من غير الممكن أو المتوقع ان تقوم دكتاتورية ديمقراطية حقيقية متميزة عن دكتاتورية البروليتاريا . إن دكتاتورية ديمقراطية « مستقلة » لا يمكن ان تكون الا على غرار الكيومنتانغ ، أي موجهة برمتهـا ضد العمّال والفلاحين . علينا ان نفهم هذا منذ البداية وان نقوله للجماهير دون ان نخفي الحقائق الطبقية وراء الصيغ المجردة .

يبشر ستالين وبوخارين بأن البرجوازية تستطيـع ان تحقق الثورة الوطنيـة في الصين بسبب نير الاستعمار الذي ترزح تحته البلد . فتمت المحاولة . ماذا كانت النتائج ؟ سلمت البروليتاريا لسكين الجزار . فقيل إذاك : لن تأتي الدكتاتورية الديمقراطية . لقد برهنت دكتاتورية البرجوازية الصغيرة على انهـــا مجرد قناع لدكتاتورية رأس المال . بالصدفة ؟ كلا . « إن الفلاح إما ان يتبع العامـل أو البرجوازي » . في الحالة الأولى تقوم دكتاتورية البروليتاريا ، وفي الثانية تقوم دكتاتورية البرجوازية . يبدو ان امثولة الصين واضحة الوضوح الكافي حتى ولو

درسنا الأمر عن بعد . فجاء الجواب . « لا . كانت تلك مجرد تجربة لم يكتب لهـا النجاح . سوف نبدأ من جديد ونقيم هــذه المرة الدكتاتورية الديمقراطية « الاصيلة » . « بواسطة اية اساليب ؟ » «على قاعدة إجتماعية يقوم عليها تعاون العمال والفلاحين » . هذا هو الاكتشاف الأخـير الذي يعرضه علينا راديك . ولكن ، إذا سمحت ، قام الكيومنتانغ على نفس القاعدة : « تعاون » فيــه العمال والفلاحون لينفذوا المهام الخطرة لحساب البرجوازية . قــل لنا كيف سيكون التركيب السياسي لهذا التعاون . بماذا سوف تستبدل الكيومنتانغ ؟ اية احزاب ستستلم الحكم ؟ أشِرْ اليها ولو تقريباً ، صِفْها على الأقل ! على هذه الاسئلة ، يجيب راديــك (عام ١٩٢٨ !) إن الاناس الذي انتهوا ، والذين يعجزون عــن فهم تعقيد الماركسية يمكن ان يكونوا مهتمين بسؤال تقني ثانوي كهذا حول اية طبقة ستكون الحصان وايــة طبقة ستكون الفارس ، في حين « يجرّد » البلشفي نفسه من البنيان الفوقي السياسي ويصب اهتمامه على البنيان الطبقي . لا ، اسمح لي ، لقد قلت قولتك . لقد « جردّت » نفسك بما فيــه الكفاية . بل أكثر من الكفاية ! في الصين ، «جردتَ » نفسك من قضية كيف يعكس التعاون الطبقي نفسه على القضايا الحزبيـــة ، وجررت البروليتاريا الى الكيومنتانغ ، ووقعت في هوى الكيومنتانغ الى درجة انـك فقدتَ عقلك ، وتملّصتَ من قضايا النضال السياسي مردداً الصيغ المجردة . وبعـد ان هشمت البرجوازية رأس البروليتاريا ، ها انت تقترح علينا : فلنبدأ من جديـد ، وفي البدء دعونا « نجرّد » انفسنا من مسألة الاحزاب والحكم الثوري . لا ! إن هذه نـكات قديمة . لن نسمح لانفسنا بالعودة اليها .

ان جميع هذه البهلوانات ، كما شاهدنا ، تتم باسم تحالف العمال والفلاحــين. وينذر راديك « المعارضة » بان لا تسيء تقدير الفلاحين ويستشهد في هذا الصدد بصراع لينين ضد المنشفيك . في بعض الأحيان ، عنـدما يرى المرء المصير الذي آلت اليه كتابات لينين يستنكر بمرارة هذه الاساءات التي ترتكب ضد كرامة الفكر الانساني . أجل ، لقد قال لينين مراراً عديدة ان انكار دور الفلاحين

الثوري هو من ميزات المنشفيك . وكان على حق في ذلك . ولكن الى جـانب ذلك ، هناك عام ١٩١٧ ، حيث أمضى المنشفيك الأشهر الثمانية بين ثورة شباط وثورة اكتوبر وهم في تحـالف متين مع « الاشتراكيين – الثوريين » . وكان الاشتراكيون – الثوريون في ذلك الحين يمثلون غـالبية الفلاحين الساحقة التي ايقظتها الثورة . وكان المنشفيك والاشتراكيون – الثوريون يسمون أنفسهـم الديمقراطية الثورية ويجادلوننا قائلين انهم الوحيدون الذين يرتكزون إلى تحالف العمال والفلاحين (والجنود) . وهكذا استولى المنشفيك ، بعد ثورة شباط ، على الصيغة البلشفية القائلة بتحالف العمال والفـلاحين . واتهموا البلاشفة بانهم يعمـلون على شق الطليعة البروليتارية عن الفلاحين وانهم يساعدون بذلـك على انهيار الثورة . وبكلمات أخرى ، اتهم المنشفيك لينين بانه يتجاهل الفلاحين ، او انه يسيء تقديرهم في أحسن الأحوال .

وكان النقد الذي وجهه كامنييف وزينوفييف وآخرون إلى لينين مجـرد صدى لنقد المنشفيك . ان نقد راديك الحالي ليس بدوره الا صدى بعيداً لنقد كامنييف .

ان سياسة « رجال الصف الثاني » في الصين ، بمـا فيها سياسة راديـك ، إستمرار وتطـوير لمهزلة المنشفيك عام ١٩١٧ . لقد دافع ستالين وراديك معاً على بقـاء الحزب الشيوعي في الكيومنتانغ مستعملين الحجة ذاتها وهي ضرورة التحالف بين العمال والفلاحين. ولكن عندما تكشف «صدفة» ان الكيومنتانغ حزب برجـوازي ، تكررت نفس المحـاولة مع الكيومنتانغ « اليساري » . فكانت النتائج هي ذاتها . وكنتيجة لذلك جرى انتشال تجريد الدكتاتوريـة الديمقراطية – المتميزة عن دكتاتورية البروليتاريا – من هذا الواقع التعيس الذي لم يحقق الآمال العظام ، فكان تكراراً لما شاهدناه في السابق . في عام ١٩١٧ ، سمعنا « تسيريتللي » « ودان » وآخرين يرددون هـذا القول مئات المرات : « لقد قامت دكتاتورية الديمقراطية الثورية ، ولكنكم تسيرون باتجاه دكتاتورية البروليتاريا ، اي انكم تسيرون نحو الخراب » . ان ذاكرات الناس لهي حقـاً

ضعيفة . ان « الدكتاتورية الديمقراطية – الثـــورية » التي ينادي بها ستالين وراديك لا تختلف بشيء عن « دكتاتورية الديمقراطيين والثوريين » التي ينادي بها « تسيريتللي » و « دان » . وبالرغم من ذلك ، فـــان هذه الصيغة لا ترد في جميع مقررات الكومنـترن فحسب ، بل انها قد ادرجت في برنامجه أيضاً . من الصعب ان نتخيل مهزلة بهذه السفالةتكون في الوقت نفسه ثأراً مريراً للمنشفيك على الإهانات التي وجهتها البلشفية اليهم عام ١٩١٧ .

ومهما يكن من أمر ، يبقى من حق الثوريين في الشرق ان يسمعوا جـوابأ محدداً للسؤال عن طابـع « الدكتاتورية الديمقراطية » يكون مبنياً على الوقـائع وعلى التجربة السياسية وليس على نصوص قديمة جاهزة . في جوابه على السؤال : مـــا هي « الدكتاتورية الديمقراطية » – كان ستالين يقدم الرد الكلاسيكي التالي : انها بالنسبة للشرق نفس الصيغة التي « قدمها لينن بشأن ثورة عام ١٩٠٥ في روسيا » وقد أصبحت هذه الصيغة الرسمية الى حد بعيد . وهي موجـــودة في الكتب والمقررات المتعلقة بالصين والهند وبولينزيا . وهو ينصح الثوريون بالعودة الى « مفاهيم » لينين المتعلقة باحداث **قادمة** ، التي أصبحت الآن احداثاً **سابقة** ، وعلاوة على ذلك تفسّر « مفـــاهيم » لينين الفرضية بهذه الطريقة او **تلك** ، ولكن ليس بالطريقة التي فسرهـــا فيها لينين **بعد** ان مرّت الأحداث .

« حسناً ! » يقول الشيوعي الشرقي وهو يخفض رأسه . « سنحاول ان نفهم هذا الشعار كما فهمه لينين قبل الثورة ، على حد قولكم . ولكن هل تسمحون بان تقولوا لنا كيف يبدو هذا الشعار في الواقع ؟ كيف تحقق في بلدكم ؟ » .

« لقد تحقق في بلدنا على شكل الكرنسكية في حقبة السلطة المزدوجة » .

« هل تريدوننا ان نقول لعمالنا إن شعار الدكتاتورية الديمقراطيـــة سوف يتحقق في بلدنا على شكل كرنسكية محلية ؟ » .

« ماذا تقول ؟ لا ، ابداً ! فما من عامل يتبنى شعاراً كهذا، إنالكرنسكية تبعية للبرجوازية وخيانة للشعب العامل » .

فيسأل الشيوعي الشرقي بكآبة : « ولكن ماذا علينا ان نقول للعمال ؟ »

فيجيبه كيوسينين[1] ، الرجل المكلف بهـذه المهمة : « عليك ان تقول لهم ان الدكتاتورية الديمقراطيـــة هي تلك التي طرحها لينين فيما يتعلق بالثورة الديمقراطية القادمة » .

واذا كان الشيوعي الشرقي غير محروم من ملكة التفكير ، سوف يجيب :

« ولكن ، الم يقل لينين عام ١٩١٧ ان الدكتاتورية الديمقراطية قد تحققت بشكل حقيقي أصيل فقط في ثورة اكتوبر التي أقامت دكتاتورية البروليتاريا ؟ اليس من الأفضل ان نوّجه الحزب والطبقة العاملة نحو هذا الهدف ؟ » .

« ليس في أي حال من الاحوال . لا أريـدك حتى ان تفكر بهذا . انهـــا الثورة الدائمة . انها نزعة تروتسكية » .

بعد هذا التأنيب العنيف يغدو الشيوعي الشرقي اكثر بياضاً من الثلج على اعلى قمم الهيملايا فيتخلى عن كل شغف للمعرفة . فليأت ما هو آت .

وماذا تكون النتائج ؟ اننا نعرفها جيداً : إمـــا التمرّغ المشين عند أقدام تشانغ كاي – تشيك ، وإما المغامرات البطولية .

---

١ – كيوسينين هو احد قادة الحزب الاشتراكي الفلندي قبل عام ١٩١٧ . اعتنق الشيوعية عام ١٩١٨ . شغل عدة مناصب حزبية ايام ستالين . توفي خلال هذا العام في الاتحاد السوفييتي.
(المترجم)

٨ ـ مِنَ الماركسيَّة الى النزعة السّلميَّة

إن الظاهرة التي تدعو للقلق أكثر من غيرها هي مقطع من مقالة راديك لا علاقة له بالموضوع الأساسي الذي نحن بصدده ، وإنما تربطه به وحدانية انحياز راديك نحو مفكّري الوسطية الحاليين . اعني بذلك تودّد راديك الخجول لنظرية الاشتراكية في بلد واحد . يجب أن نتوقف عند هذه النقطة ، لأن هذه « الحاشية » من اخطاء راديك قد تتجاوز جميع الخلافات الأخرى في الرأي في تطورها اللاحق ، مبيّنة أن كميتها قد تحولت نهائياً الى نوعية .

في معرض مناقشته للأخطار التي تهدّد الثورة من الخارج ، يكتب راديك ان لينين « ... كان مدركاً أن الدكتاتورية (دكتاتورية البروليتاريا) لا تستطيع أن تحافظ على نفسها إلا إذا هبّت البروليتاريا الأوروبية لنجدتها ، ذلك بسبب **مستوى التطور الاقتصادي في روسيا عام ١٩٠٥** . »

الأخطاء تتوالى ، فتؤدي قبل كل شيء الى خرق بذيء للأفق التاريخي . لقد قال لينين في الواقع ، أكثر من مرّة ، إن الدكتاتورية الديمقراطية (وليس دكتاتورية البروليتاريا) لا تستطيع المحافظة على نفسها في روسيا بدون قيام الثورة الاشتراكية في أوروبا . إن هذه الفكرة تتخلل ، كخيط أحمر ، جميع مقالات لينين وخطبه إبان مؤتمر الحزب في ستوكهولم عام ١٩٠٦ (في مساجلته مع بليخانوف ، وفي معالجته لقضايا التأميم ، الى آخره). ولم يخطر ببال لينين ، في تلك الفترة ، أن يطرح قضية قيام دكتاتورية البروليتاريا في روسيا قبل قيام الثورة الاشتراكية في أوروبا . غير أن الموضوع الأساسي ليس هنا في الوقت

الحاضر . ما هو معنى عبـــارة « بسبب مستوى التطور الاقتصادي في روسيا عام ١٩٠٥ » ؟ وكيف كان مستوى هذا التطور في عام ١٩١٧ ؟ ان نظريـــة الاشتراكية في بلد واحد قـــد بنيت على هذا التباين في المستويات . ولقد قسّم برنامج « الكومنترن » الكرة الأرضية الى مربّعات « مؤهلة » في مستواها لبناء الاشتراكية بشكل مستقل ، وأخرى « غير مؤهلة » لذلك ؛ فأوقع الستراتيجية الثورية بذلك في طرق مسدودة لا أمل بالخروج منها . لا شك في أن التباين في المستويات الاقتصادية قد ينعكس على قوى الطبقة العاملة السياسية . ففي عـام ١٩٠٥ ، لم نستطع أن نرتفع الى مستوى دكتاتورية البروليتاريا كما أننا لم نستطع أن نرتفع الى مستوى الدكتاتورية الديمقراطية . وفي عـــام ١٩١٧ ، اقمنـا دكتاتورية الـبروليتاريا التي ابتلعت الدكتاتورية الديمقراطية ، ولكن مستوى التطور الاقتصادي الذي كان موجوداً عـــام ١٩١٧ وعـــام ١٩٠٥ لم يسمح للدكتاتورية بأن تحافظ على نفسها وتتطور نحـــو الاشتراكية الا اذا هبت البروليتاريا الأوروبية لنجدتها في الوقت المناسب . وطبعاً ، لا يمكن تحديـــد هذا « الوقت المناسب » بشكل مسبق ، ان مجرى التطور والنضال يحدد انه . إلى جانب هذه المسألة **الاساسية** التي تحدّدها العلاقة بين القوى **في العالم** والتي لها الكلمة الفاصلة الأخيرة في الأمر ، يصبح التبـاين في مستويات التطور في روسيا بين عام ١٩٠٥ وعام ١٩١٧ عاملاً ثانوياً مهما بلغ من الاهمية .

غير ان راديك لا يكتفي بالاشارة المبهمة الى هـــذا التباين في المستويات . فبعد الاشارة الى ان لينين قـــد ادرك الارتباط بين قضايا الثورة الداخليـــة وقضاياها العالمية ، يستطرد قائلاً :

« الا ان لينين لم **يشدّد** فقط على هـذا الارتباط بين المحافظة على الدكتاتورية الاشتراكيـة في روسيا وبين مساعـــدة بروليتاريا أوروبا الغربية لها مثلما **بالغت** صياغة **تروتسكي الشديدة الحدّة** التي تؤكـــد انـــه يجب على المساعدة ان تكون مساعـدة

حكومية ، أي مساعدة تقدّمها بروليتاريا أوروبا الغربية بعد تحقيق إنتصارها » .

بصراحة ، لم اصدق عيوني عندما قرأت هذه الاسطر . لأي هدف استعار راديك هذا السلاح البالي من مستودع « رجال الصف الثاني » ؟ إنه مجرد ترداد مخزٍ للتفاهات الستالينية التي كنا دوماً نسخر منها . وعلاوة عن الاشياء الأخرى ، فان هذا المقطع يبيّن ان راديك لا يفهم المعالم الرئيسية لخط لينين الفكري . إن لينين ، على عكس ستالين ، لم يكن يعتقد ان ضغط البروليتاريا الأوروبية على الحكم البرجوازي هو البديل لاستلام البروليتاريا للحكم بل على العكس ، فقد صاغ مسألة المساعدة الثورية الخارجية بحدة تفوق الحدة التي صفتها انا بها . فخلال فترة الثورة الأولى ، كان يردّد بدون كلل انه لا يمكن لنا ان نحتفظ بالديمقراطية (ولا حتى بالديمقراطية!) الا اذا قامت الثورة الاشتراكية في أوروبا . ويمكن ان نقول بشكل عام ، انه في فترة ١٩١٧ – ١٩١٨ ، لم ينظر الى مصير ثورتنا ولم يقيّمه الا مرتبطاً بمصير الثورة الاشتراكية التي كانت بوادرها آخذة في البروز في أوروبا . وعلى سبيل المثال ، فقد صرَّح علناً : « بدون انتصار الثورة في المانيا فاننا لا محالة هالكون » . وقد قال ذلك في عام ١٩١٨ ولم يقله بصدد « المستوى الاقتصادي » عام ١٩٠٥ ، وهو لم يكن يتكلم عن العقود القادمة وانما عن الفترة التي تلي مباشرة، أي عن السنوات أو الأشهر القليلة القادمة .

لقد أعلن لينين في عشرات المناسبات : إذا كنا قد صمدنا « فانما يعود ذلك ... الى وجود مزيج ملائم من الظروف حمانا من الاستعمار العالمي لفترة قصيرة » (إنتبه الى عبارة : لفترة قصيرة !) . ويقول بعد ذلك : « لا يمكن للاستعمار العالمي في أي ظروف وبأي شرط ان يعيش جنباً الى جنب مع الجمهورية السوفييتية ... إن الصراع حتمي على هذا الصعيد » . وما هي النتيجة ؟ الدعوة الى التفاؤل السلمي « بضغط » البروليتاريا ام الدعوة الى «ازالة مفعول » البرجوازية ؟ كلا . النتيجة هي التالية : « إن الصعوبة الكبرى التي

تواجه الثورة الروسية هي...ضرورة تفجير الثورة العالمية» . (لينين: المؤلفات الكاملة - المجلد ١٥ - ص ١٢٦ - الطبعة الروسية) . متى قيل هذا الكلام ؟ لقد قيل عام ١٩١٨ وفي الاعوام التي تلته ولم يقل عام ١٩٠٥ عندما كان نقولا الثاني يفاوض وليم الثاني بغية القضاء على الثورة وعندما قدّمت صيغتي البالغة « الحدة » .

هذا ما قاله لينين في مؤتمر « الكومنترن » الثالث :

> « كان واضحاً بالنسبة الينا ان انتصار ثورة البروليتاريا (في روسيا) أمر مستحيل ما لم تدعمها الثورة العالمية . وكنا نقول : إما ان تندلع الثورة في البلدان الأخرى ، أي في البلدان الأكثر تقدماً في الاتجاه الرأسمالي ، رأساً أو على الأقل بسرعة عظيمة وإما ان يكون مصيرنا الهلاك. وبالرغم من هذه القناعة، فلقد بذلنا كل جهد للمحافظة على النظام السوفييتي في جميع الظروف غير مبالين بالعواقب ، لأننا كنا نعلم اننا لا نعمل من أجل انفسنا فقط وانما من أجل الثورة العالمية أيضاً . كنا نعلم ذلك ، ولقد رددنا هذه القناعة مراراً قبل ثورة اكتوبر وبعد قيامها مباشرة وإبان توقيع معاهدة «بريست لوتوفسك». وكنا على حق في ذلك ، هذا إذا تكلمنا بشكل عام . اما في الواقع الفعلي فان الاحداث لم تسلك خطاً بالاستقامة التي توقعنا لها ان تسلكه » .
>
> (محاضر مؤتمر الكومنترن الثالث - ص ٣٥٤ - الطبعة الروسية) .

ابتداء من عام ١٩٢١ بدأت الحركة بالسير في خط لم يكن بالاستقامة التي توقعنا لها انا ولينين ان تسير به عام ١٩١٧-١٩١٩ (وليس فقط عام ١٩٠٥).

ومع ذلك فقد تطورت في خط التناقضات العدائية بين الدولة العمالية والعالم البرجوازي . وكان لا بد من ان ينهار احدهما ! ولا يمكن المحافظة على الدولة العمالية في وجه الأخطار المميتة التي تتهددها، اقتصادية كانت أم عسكرية ، الا بانتصار ثورة البروليتاريا في الغرب . وان محاولة اكتشاف التباين بين موقفي وموقف لينين لهو ذروة في القذارة النظرية . أعيدوا قراءة لينين على الأقل ، لا تشوّهوه ، ولا تسقونا هذا الحساء الستاليني الفاسد !

إلا ان الانحدار نحو الدرك لايتوقف عند هذا الحدّ . فبعد ان يخترع راديك قصة تقول انلينين يعتبر ان المساعدة « البسيطة » التي تقدمها البروليتاريا العالمية تكفي (هذه الفكرة الاصلاحية في جوهرها والمنسوبة إلى بورسيل) ، وان تروتسكي قد « بالغ في الالحاح « على المساعدة الحكومية فقط ، اي المساعدة الثورية ؛ بعد ذلك يستطرد راديك قائلاً :

« لقد اثبتت التجربة ان لينين كان على حق في **هذه النقطة ايضاً** . لم تكن البروليتاريا الأوروبية قد أصبحت من القوة بحيث تستطيع الاستيلاء على الحكم ، غير انها كانت تملك القوة الكافية، خلال فترة التدخل، لتمنع البرجوازية العالمية من ان تحشد قوي فعّالة في المعركة ضدنا . وقد ساعدت بذلك على المحافظة على السلطة السوفييتية . إن الخوف من الحركة العمالية والتناقضات داخل العالم الرأسمالي ذاته كانت القوة الاساسية التي ضمنت استمرار السلم خلال السنوات الثماني بعد انتهاء فترة التدخل » .

إن هذا المقطع الذي لا يحمل شيئاً من الطرافة اذا ما قورن بفروض الانشاء التي يخطّها الموظفون الفكريون في زمننا هذا ، يبقى جديراً بالاهتمام لانه مزيج من التزوير التاريخي ومن البلبلة السياسية ومن أفظع الاغلاط المبدئية .

يستنتج من كلام راديك ان لينين، في منشور له عام ١٩٠٥ بعنوان « خطط

عمل للاشتراكية – الديمقراطية » (هذا هو المنشور الوحيد الذي يشير اليه راديك) قد تنبأ ان ميزان القوى بين الدول والطبقات بعد عام ١٩١٧ سيكون في وضع يحول فيه لمدة طويلة دون امكان حصول تدخل عسكري واسع ضدنا . ومقابل ذلك ، فان تروتسكي لم يتنبأ عام ١٩٠٥ بالوضع الذي سينتج حتماً بعد الحرب الاستعمارية ، ولكنه اكتفى بالاعتراف بوقائع تلك الحقبة كقوة جيش الهوهنزولرن مثلاً ، وضخامة جيش الهابسبرغ ، وجبروت البورصة الفرنسية ، الى آخره . هذا افتراء حقير على التاريخ ، يزيد في تعقيده التناقضات السافلة التي يحتويها . يعتبر راديك ان خطأي الأساسي هو اني توقعت قيام دكتاتورية البروليتاريا « مع وجود مستوى التطور الاقتصادي كما كان عليه عام ١٩٠٥ » . والآن يتضح الخطأ الثاني : اني لم اعالج توقّع قيام دكتاتورية البروليتاريا الذي عرضته عشية ثورة عام ١٩٠٥ في ضوء الوضع الدولي الذي لم يبرز إلا بعد عام ١٩١٧. عندما تبدو حجج ستالين على هذا النحو ، فاننا لا ندهش بها ، لاننا على علم وثيق « بمستوى تطور » ستالين كما كان عام ١٩١٧ وكما هو عام ١٩٢٨ – ولكن كيف وقع راديك بين مجموعة كهذه ؟

ومع ذلك فحتى هذا ليس اسوأ ما في الأمر . إن راديك قد قفز عن الحاجز الذي يفصل الماركسية عن الانتهازية والموقف الثوري عن الموقف السلمي – وهذا اسوأ ما في الأمر . ليست المسألة إلاّ مجرد مسألة النضال ضد الحرب أي مسألة البحث عن اساليب تتبع لتفادي الحرب او إيقافها : **ضغط البروليتاريا على البرجوازية أم حرب أهلية تقضي على البرجوازية ؟** لقد أدخل راديك ، بدون علم منه ، مسألة أساسية تتعلق بسياسة البروليتاريا في النقاش الدائر بيننا .

هل يعني راديك اني لا « أتجاهل » دور الفلاحين فحسب وإنما أتجاهل ضغط البروليتاريا على البرجوازية كذلك ، واني لا آخذ بعين الاعتبار إلا ثورة البروليتاريا ؟ يصعب التصديق أن راديك يدافع عن تفاهة كهذه جديرة بأمثال « ثالمان »و«سيمار»و«مونموسّو ». في مؤتمر « الكومنترن » الثالث دعا اليساريون

المتطرفون آنذاك (زينوفييف ، ثالهايمر ، بيلاكون ، الى آخره) الى انتهاج خطط تكتيكية غايتها القيام بانقلابات في الغرب لإنقاذ الاتحاد السوفييتي . ففسّرت لهم ولينين ، بأبسط أسلوب ممكن ، أن أفضل مساعدة يستطيعون تقديمها هي أن يعملوا بشكل منهجي مبرمج لترسيخ مواقعهم ولتحضير أنفسهم للاستيلاء على الحكم عوضاً عن أن يفتعلوا المغامرات الثورية لمساعدتنا . ومما يدعو للأسف الشديد ان راديك لم يقف في تلك المناسبة الى جانب لينين وتروتسكي وإنما وقف الى جانب زينوفييف وبوخارين . ولا شك في ان راديك يتذكر ان جوهر نقاشي ونقاش لينين كان الهجوم على اعتباطية « الصياغة الشديدة الحدّة » التي تقدم بها اليساريون المتطرفون ؛ على كلٍّ إذا كان راديك لا يتذكر ذلك فما عليه إلاّ أن يعود الى محاضر المؤتمر الثالث . وبعد أن فسّرنا لهم أن دعم الحزب وممارسة البروليتاريا للضغط هما عاملان في غاية الأهمية في العلاقات الداخلية والدولية ، أضفنا – نحن الماركسيين – ان « الضغط » هو وظيفة من وظائف النضال الثوري الهادف الى استلام الحكم وانه يعتمد كلياً على تطور هذا النضال . لهذا السبب ، ألقى لينين خطاباً في نهاية المؤتمر الثالث في اجتماع واسع خاص للمندوبين كان موجهاً ضد نزعات الاستكانة والوقوف الى هامش الأحداث ، وختم خطابه بهذه التوصية : أيها الأصدقاء ، لا تشتركوا في المغامرات ، ولكن لا تتلكأوا ، إننا لن نصمد طويلاً إذا مارستم « الضغط » وحده .

يشير راديك الى ان البروليتاريا الأوروبية لم تكن مؤهلة لاستلام الحكم بعد الحرب غير أنها منعت البرجوازية من أن تسحقنا . ولقد تكلمتُ حول هذا الموضوع في أكثر من مناسبة . بيد أن البروليتاريا الأوروبية قد نجحت في ان تحول دون سحقنا فقط لأن ضغط البروليتاريا صادف وجود النتائج الموضوعية الخطيرة للحرب الاستعمارية والتناقضات العالمية التي زادت هذه الحرب من حدّتها . ولا يمكن أن نحدد أيّ عامل كان له الدور الحاسم : الصراع داخل المعسكر الرأسمالي أم الانهيار الاقتصادي أم ضغط البروليتاريا ؛ المسألة لا تطرح

على هذا النحو . لقد أثبتت الحرب الاستعمارية ، بما لا يسمح الشك ، أن الضغط السلمي لا يكفي بمفرده لأن هذه الحرب قد نشبت بالرغم من جميع أنواع « الضغط » . وأخيراً ، وهذا أهم ما في الأمر ، إذا كان ضغط البروليتاريا فعالاً في السنوات الحرجة الأولى من حياة الجمهورية السوفييتية فذلك يعود الى أن المسألة لم تكن بالنسبة لعمال أوروبا مسألة ممارسة الضغط بل مسألة النضال من أجل استلام الحكم ؛ وغالباً ما أخذ هذا النضال شكل حرب أهلية .

في عام ١٩٠٥ ، لم يكن هناك حرب ولا انهيار اقتصادي وكانت الرأسمالية والنزعات العسكرية في ذروة هيجانها الدموي . فعجز « الضغط » الذي مارسه الاشتراكيون – الديمقراطيون آنذاك عن أن يمنع وليم الثاني أو فرانز جوزيف من اجتياح مملكة بولونيا بجيشهما ومن أن يهبّوا لنجدة القيصر . وحتى في عام ١٩١٨ ، فالضغط الذي مارسته البروليتاريا الالمانية لم يحل دون احتلال الهوهنزولرن لمقاطعات البلطيق وأوكرانيا ، وإذا لم يصلوا الى موسكو فإنما يعود ذلك الى ضعف قواهم العسكرية . وإذا كان الأمر غير ذلك ، لماذا وكيف عقدوا معاهدة الصلح في بريست ؟ ما أسهل نسيان الماضي ! إن لينين لم يقتصر في كلامه على تعليق الآمال بضغط البروليتاريا ولكنه أكّد مراراً أننا لا بد هالكون إذا لم تندلع الثورة في المانيا . وكان هذا القول مصيباً في جوهره رغم أن فترة أطول من الزمن قد انقضت . يجب ان لا تخدعنا الأوهام : لقد صدر بحقنا حكم مؤجل الى أجل غير مسمّى . ونحن ما زلنا نعيش ، كما كنا في السابق ، برهة استنشاق الهواء قبل العودة الى الغوص .

إن وضعاً لا تستطيع البروليتاريا فيه أن تستولي على الحكم ولكنها تستطيع أن تمنع البرجوازية من استعمال قوتها لشن الحرب، هو خير مثال على وضع من التوازن الطبقي غير المستقر . ونعتبر التوازن غير مستقر بالتحديد لأنه لا يمكن أن يستمرّ طويلاً . لا بد من أن ترجح هذه الكفة أو تلك . فإما أن تستلم البروليتاريا الحكم وإما أن تضعف البرجوازية الضغط الثوري ، بواسطة سلسلة من الضربات الساحقة ، بحيث يتسنى لها أن تستعيد حرية التصرف خاصة في

قضيتي الحرب والسلم .

إن الموقف الاصلاحي هو وحده الذي يصوّر ضغط البروليتاريا على الدولة البرجوازية على انه عامل تتزايد أهميته باستمرار وانــه ضمانة ضد التدخل . فمن هذا المفهوم بالذات نشأت نظرية بنـــاء الاشتراكية في بلد واحد التي تنطلق من موضوعــة « ازالة مفعول » البرجوازية العالمية (ستـــالين) . ومثلما تهرب البومة عند انبلاج الفجر فـــان نظرية ستالين عن ازالة مفعول الــبرجوازية بواسطة ضغط البروليتاريا تنشأ فقط عندما تـــأخذ الظروف التي ولـّدتهـا بالاضمحلال .

لقد عانى الوضع العالمي من تغـّيرات مفاجئة في فـــترة أدى فيها التفسير الخاطىء لتجربة مـــا بعد الحرب الى التعلـّل بالامل الـكاذب باننا سوف نتدبّر أمورنا دون الحاجة الى ثورة البروليتاريا الأوروبية باستبدالنا هذه الثورة بفكرة « الدعم » بشكل عام . ان هزائم البروليتاريا قد مهّدت الطريق أمام استقرار الرأسمالية . لقد تغلبت الرأسمالية على النكسة التي اصيبت بهـــا بعد الحرب . وبرزت اجيال جديدة لم تذق أهوال المجازر الاستعمارية . فكانت النتيجة أن البرجوازية تملك الان حرية في التصرّف بآلتها الحربية اكثر مما كانت تملك من حرية منذ خمسة أو ثمانية سنوات خلت .

عندما تتجه الجماهير العـاملة الى اليسار تؤدي هـــذه العملية ، في تطورها اللاحق ، إلى ازدياد ضغطها مرّة أخرى على الدولة البرجوازية . غير ان هـــذا العامل سيف ذي حدّين . إن تفاقم خطر الطبقة العاملة بالذات هو الذي يدفع البرجوازية ، في طور لاحق ، الى اتخاذ اجراءات حاسمة لـكي تؤكد انها سيّدة في دارها وإلى محـاولة تحطيم المركز الرئيسي الذي ينشر العدوى الثـــورية : الجمهورية السوفييتية . **إن النضال ضد الحرب لا يحـدده الضغط على الحكومة وانما النضال الثوري لاستلام الحكم فقط.** إن الآثار « السلمية » للصراع الطبقي البروليتاريا ، مثل آثاره الاصلاحية ، ما هي إلا منتوجات للنضال الثـــوري لاستلام الحـكم ؛ انها لا تملك الا قوة نسبية ومن السهل قلبها إلى نقيضها ، اي أنها

قد تدفع البرجوازية في طريق الحرب. ان خوف البرجوازية من الحركة العمّالية، الذي يعالجه راديك من زاوية جد متميّزة، هو الامل الفعلي الذي يتعلق به جميع الاشتراكيين السلميين. الا ان « الخوف » من الثورة لا يقرّر شيئاً بمفرده. الثورة هي التي تقرّر. لهذا السبب قال لينين ان الضمانة الوحيدة ضد عودة الملكية عام ١٩٠٥، وضد عودة الرأسمالية عام ١٩١٨، ليست الضغط الذي تمارسه البروليتاريا وانما انتصارها الثوري في أوروبا. هذا هو الشكل الوحيد لطرح القضية. وبالرغم من طول مدّة استنشاق الهواء قبل العودة الى الغوص، فان صياغة لينين ما تزال تحتفظ بكل قوتها حتى في هذه الأيام. ولقد صغت المسألة بالطريقة ذاتها. فكتبت في « نتائج وتوقّعات » عام ١٩٠٦ ما يلي:

« إن الخوف من انتفاضة البروليتاريا هو بالتحديد العامل الذي يجبر الأحزاب البرجوازية، حتى وهي تصوّت إلى جانب صرف المبالغ الهائلة لمتابعة الحرب، على الادلاء بتصريحات رنّانة تؤيد فيها السلم، وعلى تعليق الآمال على « لجان تحكيم دولية »، وحتى على تنظيم «الولايات المتحدة الاوروبية». إن هذه التصريحات الرنانة البائسة لا تستطيع طبعاً ان تلغي التناقض بين الدول ولا الصراعات المسلحة ».

تروتسكي : «ثورتنا» ــ مقالة«نتائج وتوقّعات»ــ ص ٢٨٣).

إن الخطأ الاساسي الذي وقع فيه المؤتمر السادس يكمن في انه، سعياً منه وراء إنقاذ توقعات ستالين وبوخارين السلمية والاصلاحية ــ الوطنية، أخذ يبحث عن وصفات ثورية ــ تقنية لتفادي خطر الحرب فاصلاً بذلك النضال ضد الحرب عن النضال من أجل إستلام الحكم.

وقد حاول موجّهو المؤتمر السادس هؤلاء البناة المترددون للاشتراكية في بلد

واحد الذين هم في جوهرهم سلميون متخوفون ، ان يزيدوا في سرعـــة « ازالة مفعول » البرجوازية بواسطة وسائل «ضغط » مكثف. وبما انه لم يكن بامكانهم الا ان يعلموا ان قيادتهم قد ادّت الى هزيمة الثورة في عدد من البلدان حتى الآن ، وانها قد أخرّت مسيرة طليعة البروليتاريا العالمية ، فقد سعوا في الدرجة الأولى الى نبذ « الصياغة الشديدة الحـدّة » التي طرحتها الماركسية والتي تربط قضية الحرب بقضية الثورة بشكل عضوي فحوّلوا النضال ضد الحرب الىمهمة اكتفاء ذاتي . وحتى لا تتغافل الاحزاب الوطنية عن الساعة الحاسمة ، اعلنوا ان خطر الحرب دائم عاجل لا يؤجل . وكل ما يحدث في العالم غايته الحرب . فـلم تعد الحرب بعد الآن اداة في يد النظام البرجوازي بل أصبح النظام البرجوازي اداة في يد الحرب. ونتيجة لذلك تحوّل نضال الأممية الشيوعية ضد الحرب إلى مجموعة من الشعائر تردّدبشكل آلي في كل مناسبة فتفقد مفعولها وتتبخر. ان الاشتراكية الوطنية الستالينية تـتّجه نحو تحويل الأممية الشيوعية إلى اداة ثانونة « للضغط » على البرجوازي . إن هذا هو الاتجاه الذي يدعمه راديك بنقده السريع والمائع والسطحي وليس الاتجاه الماركسي . لقد أضاع بوصلته وانجرف في تيارٍ هجين قد يقذف به إلى شطآن غريبة بعيدة .

الما – آتا – تشرين الأول ١٩٢٨ .

٩- ماهي الثورة الدّائمة

الفرضيات الأساسية

١ – تتطلب نظرية الثورة الدائمة الآن الاهتمام الأكبر من طرف كل ماركسي لأن سير الصراع الطبقي والايديولوجي قد رفع هذه المسألة ، بشكل كامل ونهائي ، من نطاق ذكريات الخلافات القديمة في الرأي بين الماركسيين الروس وحوّلها الى مسألة تتعلق بطابع الثورة العالمية وبعلاقاتها وبأساليبها بشكل عام.

٢ – تقول نظرية الثورة الدائمة، فيما يتعلق بالبلدان ذات التطور البرجوازي المتأخر وخاصة البلدان المستعمرة أو شبه المستعمرة ، إن الحل الكامل الأصيل لمهام **الديمقراطية والتحرر الوطني** فيها لا يمكن أن يتم إلا من خلال دكتاتورية البروليتاريا بوصفها قائدة للأمة المخضعة ، وبشكل خاص بوصفها قائدة لجماهيرها الفلاحية .

٣ – إن المسألتين الزراعية والوطنية تعيّنان للفلاحية ، الاغلبية الساحقة من سكان البلدان المتخلفة ، دوراً أساسياً في الثورة الديمقراطية . ولا يمكن تنفيذ مهام الثورة الديمقراطية ولا حتى طرحها بجدية إذا لم يتم تحالف البروليتاريا مع الفلاحين. إلا ان تحالف هاتين الطبقتين يمكن تحقيقه فقط خلال النضال الدؤوب ضد نفوذ البرجوازية الوطنية الليبرالية .

٤ – مهما تكن طبيعة المراحل الاولى من الثورة في كل بلد بمفرده ، فإن تحقيق التحالف الثوري بين البروليتاريا والفلاحين لا يمكن أن يتم إلا تحت القيادة السياسية للطليعة البروليتاريا المنظمة في الحزب الشيوعي . وهذا يعني انه

لا يمكن أن نتبيّن انتصار الثورة الديمقراطية إلاّ من خلال قيام دكتاتورية البروليتاريا التي ترتكز على التحالف مع الفلاحين والتي تنفّذ في البدء مهام الثورة الديمقراطية .

٥ – إذا ما قيمنا شعار البلاشفة القديم « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » تقييماً تاريخياً ، نجد انه عبّر بدقة عن العلاقة التي سبق ان حددنا طابعها بين البروليتاريا والفلاحين والبرجوازية الليبرالية. وهذا ما أكّدته تجربة اكتوبر . الا ان صيغة لينين القديمة لم تجب سلفاً على السؤال : كيف ستكون العلاقات المتبادلة بين البروليتاريا والفلاحين داخل الجبهة الثورية ؟ وبعبارات أخرى، احتفظت هذه الصيغة عن قصد بطابع المعادلة الرياضية الجبرية ، فكان لا بد لها من أن تفسح المجال أمام كميات حسابية أكثر دقة في عملية التجربة التاريخية ، ومهما يكن من أمر ، فقد أكدت التجربة التاريخية ، في ظروف لا تحتمل الشك ، انه مهما كان دور الفلاحين كبيراً فليس بامكانهم ان يلعبوا دوراً مستقلاً ولا ان يلعبوا دوراً قيادياً . ان الفلاح إما ان يتبع العامل وإما أن يتبع البرجوازي . وهذا يعني انه لا يمكن فهم « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » إلا **كدكتاتورية البروليتاريا التي تقود الجماهير الفلاحية .**

٦ – ان دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية كنظام يتميّز بمضمونه الطبقي عن دكتاتورية البروليتاريا ، يتحقق فقط عندما تتوفر امكانية تأسيس حزب سياسي **مستقل** يعبر عن مصالح الفلاحين بشكل خاص وعن مصالح العناصر الديمقراطية من البرجوازية الصغيرة بشكل عام ، حزب يستطيع ان يستولي على الحكم بهذا القدر أو ذاك من مساعدة البروليتاريا له ، وان يحدّد لنفسه برنامجاً ثورياً . ان التاريخ الحديث باجمعه يشهد ، وبخاصة تجربة السنوات الخمس والعشرين الاخيرة في روسيا ، ان الحاجز الذي لا يمكن ازاحته عن الطريق إلى تكوين حزب الفلاحين هو فقدان البرجوازية الصغيرة للاستقلال الاقتصادي والسياسي ، والمفارقات العميقة الموجودة في داخلها . لهذا السبب ، تقف القطاعات العليا من البرجوازية الصغيرة (ومن الفلاحين) الى جانب البرجوازية

الكبيرة في جميع القضايا الحاسمة وخاصة في حالتي الحرب والثورة ، بينما تقف القطاعات الدنيا منها الى جانب البروليتاريا مما يجبر القطاعات الوسيطة على الاختيار بين قطبين على طرفي نقيض . بين الكرنسكية والسلطة البلشفية ، بين الكيومنتانغ ودكتاتورية البروليتاريا لا ولن يمكن ان يرتسم سبيل وسط ، اي لا يمكن ان تتحقق « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » .

٧ – ان محاولة الكومنترن إقناع البلدان الشرقية بشعار « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » الذي استهلكه التاريخ نهائياً ومنذ زمن طويل ، لا يمكن ان يكون له إلا مردود رجعي . وإلى المدى الذي يستعمل هذا الشعار كبديل لشعار «دكتاتورية البروليتاريا» فهو يساهم في تذويب البروليتاريا سياسياً في مجموع البرجوازية الصغيرة ، خالقاً بذلك الظروف المشجعة على سيطرة البرجوازية الوطنية وبالتالي على انهيار الثورة الديمقراطية . وإن إدراج هذا الشعار في برنامج الكومنترن هو خيانة صريحة للماركسية ولتقاليد ثورة اكتوبر البلشفية .

٨ – ان دكتاتورية البروليتاريا التي ارتقت إلى سدة الحكم بوصفها قائدة الثورة الديمقراطية سوف تجابه حتماً وسريعاً بمهام لا يمكن تنفيذها الا بالمساس العميق بحقوق الملكية البرجوازية. إذّاك تنضج الثورة رأساً إلى ثورة إشتراكية فتصبح **ثورة دائمة** .

٩ – ان استلام البروليتاريا للحكم لا ينهي الثورة بل يبدأها . ولا يمكن تبيان عملية البناء الاشتراكي الاعلى اساس الصراع الطبقي على الصعيدين الوطني والعالمي . وسوف يؤدي هذا الصراع حتماً إلى انفجارات ، اي إلى حروب اهلية في الداخل وحروب ثورية في الخارج لكون العلاقات الرأسمالية طاغية على الصعيد العالمي طغياناً كاملاً . هنا تكمن ديمومة الثورة الاشتراكية كثورة اشتراكية ، دونما أي اعتبار لما اذا كان البلد المعني بالامر متخلفاً ، اي انه انجز ثورته الديمقراطية حديثاً ، أم رأسمالياً عريقاً يحمل وراءه فترة طويلة من التقاليد الديمقراطية والبرلمانية .

١٠ – ان انهاء الثورة الاشتراكية ضمن الحدود الوطنية امر غير معقول . وان احد الاسباب الاساسية الكامنة وراء ازمة المجتمع البرجوازي هو ان قوى الانتاج التي خلقها هذا المجتمع لم تعد منسجمة مع اطار الدولة القومية . وينتج عن ذلك الحروب الاستعمارية من جهة، والحديث الطوباوي عن« الولايات المتحدة الأوروبية » البرجوازية . من جهة أخرى ان الثورة الاشتراكية تبدأ ضمن الاطار الوطني وتتفتح على الصعيد الدولي ثم تستكمل على الصعيد العالمي . وهكذا تصبح الثورة الاشتراكية ثورة دائمة بالمعنى الجديد والواسع لهذه الكلمة ، ولا تصل إلى كمالها إلا عندما ينتصر المجتمع الجديد نهائياً على كوكبنا بأجمعه .

١١ – ان الصورة التي رسمناها اعلاه لتطور الثورة العالمية تستبعد قضية البلدان « الناضجة » او البلدان « غير الناضجة » وحق الترتيب الادعائي الميت الذي يتضمنه برنامج الكومنترن الحالي . فما دامت الرأسمالية قد خلقت السوق العالمية وتقسيم العمل العالمي وقوى الانتاج العالمية ، فهي تحضر بذلك الاقتصاد العالمي ككل للتحويل الاشتراكي .

ان الدول المتخلفة تسير في هذه الاتجاه بسرعات متباينة . وقد تصل الدول المتخلفة ، في ظروف معينة ، الى دكتاتورية البروليتاريا قبل الدول المتقدمة ، ولكنها تصل بعدها إلى الاشتراكية .

ان بلداً متخلفاً مستعمراً او شبه مستعمر ليست طبقته العاملة مهيأة التهيئة الكافية لتوحيد الفلاحين ولاستلام الحكم لا يستطيع بالتالي ان ينجز الثورة الديمقراطية . وعلى العكس من ذلك ، ففي بلد يكون الحكم بين ايدي البروليتاريا نتيجة للثورة الديمقراطية يتوقف مصير الدكتاتورية والاشتراكية في التحليل النهائي ليس فقط ، وليس بهذا القدر من الأهمية على قوى الانتاج الوطنية بقدر ما يتوقف على تطور الثورة الاشتراكية العالمية .

١٢ – ان نظرية « الاشتراكية في بلد واحد » التي ظهرت على وجه خميرة الردة ضد ثورة اكتوبر هي النظرية الوحيدة التي تناقض نظرية الثورة الدائمة

دائماً وابداً .

وإن محاولة « رجال الصف الثاني » ، تحت لسعات نقدنا، ان يحصروا تطبيق نظرية « الاشتراكية في بلد واحد » في روسيا فقط بسبب خصائصها المميّزة (اتساعها ووفرة مواردها الطبيعية) لا يحسن الأمور بل يزيدها رداءة . لأن الانفصال عن الموقف الاممي يؤدي دوماً وابداً الى وسيلة قومية ، أي الى محاولة إضفاء أفضليات وميزات خاصة على وطن ما تؤهلهان يلعب دوراً تعجز أوطان أخرى عن لعبه .

إن تقسيم العمل على الصعيد العالمي ، وإعتماد الصناعة السوفييتية على التقنية الاجنبية ، واعتماد قوى الإنتاج في بلدان أوروبا المتقدمة على المواد الخام الآسيوية ، الى آخره ، كل هذا يجعل من بناء مجتمع اشتراكي مستقل في أي بلد بمفرده أمراً مستحيلاً .

١٣ – إن نظرية ستالين وبوخارين التي تسير باتجاه مغاير لتجربة الثورة الروسية باكملها لا تميز الثورة الاشتراكية بشكل آلي عن الثورة الديمقراطية فحسب ، بل تخلق أيضاً هوة سحيقة بين الثورة الوطنية والثورة العالمية .

إن هذه النظرية تفرض على الثورات في البلدان المتخلفة ، مهمّة انشاء نظام الدكتاتورية الديمقراطية يستحيل تحقيقه ، كبديل عن دكتاتورية البروليتاريا . وهكذا تُدخِل هذه النظرية الأوهام والاساطير الى السياسة وتشل نضال بروليتاريا الشرق من أجل استلام الحكم وتعيق انتصار الثورة في الدول المستعمَرة .

إن عملية استيلاء البروليتاريا على الحكم بحد ذاتها تعني ، على حد إدعاء نظرية « رجال الصف الثاني » ، انجاز الثورة (« الى درجة التسعة اعشار » على حد قول ستالين) ، وبداية فترة من الإصلاحات الوطنية . لذلك فان نظرية نضج « الكولاك » الى الاشتراكية ، ونظرية « ازالة مفعول » البرجوازية العالمية لا تنفصلان بالنتيجة عن نظرية « الاشتراكية في بلد واحد » . إن هذه النظريات اما ان تقف معاً وإما ان تنهار معاً .

بواسطة نظرية الاشتراكية – الوطنية تقلصت « الأممية الشيوعية » الى مجرد سلاح ثانوي ينفع فقط في الصراع ضد التدخل العسكري . والسياسة الحالية التي ينتهجها « الكومنترن » ونظامه والطريقة التي يختار بهـــا مسئولية الرئيسيين تتناسب تماماً مع سقوط « الاممية الشيوعية » الى مستوى الجهاز الثانوي غـير المؤهل لتنفيذ المهام المستقلة .

١٤ – إن برنامج « الكومنترن » الذي وضعه بوخارين هـــو انتقائي جملة وتفصيلاً . انه محاولة يائسة للتوفيق بين نظرية «الاشتراكية في بلد واحد » وبين الاممية الماركسية ، التي لا يمكن فصلها بأي حال من الاحوال عن ديمومة الثورة العالمية . إن نضال « المعارضة الشيوعية اليسارية » من أجل انتهاج « الأمميـــة الشيوعية » لسياسة صحيحة وتبنّيها لنظام سليم ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنضال من أجل وضع برنامج ماركسي . ومسألة هذا البرنامج لا تنفصل بدورها عـــن مشكلة النظريتين التي تنفي الواحدة منهما الأخرى : نظرية « الثورة الدائمـة » ونظرية « الاشتراكية في بلد واحد » . إن قضية الثورة الدائمة قد تجاوزت منذ زمن بعيد الخلافات الآنية في الرأي التي كانت قائمة بـين لينين وتروتسكي والتي استهلكها التاريخ استهلاكاً كاملاً . إن الصراع يدور الآن بـين أفكار ماركس ولينين الاساسية من جهة ، وبين انتقائية الوسطيين من جهة أخرى .

١٠- خاتمة

في الأسطر التي ختمتُ بهـــا الفصل السابق[١] أوردت تنبؤاً أو بالأحرى تخوفاً جرى تأكيده بعد بضعة أشهر ، كما يعلم القراء . لقد استخدم راديك نقده للثورة الدائمة كمبرر للانشقاق عن المعارضة . إن كتابنا كله يبرهن ، كما نأمل ، أن انتقال راديك الى معسكر ستالين لم يفاجئنا قط . ولكن الكفر له مستوياته ودرجات انحطاطه . وفي البيان الذي يعلن فيه راديك توبته ، يعيد الاعتبـار لسياسة ستالين في الصين . هذا يعني الانحدار إلى أحطّ مستويات الخيانـة . ولم يبقَ لي سوى ان استشهد بمقطع من ردّي على « إعلان التوبـــة » الذي أصدره راديك وبريو براجنسكي وسميلغا[٢] ، هذه التوبة التي ادرجت أسماءهم على لائحة الحقراء السياسيين السوداء :

---

١ - الفصل ٨ في هذا الكتاب . (المترجم)

٢ - أوجين بريو براجنسكي : بلشفي قديم . عضو اللجنة المركزيـة منذ عام ١٩١٧ . عضو المكتب السياسي والأمانة العامة للحزب بين عـام ١٩١٩ و ١٩٢١ . اقتصادي مرموق وأحد قادة المعارضة اليسارية بين عـام ١٩٢٣ و ١٩٢٨ . فصل من الحزب في المؤتمر الخامس عشر . نفي عام ١٩٢٨ . استسلم لستالين عـــام ١٩٢٩ . اختفى في سجون منظمة الشرطة السرية السوفييتية .

ايفان سميلغا : بلشفي قديم . عضو اللجنة المركزية منذ نيسان عام ١٩١٧ . أحد مؤسسي الجيش الأحمر . عضو في مجلس الحرب الثورية . قائد المعارضة اليسارية (١٩٢٣ – ١٩٢٩) . فصل من الحزب في المؤتمر الخامس عشر ونفي الى سيبيريا . استسلم عـــام ١٩٢٩ . أعدم في محاكمات موسكو . (المترجم)

« وكما هو جدير بجميع المفلسين الذين يحترمون أنفسهم ، أبى هذا الثلاثي إلا أن يتستر وراء الثورة الدائمة . إن الثورة الصينية هي أعظم تجربة مأساوية في كل تاريخ انهزامات الانتهازية المعاصر. فما هو موقفهم منها ؟ يسعى هذا الثلاثي من المستسلمين الى صرف النظر عنها بواسطة قسَم ٍ رخيص يؤكدون فيه أن لا علاقة لها بنظرية الثورة الدائمة .

« لقد دافع راديك وسميلغا بعناد عن إخضاع الحزب الشيوعي الصيني للكيومنتانغ البرجوازي ليس فقط الى حين قيام تشانغ كاي تشيك بانقلابه العسكري ولكن بعد ذلك الحين أيضاً . أما بريو براجنسكي ، فقد تمتم بشيء مبهم كعادته دائماً عندما تطرح القضايا السياسية على بساط البحث . ويجدر الانتباه الى أن جميع الذين دافعوا في داخل صفوف « المعارضة » عن إخضاع الحزب الشيوعي للكيومنتانغ قد انتهوا بالاستسلام . وما من معارض ظل مخلصاً لشعاراته يحمل هذه الوصمة ، التي هي وصمة عار كبيرة . فبعد ثلاثة أرباع القرن من ظهور « البيان الشيوعي » ، وبعد ربع قرن من تأسيس حزب البلاشفة ما زال هؤلاء « الماركسيون » السيئو الطالع يظنون أنه بالإمكان الدفاع عن إبقاء الشيوعيين في قفص الكيومنتانغ ! وفي رده على اتهاماتي له في تلك الفترة ، قدم راديك نفس الحجة التي قدمها في رسالة توبته اليوم : اعلن تخوفه من « انعزال » البروليتاريا في حال انسحاب الحزب الشيوعي من الكيومنتانغ البرجوازي . وكان راديك ، قبل ذلك بوقت قصير ، قد أطلق على « حكومة كانتون » لقب حكومة عمالية وفلاحية فساعد ستالين بذلك على تغطية سياسة إخضاع البروليتاريا للبرجوازية . هذه الأفعال المخزية الناتجة عن هذا التعامي وهذه البلاهة وهذه الخيانة الصريحة للماركسية ، بماذا يجري تغطيتها ؟ بماذا حقاً ؟ بإدانة الثورة الدائمة .

« حتى في شباط عام ١٩٢٨ كان راديك يبحث عن مبررات لاستسلامه ، فأيد في الوقت المناسب قراراً صدر في الشهر نفسه عن اجتماع اللجنة المركزية للكومنترن . كان هذا القرار يصم التروتسكيين بالانهزامية لأنهم يسمون الهزائم

هزائم، ولأنهم رفضوا اعتبار الثورة-المضادة في الصين أعلى مستوى من مستويات الثورة الصينية . وقد أعلن هـذا القرار ذاته في شباط عن التحضير للانتفاضة المسلحة ولبناء السوفييت . إن أي إنسان لا يعوزه الحس والخبرة السياسيين كان يعتبر هذا القرار مثلاً لأقذر أنواع نزعـة المغامرة وأكثرها بعداً عن المسئولية . غير أن راديك تبنى القرار . وعالج بريو براجنسكي الموضوع بطريقة لا تقـل براعة عن طريقة راديك ولكن من زاوية أخرى . فكتب يقول إن الثورة قد انهزمت فعلاً وان هزيمتها ستطول. ولن تقوم ثورة جديدة في المستقبل القريب . هل يجدر بنا أن نهدر الوقت سدى في نقاش تافـه حول الصين مع الوسطيين ؟ حول هذا الموضوع كتب بريو براجنسكي المؤلفات الطوال . وعندما قرأتها في « ألما – آتا » ، شعرت بالخجل . فتساءلت مراراً : مـاذا تعلم هؤلاء في مدرسة لينين ؟ كانت منطلقات بريو براجنسكي تتعارض كل التعارض مـع منطلقات راديك ومع ذلك فقد وصلا الى استنتاجات واحدة : فكلاهما مدفوع برغبة جامحة لكي يعانقه ياروسلافسكي بشكل أخوي بعـد أن ينقـّي فنجينسكي الجو بينهما[1] طبعاً ، لقد قاموا بكل هذا لصالح الثورة. إنهم ليسوا طلاب مناصب. حاشى وكلا . انهم مجرد أشخـاص لا حول لهم ولا قوة قـد أعلنوا إفلاسهم العقائدي .

« في مقابـل القرار المشهور الذي صدر عن اللجنة المركزية للكومنترن في اجتماعها في شباط ١٩٢٨ ، كنتُ قد اقـترحت العمل على تكتيل العمال الصينيين حول مطالب ديمقراطية بما فيها مطلب عقد جمعية تأسيسية في الصين . ولكن الثلاثي السيىء الطالع سقط عند هذه النقطة في اليسارية – المغـالية ، فـكان موقفهم رخيصاً لم يلزمهم بشيء . شعـارات ديمقراطية ؟ كلا وابداً . « ذلـك هو الخطأ الجسيم الذي ارتكبه تروتسكي » . اننا لا نرضى الا بمجالس

---

١ – كان فنجينسكي في ذلك الحين رئيساً للشرطة السياسية . وكان ياروسلافسكي أحـد رؤساء « لجنة التفتيش المركزية » في الحزب ، وكان نشطاً بشكل خاص في التهجم على المعارضة وفي طرد اعضائها من الحزب . (ل.ت.) .

السوفييت للصين ؛ وليس باي شيء آخر . عن اذنكم يا سادة ، ولكن من الصعب ان نجد موقفاً أكثر تفاهة من موقفكم . ان شعار مجالس السوفييت في فترة الردّة البرجوازية هو لغو طفولي ، انه استهزاء بمجالس السوفييت . ولكن حتى ابان الثورة ، اي ابان فترة بناء السوفييت مباشرة ، لم نسحب الشعارات الديمقراطية . ولم نسحبها الا بعد ان اصطدمت مجالس السوفييت الحقيقية ، التي كانت قد استولت على الحكم، بمؤسسات الديمقراطية ذاتها على مرأى من الجماهير. هذا يسمى في لغة لينين (وليس في لغة الدعيّ ستالين وجوقته) : عدم القفز عن المرحلة الديمقراطية من تطور البلد .

« بدون برنامج ديمقراطي ، يحوي المطالبة بجمعية تأسيسية وبيوم عمل من ثماني ساعات ، وبمصادرة الأراضي ، وباستقلال الصين الوطني ، وبحق تقرير المصير لشعوب الصين يبقى الحزب الشيوعي الصيني موثوق الأيدي والأرجل ومضطراً إلى اخلاء الطريق بهدوء امام الاشتراكيين – الديمقراطيين الصينيين ليحتلّوا مكان الحزب الشيوعي بمساعدة ستالين وراديك وشركاهما .

« وهكذا ، فبالرغم من ان راديك قد واكب المعارضة منذ تكوينها ، الا انه خفي عنه أهم شيء في الثورة الصينية عندما دافع عن اخضاع الحزب الشيوعي للكيومنتانغ البرجوازي . لقد تجاهل راديك الثورة – المضادة في الصين عندما دعم الاتجاه الواعي الى العمل المسلح بعد مغامرة « كانتون » . وها هو اليوم يقفز عن مرحلة الثورة – المضادة وعن النضال من أجل الديمقراطية باهماله مهام المرحلة الانتقالية وبتمسكه بالافكار المجرّدة التي تتكلم عن مجالس السوفييت خارج الزمان والمكان . ومقابل هذا كله ، يقسم راديك ان لا علاقة له بالثورة الدائمة . هذا امر يدعو الى الامتنان ويجلب العزاء ...

« ان نظرية راديك وستالين المعادية للماركسية تعني بالنسبة للصين والهند وسائر بلدان الشرق تكرار تجربة الكيومنتانغ بشكل معدّل ولكنه ليس أفضل من ذي قبل .

« بناء على تجربة الثورتين الصينية والروسية ، وبناء على تعاليم ماركس

ولينين التي جرى اختبارها في ضوء هاتين الثـــورتين ، تؤكد المعارضة ما يلي :

« ان شعار «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية» الذي يطرح في مقابل شعار «دكتاتورية البروليتاريا» التي تقود الفلاحين وتنفذ البرنامج الديمقراطي، ما هو الا مجرد اسطورة من الاساطير وعملية خداع ذاتي ، بل أسوأ من ذلك : إنه نوع من « الكرنسكية » أو « الكيومنتانغية » .

« بين نظام حكم كرنسكي وتشانغ كاي تشيك من جهة ، وبـين دكتاتورية البروليتاريا من جهة أخرى لا ولن يوجد نظام حكم ثوري وسيط. وكل من يتقدم بمثل هذه الصيغة الفارغة يخدع عمال الشرق بنذالة، ويمّهد لكوارث جديدة .

« إن المعارضة تتوجه الى عمـــال الشرق قائلة : إن المستسلمين الذي افلسوا نتيجة المؤامرات في داخل الحزب ، يساعدون ستالين على زرع بذور الوسطية وعلى ذر الرماد في عيونكم وصم آذانكم وتخدير عقولكم . فمن جهة ، غدوتم بلا حول ولا قوة تجاه دكتاتورية برجوازية صلفة إذ مُنعتم من النضال من أجـــل الديمقراطية ، ومن جهـــة أخرى ، يجري تضليلكم بصورة لدكتاتورية تجلب الخلاص هي ليست دكتاتورية البروليتاريا، تمهّد الطريق امام تقمّص الكيومنتانغ شكلاً جديداً في المستقبل ، أي تمهد لهزائم جديدة لثورة العمال والفلاحين .

« إن هؤلاء المبشرين هم خونة . فيا عمال الشرق : تعلموا ان لا تثقوا بهم ، تعلموا ان تمقتوهم ، تعلموا ان تطردوهم من صفوفكم !... » .

فهرست

صفحة



« لم يثر اي من السياسيين العظام في هـذا القرن من الاهواء والخلافات بقدر ما اثار تروتسكي ، فمثله لم يضطهد احد او يلعن او يساء فهمه . ومع ذلك ، ربما لا يوجد احد ، باستثناء لينين ، قـد ترك اثراً في هذا العصر بقدر ما ترك تروتسكي ... »

هذا هو ليون تروتسكي (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) رفيق لينين ومهندس الثورة الروسية ومؤسس الجيش الاحمر وواحد من اكبر المفكرين الماركسيين في هذا العصر .

وفي هذا الكتاب عرض نظرية ارتبطت خلال اكثر من نصف قرن باسمه : **« الثورة الدائمة »** وهي، علاوة عن كونها كشفاً للمغزى التاريخي للثورة الروسية ونقداً مبدئياً لنظرية « الاشتراكية في بلد واحـــد » دليل أســاسي لفهم ظاهرة الثورة الاشتراكية في البلدان المتخلفة بشكل عام وفي الوطن العربي بشكل خاص .

الثمن
٥٠٠ ق. ل.
٦٠٠ ق. س.